أ . د . حلمي محمد القاعود

عابـــــر سـبيل

مسافر في الجغرافيا والتاريخ

١٤٣٧ هـ = ٢٠١٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

كنت أحلم دائماً بالسفر و الرحلة ، أتوق لرؤية العالم و التعرف عليه واكتشاف المزيد من أنماط الحياة وأنواع السلوك ، وحققت بعض الحلم ، دون أن تكون الرحلة غاية في ذاتها ، والسفر هدفاً لذاته ... كان العمل ، أو العلم من وراء شدّ الرحال . أما الرحلة نفسها فلم تكن مقصودة إلا في زمن بعيد . أيام كنت طالباً في المرحلة المتوسطة أو الثانوية ، وكانت في داخل مصر ، و نفذتها بقروش قليلة ، وكانت جميلة جمال الأيام الأولى في حياة الصبا و الشباب ...

بعدها أخذتنا الدنيا و لم تفلتنا ! شدتنا وراءها فنسينا أنفسنا ، سعياً وراء غاية عامة أو خاصة ، ثم تكاثرت الهموم والآلام ، فجعلت الحركة محدودة ، والسفر مقيدًا بالضرورة القصوى ، والإلحاح المضني ...

وكنا في زمن الصبا والشباب نحفظ بيتا من الشعر يقول :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

وبالنسبة لي ، فقد كنت آخذ البيت على معناه الأصلي ، أتشوّق للسفر ، ولكني لا أجد الراحلة والزاد ، وأتعب لأن التعب قدر لا مفر منه لمن أراد الحياة .. بمعنى الحياة .. لذا لم أبرح مصر إلا إلى المملكة العربية السعودية حاجّا أو مُعلما، ومع أشواقي الدفينة للرحلة ، والاطلاع على ملامح العالم الخارجي ، فقد انصعت لفكرة التعرّف على هذه الملامح من خلال القراءة والكتب حتى بعد أن توفّرت إمكانات السفر والرحيل .

ولعلي كنت متأثرا بالأستاذ العقاد حين قرأت له – ذات يوم – تعليلا لعدم سفره إلى دول العالم باستثناء (فلسطين والسودان ، وربما الحجاز) ، فقال : إنه يلفّ العالم كله من خلال الكتب .

على كل حال ظلت الرحلة حلما كامنا في الأعماق ، حتى شارفت الخمسين وكان الشباب قد ولى ، والصحة قد وهنت ، والنشاط قد تراجع ، ومع ذلك لم أتردد حين دعيت إلى السفر ، ووجدت تشجيعا إلى درجة الإلحاح من الأصدقاء والزملاء . لم أتوقف عند طبيعة البلد الذي سأذهب إليه ، أو طبيعة الرحلة من حيث الصعوبة والسهولة ، أو البعد والقرب . سافرت بلا تحفظ . كانت الغاية أن أعرف بلدا لم أعرفه من قبل . وأضيف إلى مجال الرؤية ما يوسعه ويثريه ..

جاءت الرحلات في سياقات علمية ، أو حضور مؤتمرات أكاديمية تفرض أن أرتبط بمكان البحث والمناقشة أكثر من الحركة الحرة الطليقة ، ومع ذلك انتزعت بعض الأوقات لأكتشف وأرى وأتأمل . ولم أتوقف عن السؤال والاستفسار من المرافقين المحليين أو من الزملاء أصحاب الخبرة والتجربة ..

طغت في متابعتي متاعب الجسد وآلامه وخاصة في السنوات الأخيرة . كان لا بد من الإشارة إلى ذلك مع إدراكي أنه قد يضايق القارئ أن يتحدث كاتب عن متاعبه الصحية ، ولكن تسجيل اللحظة فرض التعبير عنها من شتى جوانبها بما فيها ضعف البنيان الجسدي وتجلياته . هناك دول ترددت عليها أكثر من مرة ، أخرى لم يتح لي غير المرور بها مرة واحدة .

ليت الشباب يعود يوما ، فأرتب لزيارات أكثر ، وبلاد أبعد ، وأذهب إليها اختيارا وليس اضطرارا ، واستمتع بوقتي دون التزام بما تفرضه المؤتمرات الجامعية وحلقات البحث العلمي والنقاش الأكاديمي ،وقبل ذلك وبعده أمضي على قدمي بلا عكاز وأتابع ما يجري من حولي دون وهن .

على كل حال ؛ فقد كانت زياراتي الخاطفة لمدن عربية وإسلامية ، على فترات متفاوتة ، رأيت فيها قاسما مشتركا يجمع الأمة ويوحدها مهما تباعدت أو اختلفت ظروفها ، فالهموم العامة واحدة ، والأحلام مشتركة، والأمل في الله يحكم جميع الأوطان العربية الإسلامية .

لعل القارئ يجد في الصفحات التالية ما يضيف إليه ويشد انتباهه ويجعله يفكر من أجل المستقبل .

والله المستعان ، وبه التوفيق .

حلمي محمد القاعود

ربيع الآخر ١٤٣٧ هـ
ينايـــــــر ٢٠١٦ م

عربي في البنغال

رأيت التوك توك في بنجلاديش وعرفت اسمه في مصر!

الطريق إلى بنجالاديش أو بلاد البنغال طويل . أكثر من سبعة آلاف كيلو متر ، أو الطيران ثماني ساعات متصلة من مدينة الرياض . يزيد فارق التوقيت أو ينقص ثلاث ساعات عن توقيت العاصمة السعودية .وأكثر من ذلك عن توقيت القاهرة .

هناك مسافة نفسية أطول تتجلى عندما يعلم الناس أنك مسافر إلى " داكا " . بعضهم يستنكر ، وبعضهم الآخر يستغرب ، وبعضهم الثالث يتعجب ، فقد جرت العادة أننا – نحن العرب – نتجه دائما نحو الغرب وعواصمه المتلألئة والمضيئة . " أطلقنا على باريس عاصمة النور " ، أما الشرق الذي هو منا وعلينا ، لحمنا ودمنا ؛ فقليلا ما يكون التعامل معه أو الالتفات إليه .

- إلى بنجالاديش " !
- لماذا تسافر إليها ؟ وما ذا تعمل هناك ؟

كانت هذه عينة من بعض الأسئلة التي سمعتها وتتضمن الاستنكار والاستغراب والتعجب ، وربما السخرية . بيد أنني أحسست أنه لا بد من التعرف على عالم الأشقاء غير العرب . ازداد تصميمي على السفر إلى بنجالاديش بعد أن استمعت إلى أسئلة الدهشة وعدم الرضا الضمني .

لو لم يكن مؤتمر أدب الشعوب الشرقية الإسلامية لفكرت في مناسبة أخرى لأذهب إلى هناك ، وأرى ماذا يجري ويحدث في ذلك البلد المسلم ، وكيف يعيش الأشقاء على بعد آلاف الأميال . لا نعرف عنهم إلا أخبار الفيضانات والكوارث الطبيعية

وتغيير الحكومات والزعماء واستقبال أخوتهم المسلمين المضطهدين في البلاد البوذية أو الهندوسية .

باكستان الشرقية

بنجالاديش أو بلاد البنغال كانت جزءا من دولة الباكستان المسلمة التي تكونت بعد استقلال شبه الجزيرة الهندية ورحيل الغزاة الإنجليز عام ١٩٤٧م . وكانت تسمى باكستان الشرقية .
عندما قامت الحرب بين الهند وباكستان عام ١٩٧١ انتهت بهزيمة الباكستان ، وتم فصل الجزء الشرقي " بنجالاديش " وإعلانه دولة مستقلة يقودها حزب عوامي أو عوامي ليج – رابطة العامة – وهو حزب يساري أسسه مجيب الرحمن . وتوجد في البلاد مجموعة من الأحزاب تؤكد على حيوية السياسة هناك ، تعبر عنها عشرات الصحف والمجلات في العاصمة داكا والأقاليم .
في داكا وحدها ما يقرب من ستين صحيفة يومية ، وفي مدينة شيتاجونج المدينة الثانية بعد دكا في عدد السكان ، والعاصمة التجارية التي تقع على بحر البنغال حوالي اثنتي عشرة صحيفة يومية ، وهي صحف متواضعة الورق والطباعة ، وتصدر باللغة البنغالية أو الإنجليزية ، وتظهر غالبا في ثماني صفحات وكثير منها في حجم التابلويد (نصف الصحيفة اليومية المعروفة في مصر) .
أول ما يستقبلك في بنجالاديش مطار " داكا " أو مطار ضياء وفق تسميته الرسمية المستحدثة آنئذ ، ويبدو المطار متواضعا واسع المساحة لكنه يبدو خاويا . لم ألمح فيه وقت هبوط طائرة الرياض إلا طائرة صغيرة تابعة للخطوط البنغالية ، وأخرى لدولة الإمارات العربية . وظهرت على سطح المطار برك مياه صغيرة ومتوسطة تملؤها مياه الأمطار ويعلوها نبات ورد النيل الشهير . أحسست بقرب الملامح الجغرافية والديموغرافية بين وادي النيل وأرض البنغال . ورد النيل يعاني منه النيل ؛ لأنه ينمو بسرعة صاروخية ويتكاثر باستمرار ويستنزف الماء بغزارة ، وهو في كل الأحوال عالة على الماء ، ولا يثمر إلا الصعاب والمتاعب ، يعطل الملاحة والصيد ، ويحتضن البعوض المؤذي ن ويشوه وجه النيل ، وقد رأيته في بلاد البنغال كثيرا ، عل صفحة النهيرات ومجاري الماء .ولكنه بالنسبة للبنغاليين لا يمثل خطرا أو هاجس قلق كما يحدث في مصر .

دار الرشاد

عندما خرجت من الطائرة في مطار داكا ؛ كان على أن أستقل طائرة أخرى إلى مدينة شيتا جونج – المدينة الثانية في بنجالاديش – حيث تعقد الندوة العلمية العالمية للأدب الإسلامي في آداب الشعوب الشرقية ، وكان علي أن أنتظر ساعات حتى يحين موعد إقلاع الطائرة الداخلية ، وقبل ذلك على أن أختم جواز سفري من مطار داكا ولكن القوم تصوروا أن الأمر يتم في مطار شيتا جونج .
بعد أخذ ورد وجولة في مكاتب المطار والترانزيت ؛ عدت مع أحد الموظفين إلى صالة الجوازات حيث ختموا الجواز بعد ملء استمارة بيانات ، وجلست في انتظار إقلاع الطائرة الداخلية .

في صالة الانتظار جاء أحد الشباب من دار الرشاد في داكا ليصحبني إلى دار الضيافة حتى يحين موعد السفر إلى شيتا جونج ، كان يعقوب – وهذا اسمه – يتكلم العربية بصورة معقولة وتبدو عليه ملامح السعادة والفرح لأنه يستقبل عربيا قادما من مهبط الوحي وأرض الحرمين الشريفين ، ويعقوب يرأس تحرير مجلة أسبوعية تسمى " الفلاح " وتصدر باللغة البنغالية ، وفيها صفحتان بالعربية . وهو واحد من مجموعة أخذت على عاتقها نشر التعليم الإسلامي واللغة العربية بإمكاناتهم المتواضعة جدا ولكنها مثمرة جدا بفضل الله .. ثم بإخلاصهم للدين وحبهم للقرآن .

و"دار الرشاد " واحدة من مؤسسات التعليم الإسلامي التي تقوم على التبرعات التي يقدمها أهل الخير ، ونظام التعليم فيها يقوم على ما يشبه نظام التعليم في الأزهر قبل زمان ؛ حيث يعيش الطلاب داخل الدار التي تتكفل بإعالتهم وإقامتهم وتعليمهم ، وتحظى مثل هذه المؤسسات في داكا وشيتا جونج بإقبال منقطع النظير من الطلاب ومحبي اللغة العربية . بيد أن المسئولين عن هذه المؤسسات يعتذرون عن عدم قبول جميع المتقدمين الراغبين في الالتحاق ، ويختارون العدد الذي يلائم إمكاناتهم وفقا لمعايير معينة .. علما أن الحكومة هناك لا تساعدهم بأي شيء على الإطلاق ، بل لا تعترف بالشهادات التي تمنحها لخريجيها في المراحل التعليمية الثلاث: المتوسطة والثانوية والعالية ، ولعل ذلك يرجع إلى القصور المادي الذي تعانيه الحكومة .

سعدت برؤية دار الرشاد وطلابها وأساتذتها ومسجدها الكبير . ومع التواضع الشديد الذي يعيشون به وفيه ؛ فقد ازداد إيماني بعمق الرابطة الإسلامية التي تربط أبناء الأمة الإسلامية على اختلاف لغاتهم وتباعد أماكنهم .

المدينة الثانية

كانت اللحظات التي قضيتها داخل داكا إشارة لما يمكن أن أراه في شيتا جونج المدينة الثانية في بنجالاديش .

أقلعت الطائرة الداخلية إلى شيتا جونج . كانت طائرة صغيرة وقديمة وضيقة ، ولكنها تعمل باستمرار وتقوم بخدمة شاقة ورحلات مستمرة معظم الوقت ، ويركبها الوزراء والمسئولون عند زيارتهم لشيتا جونج ، وبعد ثلاثة أرباع الساعة هبطت إلى المطار الذي يشبه مطار داكا ، تحيطه الأرض الزراعية على امتداد البصر .

كان في استقبالي عدد كبير من المحبين على رأسهم محمد سلطان ذوق مدير دار المعارف الإسلامية في شيتا جونج ، وهي أول مؤسسة تعليمية إسلامية عربية تقوم على الجهود الذاتية والتبرعات ، وتضم حوالي خمسمائة طالب في المراحل الثلاث : المتوسطة والثانوية والعالية .

محمد سلطان ذوق يتولى أيضا مكتب الرابطة العالمية للأدب الإسلامي في بنجالاديش ، ويتكلم العربية بطلاقة ، ويكتب الدراسة الأدبية بلغة عربية رصينة ، وقد أصر على إلقاء بحثه حول الأدب الإسلامي في اللغة البنغالية باللغة العربية ، فضلا عن ذلك فإنه يحمل مثل كثيرين هناك مشاعر فياضة تجاه العرب والعروبة ونبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم .

شيتا جونج مدينة مهمة تاريخا وواقعا . فهي أول مدينة على خليج البنغال دخلها الدعاة المسلمون والتجار العرب الذين توضأوا في مياه خليجها ، ونشروا الدعوة

الإسلامية في أرجائها على مدى القرن الأول الهجري ، وانطلقوا منها إلى ما يتاخمها من بلاد وأقاليم حتى وصلوا إلى الصين . ويقال إن أبا وقاص ؛ والد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص كان من طلائع الدعاة الذين ذهبوا للدعوة هناك ، وواصل رحلته الدعوية حتى لقي ربه ودفن في أرض الصين .
أثمرت الدعوة دولة إسلامية قوامها الآن ثلاثين ومائة مليون مسلم دخلوا الإسلام دون سيف أو خوف (تجاوز التعداد لآن ستين ومائة مليون) ، مما يرد على تخرصات وأكاذيب أعداء الإسلام التي يطلقونها من حين لآخر تشهيرا بالإسلام والادعاء أنه انتشر بالسيف !

قوس على الخليج

تمثل مدينة شيتا جونج قوسا يمتد على شاطئ البنغال مسافة أربعين كيلومترا ، ولذا تعد الميناء الرئيسي للبنغال وما وراءه ، حيث ترسو فيه عشرات السفن القادمة من شتى أنحاء العالم تحمل البضائع والأغراض الأخرى لبنجالاديش وغيرها من البلاد المتاخمة لها . ثم تعود محملة بمنتجات البنغال وغيرها .
أقام الإنجليز أيام الاحتلال شبكة ضخمة من السكك الحديدية تبدأ من شيتا جونج وتربط البنغال بالدول المجاورة . ولم يكن القصد إفادة البنغاليين من إنشاء السكك الحديدية ، ولكن خدمة المصالح الإنجليزية أولا في التصدير والاستيراد .. وتأخذ محطات السكة الحديد في بلاد البنغال الطابع ذاته الذي بنيت به محطات السكة الحديد في مصر .
ولا ريب أن السكة الحديد تقوم بدور كبير في عملية نقل الركاب والبضائع نظرا للكثافة السكانية المرتفعة في بنجالاديش (متوسط الكثافة السكانية في الكيلو متر المربع الواحد يزيد على ألفي شخص وهو من أعلى معدلات الكثافة في العالم) .
يقرب عدد سكان شيتا جونج من خمسة ملايين نسمة ، يضمها بصفة عامة واد يحتضنه البحر " خليج البنغال " وترتفع فيها بعض التلال التي تمتلئ بالأشجار الطويلة التي تكوّن غابات كثيفة نتيجة للأمطار الغزيرة التي تهطل معظم أيام السنة ، وفوق واحد من هذه التلال يقبع مبنى عريق لإدارة السكة الحديد بني على الطراز المعماري الإنجليزي .
وشيتا جونج بلد زراعي إلى جانب كونها مركزا تجاريا وصناعيا كبيرا ، فيها أكبر مصنع للورق في آسيا يعتمد عل استغلال الأشجار والغابات ، فضلا عن صناعة الأخشاب والأثاث ، وهي تسهم بشكل كبير في عملية التصدير والتجارة الخارجية .
وتمثل الحرف اليدوية والصناعات الصغيرة والمتوسطة أبرز الحرف والمهن في اقتصاد المدينة خاصة ، والدولة بصفة عامة .

مركز الحكومة

ولعل تلك الأهمية الاقتصادية والواقعية للمدينة جعلت منها مركزا مهما بالنسبة للحكومة ،بحيث صارت شيتا جونج مؤثرة في تقوية مركز الحكومة أو إضعافه ، ومن ثم تسعى الأحزاب المختلفة إلى كسب تأييدها ، والفوز بمقاعد البرلمان أو البلديات .

وقد تصادف عند زيارتي أن كانت المدينة ومعها ثلاث مدن أخرى ، من بينها العاصمة تتهيأ لأول انتخابات بلدية ؛ فإذا بالمدينة تتحول إلى مهرجان دائم ، يبدأ من بزوغ الشمس حتى منتصف الليل تقريبا .
ويستخدم المرشحون وسائل المواصلات المحلية ومكبرات الصوت ، وينصبون مسارح في الشوارع والأماكن العامة ليلقي المرشحون خطبهم وسط مؤيديهم وأنصارهم .
ويمكن القول إن شوارع المدينة غطيت تماما بصور المرشحين ورموزهم الانتخابية .. وكان الصراع واضحا بين مرشحي الحزب الوطني ، وهو حزب الحكومة الذي كانت تقوده آنئذ خالدة ضياء رئيسة الوزراء ، وحزب عوامي المعارض الذي تقوده حسينة واجد ، بنت مجيب الرحمن . وقد حضرتْ كل منهما إلى المدينة في يومين متقاربين ، واحتشدت وراء كل منهما جماهير غفيرة ، ونقلت الصحف اليومية ما دار في لقاءاتهما .
وكان واضحا أن جو الانتخابات يتسم بالحرية الكاملة وهو ما جعل حزب عوامي المعارض يفوز ببلدية شيتا جونج . وهناك أحزاب أخرى شاركت في الانتخابات ولكن حضورها في الشارع البنغالي كان محدودا أو ضعيفا جدا ، ولذا لم تفز بأي مقعد من مقاعد المدن الأربع الكبرى .
فهناك حزب الشعب الذي يقوده ميزان الرحمن شودري " وهو حزب الرئيس السابق محمد إرشاد ، وحزب الجماعة الإسلامية الذي يتزعمه مطيع الرحمن نظامي .. بالإضافة إلى أحزاب أخرى صغيرة ، لا تأثير لها .
وبصفة عامة تبدو مدينة شيتا جونج من الطائرة مزرعة خضراء ، مترامية الأطراف ، تتناثر فيها الأحياء والبيوت ، وتنتشر على سهل كبير ممتد ، ترتفع فيه بعض التلال التي تنمو فوقها الأشجار مكونة حدائق طبيعية جميلة فيها بعض البيوت والإدارات الرسمية ، لعل أهمها مبنى إدارة السكك الحديدية الذي سبقت الإشارة إليه . وعلى الشاطئ الطويل تقبع القطع البحرية التي تشكل القوة العسكرية لسلاح البحرية البنغالي .

الأرز والشاي

أهم المحاصيل في بنجالاديش الأرز ثم الشاي الذي تعتمد عليه شركة شاي ليبتون الشهيرة في لندن ،حيث تصدره إلى شتى بلاد العالم . وفي شيتا جونج رأيت محلات متخصصة لبيع الشاي فقط ، يوضع في صناديق كبيرة ويباع في أكياس ورقية بالكيلو ، وتتعدد أنواعه ومستوياته . وهو رخيص بالنسبة للسلع الأخرى .
بالإضافة إلى الأرز والشاي ؛ هناك الخضروات والفواكه وأشجار الدوم أو جوز الهند التي تشبه النخيل ، ويسمونها هناك أشجار النارجيل ، وقد رأيت في أسواق شيتا جونج معظم أنواع الفاكهة والخضار التي نعرفها هنا ، ولكن البيئة طبعتها بطابعها من حيث الحجم واللون والمذاق.
والإنسان في بلاد البنغال عماد الحركة وثروة البلاد قبل أي ثروة أخرى . فهو الذي يبذل الجهد ويكاد كل نشاط زراعي وصناعي وتجاري يرتبط بعضلات الإنسان ويديه ..

فالآلة أمام الزحام السكاني تبدو ضيفا نادرا . إن الكد أو الكدح اليومي صار سمة الحياة في بنجالاديش ، والقوم لا يتذمرون من الصعوبات ، ويواصلون معايشة الواقع أو متابعة الحياة بإيقاعها الذي يبدو غير نشاز إلا للقادم من خارج بلادهم.
ولعل سمة الجهد العضلي الذي يبذله الإنسان البنغالي يوميا قد أثرت في نواحي حياته المختلفة . فهو بسيط بعيد عن التعقيد ، نرى ذلك بوضوح في مأكله وملبسه ومشربه وعاداته وتقاليده . فإذا نظرت إلى طعامه مثلا وجدته بسيطا . طبق واحد يأكل منه جمع من الأشخاص . واللباس يتكون من إزار وقميص يشبه اللباس الشعبي في اليمن . والمرأة ترتدي الساري الشائع في شبه الجزيرة الهندية مع غطاء للرأس ، وإن كانت بعض النساء يرتدين الأزياء الأوربية ، ومعظمهن من الأجنبيات ، وهناك من يسدلن الطرحة السوداء على الوجه .

الأرض الخضراء

المباني في بنجالاديش لها طابع عام وهو انتشارها أفقيا داخل الأرض الخضراء الزراعية .. ويمكن أن يمر السائر على مزارع للأرز والخضروات بين البيوت ، ولا ترتفع المباني كثيرا باستثناء بعض الفنادق والعمارات .
الملحوظة السائدة هي الشكل الخارجي الكئيب للمباني في مدن بنجالاديش حيث يميل لونها إلى الاسوداد، ولعل ذلك نتيجة للمطر الغزير الذي ينزل في كثير من الأوقات ويخلف آثارا واضحة على الجدران بسبب انحداره عليها نتيجة هرمية السقوف أو ميلها في الغالب .
ويقوم الصرف الصحي للمباني في الغالب على مجار محفورة ومكشوفة في جانب من الشارع ، وتشبه إلى حد ما المصارف الزراعية في مصر . ويضع أصحاب البيوت والمحلات التجارية والمؤسسات المختلفة قناطر صغيرة عبارة عن بلاطات خرسانية للعبور فوقها من أجل الخروج أو الدخول .
والطرق في داكا وشيتا جونج تبدو ضيقة إلى حد ما ، وتبدو في بعض الأحيان غير صالحة للسير أو المواصلات ، وبعضها مليء بالحفر والخشونة مع أنها مرصوفة ، ويبدو أنها موجودة من زمن بعيد . ومع هذا فهناك عمليات إصلاح ورصف لبعض الأماكن المزعجة مما يعطل حركة المرور أحيانا ، ولكن الناس يحتملون ولا يضجون . وقد نشطت حركة الإصلاح في أثناء فترة الانتخابات البلدية . وقد حدثني بعض المرافقين أن رئيس البلدية في شيتاجونج أصلح طريقا في أسبوعين فقط . فقلت في سري : هذا من بركات الانتخابات .
الشوارع الرئيسية في داكا وشيتا جونج تبدو نظيفة إلى حدما ، خاصة الشوارع التي يمر بها المسئولون الكبار ، وقد سألت عن أحد الشوارع الذي بدا نظيفا على غير العادة . فقيل لي : إن رئيس الدولة ورئيسة الوزراء يمران به يوميا ، ولاحظت أن شوارع شيتا جونج أكثر نظافة من شوارع داكا وتقوم النساء بعملية النظافة عن طريق المكانس اليدوية مصنوعة من عراجين النخيل وخوصه .

مسجد شاهي

الظاهرة الملفتة في شيتا جونج أن معظم المساجد بلا مآذن ، باستثناء المسجد الجامع الذي يسمى مسجد شاهي .. وهو أكبر المساجد في المدينة ، ولا أدري تعليلا لهذه

الظاهرة ، ولعلهم أرادوا تمييز المساجد الجامعة عن بقية المساجد التي لا تقام فيها صلاة الجمعة .
بالقرب من مسجد شاهي يقع شارع كبير يمتلئ بالمكتبات ، ويعد أكبر سوق للكتب في شيتا جونج ، وحاولت أن أعثر على كتاب بالعربية فم أجد ، وقيل لي : إن الكتب العربية هنا قليلة جدا وتأتي بالطلب ، ومعظمها يدور حول العقيدة والشريعة ، أما الكتب السائدة فهي بالبنغالية والإنجليزية والأردو.
وسائل المواصلات في بنجالاديش داخل المدن وفيما بينها فتتميّز باعتمادها إلى حد كبير على الجهد العضلي . هناك وسيلة رئيسية تسمى " الركشة " .. وهي عبارة عن دراجة ذات ثلاث عجلات وتشبه الحنطور في مصر وتسع راكبين ، ويقوم صاحبها بالقيادة ، وأجرها رخيص . والركشة مزخرفة زرفة شعبية ، وعليها ألوان ورسوم وشرائط ملونة وتكاد الشوارع تغص بأعدادها الكثيرة .

بيبي تاكسي

إلى جوار الركشة هناك وسيلة أخرى ويعدها الناس هناك بديلا عن التاكسي ، ويسمونها بيبي تاكسي أو التاكسي الصغير ويركب فيها ثلاثة اشخاص بالإضافة إلى السائق . وهي عبارة عن موتوسيكل أو دراجة بخارية ذات ثلاث عجلات تمت تغطيتها بالصاج ، وطليت بالبوية من خلال لون موحد لجميع وحدات البيبي تاكسي ، وهو بالطبع أسرع من الركشة وأقوى منها ، وأغلى في الأجرة ، ويستهلك وقودا أقل من السيارات العادية .
لقد اكتشفت بعد أكثر من عشرين سنة أن أسمها في مصر التوك توك . رأيت التوك توك لأول مرة في بنجالاديش ، وإن لم أعرف اسمه إلا في مصر . لقد دخل البيبي تاكسي إلى مصر في مرحلة التراجع والفوضى ، وصار يفرض عليها ثقافته الغريبة للأسف الشديد !
السيارات الخاصة في بنجالاديش وسيارات الأجرة المميزة ؛ فهي متواضعة إلى حد كبير ، ومعظمها أقرب إلى سيارات الفيات والكورولا الصغيرة ، ولم أر في شوارع داكا أو شيتا جونج أيا من أنواع السيارات الفخمة ..
أما الحافلات فهي متواضعة أيضا ومتهالكة ومكتظة بركابها الذين لا يتركون مكانا خاليا حتى في النوافذ وعلى مداخل الأبواب لدرجة أن معظم الحافلات يسير مائلا على جانبه مما يذكر بأتوبيس ١٠٤ الذي كان ينطلق من العتبة إلى إمبابة في السبعينيات من القرن الماضي . الطريف أن هناك حافلات ذات دورين ، وهي تنوء بأحمالها في كل الأحوال .
في بنجالاديش تسير وسائل المواصلات ناحية يسار الشارع أو الطريق تأثرا بالنظام الإنجليزي ، وليس على اليمين كما في مصر والبلاد العربية ، ويتحرك السائقون بسرعة كبيرة ، بل جنونية أحيانا ، كل حسب استطاعة مركبته ، ومع هذا فنادرا ما يحدث تصادم أو تقع حوادث ، مما يدل على مهارتهم الفائقة .
سألني سائق السيارة التي كانت تقلني يوميا من الفندق إلى مقر الندوة – عن طريق المترجم المرافق :
- هل أستطيع أن أقود سيارة في الرياض ؟

ضحكت وقلت له :

- من يستطيع أن يقود سيارة في بنجالاديش وسط هذا الزحام ، وبمثل هذه السرعة يمكنه أن يقود في أي بلد من بلاد العالم .

هجمة شرسة

ما يشغل الحريصين على اللغة العربية من أهل بنجالاديش هو عملية التنصير ، وقصور إمكاناتهم في مواجهته .

التنصير يمثل هجمة شرسة على بلد مسلم ، أهله كلهم تقريبا مسلمون . ويبلغ النصارى ثمانين ألفا تقريبا ، وهناك بعض اليهود القلائل . ولكن الهيئات التنصيرية تبذل جهودا ضخمة بما تقدمه من مساعدات ومعونات للفقراء والبسطاء ، وما تقوم به من تشييد المدارس والمستشفيات والمراكز الثقافية . ويقال الآن إن عدد المتنصرين تجاوز المليون بنغالي!

المفارقة أنه توجد في بنجالاديش جماعات تنصيرية بعدد الهيئات التنصيرية الموجودة في بلاد الغرب ، وكل هيئة تدعم جماعتها بالأفراد والمال والمساندة .

والتنصير ليس قاصرا على العاصمة أو بعض المدن ، ولكنه تسلل إلى أعماق بنجالاديش مستفيدا من ظروف الكوارث الطبيعية التي تحدثها الفيضانات والأعاصير . ومع أنه يتردد أن اليابان تنوي إقامة سد كبير ليحمي البلاد من أثر الفيضانات يتخذ التنصير السبل الممكنة ليرسخ جذوره في المدن والقرى البنغالية ، ويخرّج أجيالا موالية للغرب فكرا وثقافة وتصورا ، ولا تعرف شيئا عن عقيدتها وهويتها !

الهيئات الخيرية الإسلامية

في المقابل ؛ فإن بعض الهيئات الخيرية الإسلامية التي تعمل في مجال الإغاثة قد وصلت مؤخرا إلى بنجالاديش ، وتقدم مساعداتها المتواضعة على استحياء أمام الفيض الغامر الذي يتدفق من هيئات التنصير .ولكن وجود الهيئات الإسلامية يعطي أملا للبنغاليين بأن إخوانهم العرب المسلمين يذكرونهم ، ويمدون إليهم يد العون، ويحيون الأمل في استمرار الروابط الروحية والثقافية فيما بينهم ، ولو كانت واهية .

وتعد حركة التعليم الإسلامي التي تشمل علوم الشريعة واللغة العربية إحدى وسائل المواجهة مع حركات التنصير . ومع أن الجهود الذاتية في هذا المجال تبدو ضئيلة ومحدودة ؛ لأنها تقوم على التبرعات ، فإنها تعد ناجحة بكل المقاييس ، وتجذب إليها كثيرا من أبناء البنغال الذين يحبون عقيدتهم واللغة العربية . هذا الحب الذي يعبر عن نفسه بعواطف غامرة تشمل كل عربي يزورهم أو يتعرفون عليه . وقد لمست هذا بنفسي حين وضعوني في بحر من التكريم والتقدير والمشاعر الدافئة لا عهد لي به ، إن صفاءهم ونقاءهم من وراء إصرارهم على الدفاع عن العقيدة واللغة العربية ..

وقبل أن أتساءل عن سر هذا الإصرار خاصة فيما يتعلق باللغة العربية كانوا يقولون لي :

نحن نحب العرب واللغة العربية ، لأن القرآن نزل باللغة العربية ، ولأن النبي – صلى الله عليه وسلم – عربي . ولأن لغة أهل الجنة هي العربية !

أكبر احتياطي

وأمام هذا الفيض الغامر من الحب للعرب والعربية ، أسفت لتجاهل العرب وإهمالهم لأشقائهم وتناسيهم لأكبر احتياطي حقيقي تظهر أهميته عند الشدائد وفي الكربات .
كان مرافقي أنوار الحق – وهو مدرس سابق يعمل بالتجارة ويترجم بعض الكتب العربية في العقيدة والشريعة إلى البنغالية – يحدثني عن الأماكن التي زارها في بلاد العرب ، والحكايات التي تربطه بأرض العرب ، ويعدني بأنه قادم لزيارة ديار العرب .
وكان الشباب من طلاب جامعة شيتا جونج ودار المعارف الإسلامية وغيرها يلتفون حولي بالفندق ، ويحدثونني عن أحلامهم في استكمال دراستهم الإسلامية والعربية بالأزهر والجامعات العربية ، ويطلبون مني أن أكتب لهم تزكيات كي يُقبلوا بالأزهر وما أكثر ما كتبت من توصيات ، ووضعت من توقيعات مما جعلني أقول ضاحكا للبروفسور ظهور أحمد أظهر عميد كلية اللغة العربية في البنجاب :
- لقد أصبحت مثل نجوم السينما!
ولكن الإخلاص على وجوه الطلاب والأساتذة والمودة في عيونهم تجعل لما يقولون أو يطلبون مذاقا خاصا وفريدا!
ترى لو طالبت الخيّرين من أبناء العرب وما أكثرهم أن يساعدوا إخوانهم في بلاد البنغال على مواجهة الهجمة التنصيرية ، وتأصيل العقيدة الإسلامية ونشر اللغة العربية أتجاوز حدودي ؟
كلا ! فهم على ثغر من ثغور الجهاد .
الهند تتربص بهم ، وبورما تدفع إليهم بمئات الألوف من اللاجئين المسلمين الفارين من الاضطهاد البوذي ، والفقر يتربص بالسكان البنغاليين جميعا ، والتنصير يستغل ذلك استغلالا عظيما !

الفراق المؤلم

عندما ركبت السيارة في طريقي إلى مطار شيتا جونج عائدا إلى داكا ومنها إلى الرياض ؛ كان الفراق مؤلما ، بالرغم من قصر المدة التي قضيتها في بلاد البنغال ، وعندما أقلعت الطائرة من داكا كانت تحمل مئات العمال القادمين لحساب بعض المؤسسات للعمل في الخليج . كانوا شبابا يركب الطائرة – ربما لأول مرة – وكانوا في عمر متقارب ويرتدون زيا موحدا للمؤسسة التي استقدمتهم ، ولا يستقرون في أماكنهم على الطائرة ، وذكروني بليلة الترحيل عندما جندت في القوات المسلحة قبل زمان بعيد . ولكني كنت سعيدا بقدومهم ، ليعملوا ويفيدوا من ثمرة عملهم أولا ، وليتعرفوا على أشقائهم ثانيا ، وليستوعبوا لغة القرآن من خلال وجودهم بين العرب ثالثا ثم ليوثقوا الصلة والعلاقة بين بلادهم وبلاد العرب رابعا ..
في الطريق إلى بيتي كانت آلاف الأفكار والرؤى تدور برأسي حول الشرق الإسلامي المجهول والبعيد وكيفية الإفادة منه وإفادته .. ولعل الله يهيئ من يتولى هذه المهمة متشعبة المنافع اقتصاديا وسياسيا وتجاريا وسياحيا وثقافيا ..

اسطنبول لأول مرة

عندما صرت مليونيرا لأول مرة وآخر مرة!

عظيمة المجد والعطاء

ذهبت إلى اسطنبول كي أحضر مؤتمرا علميا شجعني عليه الزملاء ، وبفضل الله تم السفر بعد تسهيل الإجراءات في وقت ضيق وحرج كنت فيه أقضي فترة نقاهة بعد جراحة تقتضي وقتا طويلا للبرء والشفاء .

تشجعت وسافرت ، وهبطت مطار أتاتورك الدولي في اسطنبول التي لها في الوجدان الإسلامي تاريخ وذكريات ورمزية تشير إلى وحدة الأمة الإسلامية وعظمتها وعزتها ، بالإضافة إلى أن الإسلام شهد تحت رايتها أمجادا كبرى ، واقتحم قلب أوربة ، ورد على هزيمة المسلمين في الأندلس . وكانت اسطنبول وبخاصة في عهد الخلفاء الأوائل العظام قبلة حكام العالم ، يسترضونها ، ويطلبون ودها ، ويسألونها العفو . وظلت تذود عن حياض الإسلام حتى أتي عليها ما يأتي على البشر من تغير وضعف وهوان .. وكان ما كان ، مما سجلته كتب التاريخ ، وإن كانت قد حفلت بكثير من التجني والبهتان نكاية في مجدها الغابر ، وتنكيلا بالعز القديم ، وتشويها لدولة إسلامية كانت عظيمة المجد والعطاء ، وتحذيرا لمسلمي العصر من تكرار تجربتها الظافرة تحت راية الإسلام .

شامخة المآذن والقباب

اسطنبول في وجدان المسلم لا تتأثر بالتجني والبهتان ، ولا تتغير بمحاولات التغريب والأوْربة التي فرضت عليها، بل أكرهت عليها إكراها ، فهي ما زالت شامخة المآذن والقباب ، وما زال صوت الأذان يتردد في جنباتها الأربعة خمس مرات في اليوم والليلة ، وما زالت مساجدها تمتلئ بالمصلين يوم الجمعة ، وتكثر فيها حلقات تحفيظ القرآن الكريم ، وما زالت مكتباتها العريقة تستقبل الباحثين العرب والمسلمين وغيرهم ، تكشف لهم عن مخطوطاتها وذخائرها ، وما زالت اسطنبول الشعب والناس تمثل الماضي والحاضر والمستقبل ، إنتاجا وتجارة وعلما وزراعة وصناعة وبعثا جديدا للإسلام على طرف أوربة الشرقي الجنوبي .

بدا مطار اسطنبول هدئا نسبيا مع ازدحامه أكثر من مطارات أخرى أعرفها تغص بالمسافرين وضجيجهم ، وهو ضجيج يميز تلك المطارات ، ويدلل على هويتها ، ويشعر المرء أحيانا أنه لا يستغني عنه ، أو هو بحاجة إليه .

مليونير لأول وآخر مرة

لم نقض في جوازات المطار وقتا طويلا ، فموظفو الجوازات يعملون في صمت ودأب وسرعة وأدب . خرجنا إلى ساحة الحقاب والمغادرة ، وكان علينا أن نستبدل العملة المحلية بعملاتنا أولا ، واكتشفت أنني أصبحت مليونيرا لأول مرة وآخر مرة في حياتي !!

تساءل الزملاء : هل نغيّر دولارا أو ريالا ؟ اتفق الرأي على تغيير مائة دولار مبدئيا لكل زميل .

عاد بعضهم بعد فترة ، وفوجئت بمن يقول :

- مبارك عليك ..!

فقلت له :

- خيرا ؟؟

فقال لي :

- لقد أصبحت مليونيرا !

ابتسمت ، ولم أفهم ماذا يعني ، وتطلعت إليه مستفهما ، فقال :

- لقد أصبحت مليونيرا ، ومعك الآن مليون ومائة وستون ألفا .

وناولني أوراقا مالية ملونة بصور زاهية . تأملتها ، وعرفت أنها ليرات تركية . وضحكت ضحكة لا إرادية شاركني فيها رفاق الرحلة ، حين عرفنا أن العملة في تركيا ، وفي كثير من بلاد المسلمين تتهاوى ووصلت إلى الحضيض ، بسبب الديون المتراكمة عليها لدول الغرب ، وما تفرضه هذه الديون من فوائد مركبة تستنزف عائدات البلاد من الإنتاج والدخل .

كان ضحكنا تعبيرا عن نوع من القهر الذي يوجع القلب ، وكأن بداية الرحلة وكأن اسطنبول بأكملها مناسبة غير عادية لتقليب المواجع والفواجع في بلاد المسلمين !

تساءلنا : كيف سنصرف هذا المبلغ ؟ وإلى أي مدى يفي باحتياجنا ؟

عرفنا فيما بعد أن الألف ليرة تركية قبل سنوات كانت ذات وزن اقتصادي إلى حد ما ، ولكنها الآن لابد أن تتضاعف خمس مرات لتشتري بها صحيفة يومية وتتضاعف سبع مرات ثمنا لعلبة بيبسي تشربها في الشارع ، أما إذا شربتها في الفندق فلابد أن يتضاعف الألف اثنتي عشرة مرة !

لا أعرف إن كان صندوق النقد الدولي له حضور في تركيا أو لا ؟ ولكن الأمور تتجه من خلال متابعة سعر الدولار ، إلى مستوى آخر من الغلاء لم يكن للأتراك به عهد ، مع أن بلدهم من أغنى البلاد وأكثرها إنتاجا في المجالين الزراعي والصناعي ، فضلا عن التجارة والسياحة .. ولكنه قدر المسلمين في كثير من أوطانهم .

(بعد أكثر من عشر سنوات عاودت الذهاب إلى اسطنبول ، وكان الوضع مختلفا فقد نجحت الحكومة ذات الخلفية الإسلامية في تسديد الديون جميعا ، وتعافى الاقتصاد التركي ينافس على المستوى العالمي وصار من بين أقوى عشرين اقتصادا في المعمورة ، وسيجد القارئ بعض هذه الملامح في الحديث عن زيارتي الثانية لاسطنبول).

خرجنا من مطار اسطنبول لنستقل السيارات إلى الفندق . استقبلنا شاب تركي مهذب ، ولاحظت أن سيارات الأجرة موجودة بوفرة ، وتتحرك بالدور ، في هدوء ، دون أن يشدك هذا السائق أو ذاك لتركب معه .. والعدّاد هو الفيصل في الأجرة ، وإن كان من الممكن أحيانا أن تساوم ، وتصل إلى سعر أقل من سعر العداد .

المسافة بين المطار وقلب المدينة (محلة لا لي) أو بايزيد أو البازار طويلة جدا ، ولكن السيارة تقطعها في ثلثي ساعة تقريبا . السرعة رهيبة تتجاوز المائة والثلاثين كيلومترا ، في طرق واسعة ومنظمة ومنسابة ، يساعد على انسيابها شبكة من الأنفاق والجسور تتيح للجميع الحركة بطلاقة وسرعة أيضا .

اسطنبول وشط اسكندرية

عندما اقتربنا من قلب المدينة شاهدت البحر يحيطها ، وقد حول الأتراك شاطئه إلى ساحل " كورنيش " جميل ، يجد متنزها أخضر وجميلا ، ويستمتع به الناس في اسطنبول من أهلها والوافدين عليها .
ذكرتني اسطنبول بالإسكندرية وشطها وشوارعها وبيوتها و"ترامها" العتيق .. إنه البحر الذي يصنع بيئته فيما يبدو .
تستقبل اسطنبول يوميا – وخاصة في الصيف – آلاف السياح الذين يأتون عبر الجو والبر والبحر ، معظمهم من أوربة الغربية ، كما يفد إليها أعداد ضخمة من دول أوربة الشرقية التي كانت ضمن الإطار الشيوعي ، وهؤلاء لا يأتون بقصد السياحة ، وإنما يأتون بغرض التجارة أولا ، وشراء المنسوجات الشعبية التي تعد رخيصة نوعا ما بالنسبة لشعوبهم .. ويوميا تُشاهد السيارات – وخاصة حجم الميكروباص – وهي تمتلئ بالبضائع المسافرة إلى دول الستار الحديدي سابقا . وقد ساعد على تدفق الوافدين إلى اسطنبول اتصالها البري والبحري بمعظم دول أوربة هذه ، ولقطار الشرق السريع دور مهم في هذا السياق .
الملاحظة التي تسترعي الانتباه ، ذلك الحضور المكثف من جانب الشبان الأوربيين من الجنسين واهتمامهم غير العادي بزيارة أيا صوفيا .
كان المتوقع أن يكون كبار السن والعجائز هم الأكثر حضورا ووجودا في اسطنبول ، ولكن ماذا يعني وجود الشباب الصغير في السن ؟ وبهذه الكثافة اللافتة للأنظار ؟
علامة الاستفهام تظل قائمة ، ولكن المرء حين يضع في حسبانه ما يجري حول اسطنبول وداخلها من أحداث لا يحتاج إلى عناء كثير كي يفهم سر الإلحاح على تغذية وجدان الشباب الأوربي بتاريخ اسطنبول – العاصمة القديمة للدولة البيزنطية ، ومحل الصراع المكتوم والمعلن بين تركيا واليونان ..

فاتيكان أرثوذكسي

إن التطرف الصليبي الذي عبر عن نفسه في البلقان (البوسنة والهرسك وكوسوفا وألبانيا ..) يجعل الاهتمام باسطنبول ذا مغزى أوربي عميق ؛ وبخاصة بعد المطالبة الأميركية بإقامة " فاتيكان أرثوذكسي" له صيغة الدولة المستقلة على أرض اسطنبول ، والمطالبة بإعادة أيا صوفيا كنيسة كما كانت قبل الفتح الإسلامي للمدينة .
مع أن الزائر يظن أن اسطنبول قطعة من أوربة ؛ بحكم مظهرها الخارجي وكثافة الوجود الأوربي ومعالمه ، إلا إن الشعب التركي في كثير من قطاعاته ، يبدو ذلك الشعب الطيب الصبور .. صحيح أن حالة الانكسار تتجلى في عيونهم ووجوههم ، ولكن طبيعة الشعب هناك تعطيك انطباعا بأصالته وتدينه الذي لم تنل منه أشرس محاولات اقتلاع الإسلام ، وأكثرها إجراما في التاريخ الحديث .
إن اسطنبول التي تضم أكثر من أربعة آلاف مسجد كما أخبرنا الأستاذ نور الدين الذي رافقنا في زيارة الآثار الإسلامية ، ما زالت تحرص على أن تقيم صلاة الجماعة داخل المساجد في أوقاتها الخمسة ، ويرتفع صوت المؤذن باللغة العربية ، ويرتدي الإمام العمامة والجبة فوق ملابسة الغربية وهو يؤم المصلين ..
صحيح أن الصلاة تؤدى بسرعة ملحوظة وقراءة سريعة وقصيرة ، ولكن هذا قد يرجع إلى طبيعة المرحلة الأتاتوركية التي كانت تنظر إلى التدين نظرة ارتياب أو إن

الشعب نفسه تتأصل لديه خصيصة السرعة ، وبخاصة في أثناء الكلام كما لاحظ ذلك بعض الزملاء .

النظافة والنظام

الشعب التركي نظيف ومنظم، تلمس هذه الحقيقة في الفندق والشارع والمتجر (لم أزر بيتا تركيا) ، ولكن ما أصاب الشعوب الإسلامية على يد الاستعمار ، أصاب الأتراك أيضا . لقد فعل التغريب فعله ، وظهرت آثاره المدمرة في أكثر من موقع ، لكن بقيت جذوة الإسلام مشتعلة في نفوس كثير من أبناء تركيا ، وفي تلك الصحوة المباركة التي يقودها شباب مخلص ويتعلم الآلاف منهم في الأزهر ، وفي كلية الإلهيات ، وكلية الأئمة والدعاة ، وهي الصحوة الإسلامية المباركة التي تعبر عن نفسها من خلال ثلاثة أحزاب سياسية رسمية ، برامجها وخططها وتحظي بتأييد شعبي واضح على تفاوت ، ومن خلال قناة تليفزيونية تبث من خارج البلاد على مدى أربع وعشرين ساعة يوميا ، وثلاث صحف إسلامية يومية يطالعها الجمهور التركي باهتمام وإقبال .

إن تركيا دولة علمانية رسميا، وعندما كان تورجوت أوزال " رئيس وزراء تركيا السابق – يرحمه الله – يذهب إلى صلاة الجمعة ، كانت تقوم قيامة العلمانيين ، وكان الرجل يرد بأنه يذهب إلى الصلاة بصفة شخصية وليست رسمية . أدرك أوزال حجم المصاعب التي تعترض الإسلام والمسلمين ، ولكنه كان يستشعر ذلك المد الإسلامي الكبير الذي يجتاح تركيا ، وكان هو نفسه بعضا من معالمه بانتمائه الضمني إلى تيار العائدين إلى المساجد ولو بصفتهم الشخصية .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن ملامح الصحوة الإسلامية المباركة تؤذن بتحولات كبيرة – إن شاء الله – عل المدى البعيد .

التبعية الإعلامية

مع الانفتاح الكامل والتام على الغرب، والسعي الدءوب للالتحاق بالسوق الأوربية المشتركة ، مع تمنّع أوربي معلن ؛ فإن الأتراك ذهبوا إلى أبعد مدى في مجال التبعية الإعلامية ؛ ويظهر ذلك جليا في الصحافة والتلفزة .

فالصحافة هناك مزدهرة وتصدر بلا قيود مع التزامها الدستور العلماني ، ويوجد هناك أكثر من أربعين صحيفة يومية وأسبوعية ، بعضها متخصص في الرياضة والموضة والتسلية ونحوها . وللأحزاب صحفها التي تعبر عن برامجها وغاياتها.

على الجانب الآخر توجد ثلاث صحف إسلامية ؛ هي : " مليت " و" تركيا " و" الزمان " ، وتوزيعها كبير ، وتكاد تكون الصحف الأولى المفضلة لدى القارئ التركي .

أما التلفزيون ، فإن الدولة تملك أربع قنوات رسمية ، معتدلة إلى حد ما ، ولكنها أتاحت ضمنيا فرصة إنشاء قنوات أهلية تبث من خارج تركيا ، وهي في مجملها غير ملتزمة ، بل تذيع مواد هابطة ومتحللة من القيود والأعرف ، وبخاصة بعد منتصف الليل ، واشتكى كثير من الناس من هذه القنوات ، وحاولوا أن يعقدوا مع بعضها اتفاقا ضمنيا لتجنح إلى الاعتدال .

وكانت المحاولة المجدية والمفيدة ، أو الرد العملي على القنوات المتطرقة – ومعظمها مملوك لليهود - فأنشئت محطة تلفزيونية إسلامية لا مكان فيها للابتذال أو الانحلال أو العنف ، وتخاطب الوجدان الإسلامي في تركيا على مدى أربع وعشرين ساعة يوميا ، تقدم لهم القرآن الكريم والحديث الشريف والتفسير والسيرة والتاريخ والمسلسلات ذات المضمون الهادف تاريخيا واجتماعيا ، والحوادث والأخبار ، وغير ذلك مما يهم المشاهد المسلم في تركيا .
حدثني مرافقي فقال :
إن معظم الأتراك الآن يفضلون – كما علمت - هذه القناة التي تبث من خارج تركيا ، وتشاهدها البيوت التركية باستمرار مما يعني أن الغد التركي – إسلاميا – سيكون طيبا بإذنه تعالى ، مع وجود كل المصاعب والمصائب التي تترى على الإسلام والمسلمين.
وأعتقد أن تجربة إنشاء قناة تلفزيونية إسلامية ستكون نموذجا فريدا يقدم صورة عماية لكيفية مقاومة آثار البث التلفزيوني الآتي من لدن الآخرين الذي يرمي عادة إلى تغيير البنية الثقافية للشعوب الإسلامية وتغريبها ، وتحويلها إلى شعوب تابعة – واقول صورة عملية لأن الصراخ والشكوى وهجاء الآخرين ليس حلا عمليا أو مجديا – فالمجدي والعملي تقديم البديل الفعال والمثمر كما فعل المسلمون الأتراك .

الهندسة المعمارية

مدينة اسطنبول أو الآستانة أو إسلام بول تجمع بين الطابعين الشرقي والغربي ، وقد لعبت الهندسة المعمارية الحديثة ؛ فضلا عن القديمة دورا واضحا في بنائها وتخطيطها ، مع أن طبيعتها شبه الجبلية لا تعطيها الانبساط الذي تتمتع به بعض البلاد العربية (تقوم على سبعة تلال) ، ويشعر الزائر أن المدينة ممتدة للحركة الطليقة في أماكنها المرتفعة والمنخفضة على السواء ، ويربط اسطنبول الشرقية باسطنبول الغربية مجموعة من الجسور القديمة والحديثة ، ومنها الجسور المعلقة التي لا تقوم على قوائم خرسانية في قلب الماء كما هي العادة ؛ ولكن تقوم على مجموعة من الأعمدة والروابط العلوية في هندسة رائعة وعجيبة وأهمها جسر "أوزال " الذي يفخر به الأتراك .
بيوت اسطنبول على الطراز الغربي من الخارج (على الأقل) ، تتوجها الأسطح الآجرّيّة المحدبة أو الهرمية نظرا لكثرة الأمطار في الشتاء ، وما زالت بعض البيوت والمباني القديمة في مكانها، ولم تجر عليها يد التغيير ، وتتميز– كما علمت - بالغرف الفسيحة والصالات الكبيرة والحوائط العريضة المرتفعة والأبواب الضخمة.
لكن ما يشد الزائر ويبهره ، يتمثل في الآثار القديمة ، وبخاصة المساجد التي بنيت منذ عهد " محمد الفاتح " قبل أربعة قرون تقريبا ، ولعل أبرزها مسجد الفاتح نفسه ، فهو رمز لعظمة البناء وضخامته ، ويعتمد المسجد على القباب الكبيرة المزخرفة من الداخل ، والنوافذ الزجاجية الملوّنة (من الزجاج المعشق) المأخوذ من النمط البيزنطي .. وقد لاحظت أن مسجد الفاتح يضم طلابا يشبهون طلاب الأزهر في زيهم ، يحفظون القرآن الكريم ،ويدرسون الشريعة ، ويوجد في بعض زوايا المسجد طالبات صغيرات محجبات يحفظن القرآن الكريم .

ومسجد محمد الفاتح له – إلى جانب قبابه العظيمة – مآذن سامقة تشق الفضاء ، وتتميز بضمورها واستقامتها حتى طرفها العلوي الذي يأتي على شكل مخروط ينتهي غالبا بهلال مفتوح و أحيانا بهلال مغلق على طراز المساجد العربية .

رمز الوحدة

أما مسجد أبي أيوب الأنصاري ، فهو أحد المعالم التاريخية والاجتماعية .. كيف ؟ إنه يضم رفات الصحابي الجليل رضى الله عنه الذي خرج مع الجيش الإسلامي من أجل فتح القسطنطينية التي صارت الآستانة فيما بعد أو إسلام بول ، أو اسطنبول كما نعرفها الآن ، ويعد أبو أيوب الفاتح الحقيقي للقسطنطينية في رأي محمد الفاتح ، فإن إصراره على الخروج مع جيش الفتح وهو طاعن في السن ، وقتاله الباسل ضد البيزنطيين حتى الشهادة ، جعله الفاتح المعنوي الذي افتخر به الفاتح العثماني .

وأهل اسطنبول - وربما الأتراك جميعا – يرون في أبي أيوب رمزا لوحدتهم ، وعبقا من تاريخ المدرسة النبوية الأولى التي كان الصحابة رضوان الله عليهم تلاميذها النجباء .

دليل قوة

يضم متحف اسطنبول الرسمي (طوب قابي) مساحة واسعة تحيطها الخضرة والحدائق ، ويطل على بحر مرمرة ، وتقع خلفه خطوط السكك الحديدية (قطار الشرق السريع) التي تتيح لكثير من أهل أوربة الوصول إلى اسطنبول بأعداد غفيرة . والمتحف به أجنحة عديدة تضم ما يتعلق بالسلاطين من آل عثمان (ملابس ، أدوات طعام ، أدوات زينة ، سيوف ، أوسمة ، مذهّبات وزمرد ولؤلؤ وألماس ...إلخ) فضلا عن الغرف والحجرات التي كان يجلس بها الحكام ، بالإضافة جناح خاص يحتوي على الآثار المنسوبة إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – والصحابة - رضوان الله عليهم - من سيوف وأشياء شخصية ، وقد يدور حول نسبتها جدل كبير . الآثار التي يضمها المتحف دليل على قوة سلاطين آل عثمان وعظمتهم وأبهتهم التي جعلت دولتهم سيدة العالم في زمانها ، وجعلت من اسطنبول قبلة لكل الدول والحكومات ، حتى أتي عليها ما يأتي على الناس من ضعف وانكسار ، وسبحان من له الدوام .

دعاء ختم القرآن

من الأمور التي أثارت في نفسي الغبطة والسرور أمران : أولهما – كان على أرصفة شوارع اسطنبول، فهذه الأرصفة تمتلئ بعد العصر عادة بالباعة الذين يبيعون شتى السلع والبضائع بدءا من الملابس الشعبية الرخيصة حتى الفواكه ، وفي قلب الزحام رأيت شاب تركيّا ملتحيا يرتدي ثوبا أبيض وطاقية بيضاء ، وأمامه عربة مدّ فوقها شرائط الكاسيت ، وبجوارها مسجل ينبعث منه دعاء ختم القرآن الكريم يتلوه إمام الحرم الشريفين في مكة المكرمة آخر رمضان .. كانت مفاجأة أسعدتني وسط الطوفان الهادر للباعة الذين يبيعون كل شيء . أحسست أن الجذوة الإسلامية لما تزل متقدة ، وأن أتاتورك لا بد مهزوم في يوم ما .

لقد رأيت إرهاصات عديدة بانبعاث الإسلام الظافر وعودة محمد الفاتح من جديد .

الأمر الثاني الذي سرني – هو زيارة غابة بلجراد على أطراف اسطنبول ، وهي غاية طبيعية . أشجارها سامقة، وأرضها خضراء ، وفي واديها بحيرة عذبة ، عليها سدّ أقامه أحد السلاطين العظام من آل عثمان ، ولعله " محمد الفاتح " نفسه ، وقد تدخلت الحكومة بشق الطرق وتوصيل المياه ، وتجهيز المقاعد للزائرين والسائحين من خشب الغابة ذاتها ، وبالقرب من البحيرة أقامت رابطة الأدب الإسلامي العالمية أمسية شعرية حضرها رئيس الرابطة سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي . وقد تبارى الشعراء في الحديث عن آلام الأمة وهمومها بقصائدهم العربية والتركية التي عبرت عن وحدة المشاعر والأهداف بالرغم من اختلاف الأصول والأجناس .

ساعة الوداع

ساعت أن ودعت اسطنبول أحسست أني أودع عالما مألوفا ، صورته موجودة في أحياء القاهرة ، وشاطئ الإسكندرية ، وقلعة محمد على ومسجده والمساجد المحيطة به ، وشعرت أن التواصل بين شعوب الأمة يظل قائما ولو من خلال خيط رفيع جدا قد لا يراه الناس ، ولكنه يربط القلوب التي تردد : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ".

وتبقى اسطنبول مثيرة للمواجع والفواجع ، كما هي ذكرى للزمن الجميل : زمن الفتح والانتصار .. ولا غالب إلا الله .

اسطنبول لثاني مرة - ١

أعوذ بالله من الشيطان والسياسة!
اسطنبول ٥٥٥ عاما

هي بيزنطة ، وهي القسطنطينية ، وهي إسلام بول ، وهي الآستانة ، وهي اسطنبول . وقد مضى على فتحها (٢٩ مايو ١٤٥٣م) خمسة وخمسون وخمسمائة عام ، واستطاع محمد الفاتح أو السلطان محمد الثاني (١٤٢٩ – ١٤٨١م) أن يضع حدا لأكبر مصدر من مصادر العدوان والشرّ والتعصب ، وأن يحقّق البشارة النبوية التي بشّر بها النبي - صلى الله عليه وسلم – في حديثه الشهير :" لتفتحنّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش ..." وهي البشارة التي تحرك بها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري وقد تجاوز عمره الثمانين ، ليخرج مع جيوش يزيد بن معاوية ، في المحاولات الأولى لفتح المدينة الاستثنائية ، ودفن على أسوارها حين صدت الفاتحين واستعصت عليهم في القرن الأول الهجري ، ونقل رفاته بعد قرون إلى داخلها ليكون ضريحة منطلقا لتتويج الخلفاء والسلاطين ، وبهجة العرائس والعرسان ، وفرحا للطفولة البريئة بالختان .

آية في الجمال والنظافة

اسطنبول مدينة الزهور والجمال والنظام والانضباط ، ومركز التحولات الكبرى المالية والمعنوية في حياة شعب يشق طريقه من جديد نحو القوة والتحضر والتفوق .. والمفارقة أنها تبلغ حجم القاهرة في عدد السكان (من ١٠ إلى ٢٠ مليونا) ولكنها لا تعاني البؤس والهوان والتراب الذي تعانيه الأخيرة ، فهي آية في الجمال والنظافة والسلوك الراقي ، وهي ليست مبسوطة على واد خصيب مثل القاهرة ، وتتربع فوق سبعة تلال تجعل جغرافيتها وطرقها من أعجب المدن في العالم ، فأرضها مغطاة بالسيارات والحافلات ، وشوارعها مرتفعات ومنخفضات ، ولكن هذا لم يؤثر في حركة المرور ، فهناك نظام عام يجعل الأفراد يلتزمون بإسالة الحركة وتسييرها دون ضجيج أو عجيج ، ونادرا ما تسمع صوت نفير السيارات أو ترى حركة السائقين ..

لقد تواضع الناس على احترام بعضهم ومراعاة غيرهم ، ورأيت السائق الشاب الذي يقود سيارتنا يهبط بخفة سريعة ليوقف السيارات القادمة من أجل سيارة ضخمة في منحنى خطر ، وتسيل بعدها حركة السيارات دون أن يتفوه هو أو غيره بكلمة واحدة أو تصدر تشويحة من هذا السائق أو ذاك .. وبالطبع لا يوجد في الشوارع غبار أو تراب يخنق الصدور ويحبس الأنفاس .

قلعة بلغراد

كانت المدينة الاستثنائية يوم التاسع والعشرين من مايو ٢٠٠٨ ؛ تتزين في الشوارع والميادين ، وعبر السيارات والحافلات برفع العلم التركي الأحمر ، وبداخله الهلال والنجمة البيضاوان، منذ الصباح الباكر للاحتفال بذكرى فتح المدينة التاريخية وضمها إلى الدواة العثمانية ، وكان هذا الاحتفال المناسبة التي اتفق عليها الإسلاميون والعلمانيون لأول مرة ، وشهده الطرفان وأكدا عليه في موقع تاريخي عريق ، هو قلعة " بلغراد "، حيث كان العرض العسكري التمثيلي ، والكلمات التي ألقاها ممثل الجيش ومندوب البلدية ووالي المدينة وشاعر شاب ، وفرق تنشد النشيد القومي الذي ألفه شاعر تركيا العظيم " محمد عاكف " – رحمه الله – الذي قضى شطر حياته الأخير في مصر .

لم أكن أدري وقد دفعت بي الأقدار في أواخر مايو ٢٠٠٨م لزيارة اسطنبول للمرة الثانية كي أحضر مؤتمرا علميا ؛ أنني سأشهد عرضا عسكريا تمثيليا يعيدني مرة أخرى إلى فترة سابقة قبل أربعين عاما عشتها تحت الرداء العسكري ، رأيت فيها وطنا منهزما ينهض من تحت التراب ، ويحقق معجزة العبور، ويكسر الذراع الشريرة التي أذلت الأمة جميعا .

الأعلام الثلاثة

كان العرض العثماني يكشف كيف استطاع جنود محمد الفاتح تسلق القلعة والتحصن بها وانتظار العدو .. المشهد فيه شبه من تسلق خط بارليف مع الفارق ، ولكن سبقه تقديم الصورة التاريخية لتحرك الجيش العثماني وطلائعه بزيها القديم . الموسيقات العسكرية تثير الحماسة ثم " المهتمارية " وهم حاملو الطبول والصنوج ، وعازفو النايات ، مع منشدي الأدعية وقارئي الآيات القرآنية الدالة على النصر " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " (محمد : ٧) ..

ثم تتقدم فرق الجيش المختلفة (الانكشارية ، الشاويشية ، الطوبجية ، ...) ، ويأتي طلاب المدارس وطالباتها في تسلسل يحكي صورة الجنود وهم يسيرون نحو القتال ، ويليهم حملة الأعلام الثلاثة : العلم العثماني التاريخي (الأحمر بأهلّته الثلاثة) والعلم الإسلامي التاريخي(الأخضر بأهلته الثلاثة أيضا) وعلم الاستقلال الأبيض ، ثم ممثلو بعض السلاطين بزيهم التراثي وعمائمهم المميزة ، وينتهي العرض بتقديم رقصات شعبية بأزياء تاريخية .

في أثناء العرض انطلقت المدفعية تهز أرجاء المكان تعبيرا عن قوة الجيش وإصرارا على النصر .

كل المشاهدين - وأنا واحد منهم - يتفاعلون مع العرض العسكري ومع التاريخ ، ومع المستقبل . وكانت المنصة تضم ممثلي أسلحة الجيش التركي المعاصر الذين وقفوا تحية عند مرور العرض ، ورفعوا أيديهم تعظيما لرمز قوتهم وسطوتهم .

لقد استعاد المتحدثون تراث الآباء والأجداد في الجهاد والدفاع عن الوطن ، وأكدوا على مواصلة الطريق الذي سلكه هؤلاء الأسلاف ، وفي الوقت ذاته أعلنوا عن إصرارهم على صنع المستقبل وحمايته ، والارتقاء بمدينة اسطنبول رمز المجد والعظمة والنصر .

ثمن الخبز

لم يتح لي أن أشاهد الاحتفالات الشعبية التي أقيمت في ميدان تقسيم (قلب المدينة) وطوب كابي(قصر الخلافة العثمانية الذي تحول إلى متحف قومي) وخليج القرن الذهبي الذي شهد عملية إنزال السفن المقاتلة للإبحار نحو أسوار المدينة قبيل فتحها .
بيد أن أهل اسطنبول في ذل اليوم ، كانوا سعداء وهم يرون الألعاب النارية والصواريخ الملونة تشق عباب الفضاء وتضيء الليل ، خاصة بعد أن تحسنت أوضاعهم المادية والمعنوية ، وشعروا أن الخبز في بلادهم ينخفض ثمنه ٢٠% ، بعد أن ارتفع في بلاد أخرى ، وتناقلت الأنباء سقوط قتلى في طوابير الانتظار للحصول على بضعة أرغفة في هذه البلاد الأخرى .
مررنا على أحد المخابز في اسطنبول ، فلم نر زبونا واحدا يشتري . كان المخبز المقفر من الزبائن يمتلئ بأصناف عديدة من المخبوزات . سألت مرافقي عن الظاهرة ، فأخبرني أن الناس يفضلون شراء الخبز من (السوبر ماركت) أو المحلات توفيرا للوقت ، حيث يشترون ما يلزمهم من أغذية وغيرها ، ويجدون الخبز في طريقهم وهم يتسوقون !

مكافأة الإصلاح

منذ أربعة عشر عاما كانت اسطنبول لدى زيارتي الأولى تضج بالمشكلات ، وكان رجب الطيب أردوغان ، رئيسا لبلدية استانبول ، ووضعته الأقدار في مواجهة مشكلات مزمنة لمدينة صعبة ، بدءا من تراكم الزبالة ، وإضراب عمال النظافة ، حتى شح المياه وانقطاعها عن أحياء كاملة ، مرورا بانتشار الانحرافات والمخدرات والفساد الإداري والمالي ، وضجيج المدينة من السرقات وممارسات السكارى والشواذ والبلطجية .. وقد استطاع أردوغان أن يحل كثيرا من المشكلات آنئذ، ولكنه كوفئ بإدخاله السجن وحرمانه من ممارسة العمل السياسي خمس سنوات .
ويبدو أن التاريخ سيعيد نفسه ، حيث يطلب النائب العام الآن حظر الحزب الحاكم الذي يقوده أردوغان وحرمان سبعين من قياداته من العمل السياسي ، منهم رئيس الجمهورية وأردوغان نفسه، وذلك بعد أن تعافت تركيا في ظل " العدالة والتنمية " من الانهيار الاقتصادي والفساد السياسي والتراجع الاجتماعي ، وحققت قفزة كبيرة في مختلف المجالات شعر بها المواطن العادي الذي يتعاطف مع الحكومة ورموزها
.
قبل الاحتفال بذكرى فتح القسطنطينية بيوم واحد كان أردوغان يخطب في ديار بكر التي تضم أغلبية كردية ، واصطحب معه اثني عشر وزيرا ، ووعد أهل المنطقة بأن مشكلاتهم ستحل تماما مع عام ٢٠١٢، وسأل التليفزيون مواطنا كرديا عن رأيه فيما يقوله رئيس الوزراء . فقال : إنه يثق في الحكومة الحالية ، ولكنه يخشى عليها من عدم الاستمرار !

تعقل وهدوء وتدرج

ومهما يكن من أمر ؛ فإن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء ، وذلك لأن تركيا الراهنة قد تغيرت وتجددت بفضل الإصلاحات العميقة والمؤثرة التي ينفذها حزب " العدالة والتنمية " بتعقل وهدوء وتدرّج ؛ في شتى المجالات ، ثم إن البنية المعنوية أو التكوينية للشعب التركي – إن صح التعبير - تتغير أيضا ، وتأخذ اتجاها تصاعديا

نحو الأحسن والأفضل ، بفضل إتاحة الفرصة للمجتمع المدني كي يعمل ويثبت وجوده ، وقد صارت منظمات هذا المجتمع التي تقوم على الدعم الشعبي ذات حضور قوي ، وفعال لا تستطيع أية قوة من قوى السياسة والاقتصاد تجاهله او إهماله ، وهو ما يعني أن المد الإصلاحي سيستمر ، حتى لو سقطت حكومة " العدالة والتنمية " .

ركزت حكومة العدالة والتنمية على الإصلاح الاقتصادي بالدرجة الأولى ، فالتف حولها الشعب على المستوى العام ، لأنها خاطبت مشكلاته ومصالحه ، وسعت سعيا حثيثا ملموسا في وضع الحلول الممكنة والمتاحة التي تحققت على أرض الواقع ، ووفت بكل ما وعدت به ، هو ما جعل قطاعات كبيرة من العلمانيين تتعاطف مع الحكومة ، وتصوت لها في الانتخابات التشريعية السابقة (٢٠٠٧) .

كانت أول خطوة في الإصلاح الاقتصادي محاربة الفساد ، وخاصة فساد الكبار ، ولعل تحويل " تانسو شيللر " و" مسعود يلماظ " وهما من رؤساء الوزارات السابقين إلى التحقيق كان الدليل الأوضح على صدق العدالة والتنمية في توجهه نحو الإصلاح الحقيقي .

لقد اتهمت شيللر ويلماظ بالحصول على أربعة مليارات دولار رشوة ، نظير الموافقة على مرور الغاز إلى بعض دول الاتحاد الأوربي من الجمهوريات الآسيوية ، وما زالت التحقيقات جارية بكل جدية وصرامة حتى كتابة هذه السطور .

وقبل ذلك تمت محاسبة رءوس الفساد ، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم ويخوتهم التي سرقوها من الدولة والشعب ، واستطاعت الحكومة في دورة توليها الحكم الأولى أن تسترد ٤٦ مليار دولار ، وأن تضع نهجا جديدا للعمل الاقتصادي ، يقوم على الأمانة والصدق والشفافية ، ولا يقوم على الرشوة والغش والخداع .

اهتمت حكومة العدالة والتنمية بمعالجة مشكلة البطالة عن طريق تشجيع الاستثمار الانتاجي ، وفتح المجال أمام إقامة المصانع والشركات التي تنتج للتصدير ، وتتوسع في المشاركة داخل دول العالم الإسلامي التي تعد مجالها الأساسي الأوسع بإقامة المصانع التي تؤسس لمنتجات مهمة مثل السيارات والنسيج والآلات وغيرها ، بحيث صارت المصانع التركية المشتركة تقدم كل ما تنتجه مصانع الاتحاد الأوربي من سلع ومصنوعات ، وهو ما وفر فرص عمل كثيرة أسهمت في تخفيض نسبة البطالة التركية إلى حد كبير .

اتحاد " مساعد "

رجال الأعمال الأتراك لهم اتحاد رسمي وآخر مستقل ، والأخير لا يرتبط بالدولة ارتباطا رسميا ، ولكنه لا يعمل في إطار الخطة العامة للدولة التي تهدف إلى زيادة الإنتاج والتصدير ، وأيضا فإن مجاله الحيوي الأوسع هو دول العالم الإسلامي ، وقد دعينا إلى الغداء في مقر اتحاد رجال الأعمال المستقلين ، ويطلقون عليه اختصارا اسم " مساعد " ، وجلس معنا عضو مجلس إدارة الاتحاد ، الذي شرح أوجه نشاط رجال الأعمال المستقلين ، وتحدث طويلا عن مشروعات رجال الأعمال القائمة والمنتظرة ، ولفت نظري ما تحدث به عن اعتماد هذا الاتحاد على أربعة بنوك لا تتعامل بالربا أو الفائدة ، ولكنها تقوم بتمويل المشروعات الإنتاجية – وأؤكد

على الإنتاجية ، بداية من شراء أرض المشروع حتى شراء الإنتاج وتسويقه عالميا مقابل نسبة يتفق عليها الممول والمنتج ، وأتاح الاتحاد بذلك فرصا عديدة لإقامة مشروعات ضخمة ومهمة استوعبت عمالة كبيرة .
وإلى جوار ذلك فإن الاتحاد الذي يملك مقرا فخما في اسطنبول يضع في حسبانه أهمية التدريب واكتساب الخبرات ، ولذا يتحمل عشرات المنح لمبعوثين يرسلهم إلى الدول التي تملك الخبرات والمهارات المتقدمة . وبالطبع فإنهم لا يرسلون إلى الدول العربية أحدا ، لأنه لا توجد بها خبرات ولا مهارات !!

رجال الأعمال

لقد وجدت أخيرا معنى لكلمة " رجال الأعمال "التي أبغضها بغضا شديدا، نظرا لما كنت أراه في مصر ، فرجال الأعمال الأتراك منتجون مصدرون ، يخدمون بلدهم ومستقبلهم في إطار من الجدية والصدق . أما نظراؤهم عندنا – سامحهم الله – فإني أسميهم رجال " القروض " لأن غايتهم الأساسية هي امتلاك المال لسرقته والهروب به أو لشراء الأراضي وتسقيعها ، وبيعها مرة أخرى للدولة بأسعار خرافية ، أو إقامة المشروعات الترفيهية والشاليهات والفيلات ، وإنشاء شركات الهاتف والمحمول وقنوات التلفزيون الرديئة التي تروج لأفكارهم ومشروعاتهم غير الإنتاجية .
عقب وصولي من اسطنبول بعد احتفال ذكرى فتح القسطنطينية بيوم أو يومين ؛ قرأت إعلانا على صفحتين في جريدة مصرية يومية كبرى يعرض فيه رجل قروض مشروعاته ، أو ما سماه إنجازاته . فإذا بها لمشروعات ترفيهية وهامشية لا تضيف إلى الوطن شيئا ذا قيمة ، ولا تستوعب عمالة ذات خبرة أو منتجة .. في الوقت ذاته كان رجال الأعمال الأتراك يعلنون عن مشروع مشترك مع مصر بإقامة مصنع نسيج في كفر الدوار بمحافظة البحيرة قيمة استثماراته الأولية ٥٠٠ مليون دولار.. وقبل كفر الدوار حضر الرئيس التركي عبد الله جول ليفتتح مدينة صناعية في مدينة ٦ أكتوبر .

لم يرد علينا أحد

حين سألت عضو مجلس إدارة اتحاد رجال الأعمال المستقلين عن علاقتهم بمصر ورجال أعمالها ، بدا محرجا حين قال : " إننا أرسلنا العديد من الرسائل إلى الغرفة التجارية الصناعية ؛ ولكن أحدا لم يرد علينا " .
خطر على ذهني حينئذ سؤال ؛ ولماذا ترد الغرفة التجارية الصناعية ؟ ولماذا يهتم أحد من رجال الأعمال (القروض) عندنا بمثل هذه العلاقة ؟ إنهم مشغولون بكيفية الاستمتاع بالقروض على المستوى الشخصي ، وإقامة الأفراح والليالي الملاح والقصور الفاخرة والحمامات التي تليق باقتراض مئات الملايين .
للإنصاف هناك بعض رجال الأعمال المصريين شرفاء ، ويسعون لخدمة الوطن والصناعة والإنتاج ،ولكنهم للأسف قلة نادرة ، يعرفها الناس ويحترمونها .
تتدخل الحكومة التركية من خلال البلديات بإقامة مشروعات تجارية مربحة .. وترى أن ذلك لا يتعارض مع النهج الرأسمالي الحر.. على سبيل المثال تقوم بلدية اسطنبول بإدارة مجموعة مطاعم ضخمة في شتى أرجائها ، تقدم وجبات جيدة بأسعار تقل

كثيرا عن مثيلاتها في القطاع الخاص ، وتحقق أرباحا طيبة تضاف إلى ميزانية البلدية .
بالطبع لا توجد عمليات فساد في هذه المطاعم ، لأنها تسجل عمليات الإنتاج والاستهلاك إلكترونيا ، والمتابعة مستمرة ، والبقشيش ممنوع لأنه يمثل عارا قوميا ، وهو ما أكدته حكومة العدالة والتنمية .. ويلاحظ أن مستوى الخدمة في هذه المطاعم وغيرها مرتفع وسريع وراق .
في المجال السياحي تكتظ اسطنبول بالفنادق ووسائل المواصلات الجيدة التي تقهر الزحام . وسيارات الأجرة تتعامل بالعداد . العقبى لنا في مصر! ويحرص السائق على رد ما يتبقى من الليرة ولو كان ربع ليرة ، لأنه لا يقبل البقشيش ، أو " خللي الباقي علشانك "، كما يحدث عندنا . والسائق التركي مؤدب مهذب طويل البال ، ويتطوع بالسؤال عن المكان لوكان الضيف لا يعرفه جيدا .

مآذن وقباب

وتعتمد السياحة في اسطنبول على القادمين من أوربة ومعظمهم شباب ،والآتين من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق ، فهؤلاء يشعرون بصلة قومية بينهم وبين الأتراك ، حيث ينتسبون جميعا إلى القوميات التترية التي توزعت في جمهوريات مختلفة بحكم العوامل السياسية .
ومن الطريف أن مصر تسهم في دعم السياحة في اسطنبول والترويج لها . فقد رأيت كتلا ضخمة من السائحين يتحلقون حول مسلة مصرية في حديقة مسجد السلطان أحمد .. المسجد فخم به ست مآذن سامقة تنتهي مع عشرات القباب المميزة بأهلة ذهبية ، ويعد من أكبر المساجد الإسلامية في العالم .. وقد بنى السلطان مسلة عثمانية من الحجارة توازي المسلة المصرية ، ولكن الأخيرة تلمع تحت ضوء الشمس ، ولم تتأثر بعوامل التعرية ، وتجذب السائحين بقوة ، فهي من الجرانيت الصقيل الذي يبهر من يشاهده ، بينما تآكلت المسلة العثمانية ، وسقطت أحجار كثيرة منها ، ولا يقف عندها أحد ، لأنها تبدو مثل الجدار الذي تذيبه الرياح والأعاصير والأمطار .
في اسطنبول مئات من الآثار التاريخية ؛ عثمانية وغير عثمانية ، وهي آية في الروعة والجمال . وتعد المساجد مفخرة الآثار الإسلامية بعامة ، والعثمانية بخاصة ، ويذكر أن العثمانيين لهم السبق في الاعتناء بالمساجد على وجه العموم ، وتعد عمارتهم مفخرة لهم ، وتذكر في إيجابياتهم ، وقد ارتبطت بالخط العربي الذي برع فيه كثير منهم ، وزينوا به المحاريب والقباب ، خاصة خط الثلث الذي كتبوا به آيات القرآن الكريم ، بل سورا كاملة ..
يروون حكاية طريفة عن خطاط تركي كتب سورة النور على إحدى القباب ، وأصيب بالعمى وهو يكتب السورة ، واستمر حتى أكملها !
لقد اشتهر العثمانيون بنسخ القرآن الكريم بخطوطهم المميزة .

حركة السفر

واسطنبول ملتقى أوربة وآسيا . ولذا لا تهدأ حركة السفر ذهابا وإيابا ، مرورا بمطار أتاتورك الذي تم توسيعه وتحسينه واعتماده على الإلكترونيات والإنترنت ، فلا يعاني المسافر من الوقوف أمام الجوازات ، ولا في البحث عن الحقائب ، ولا التفتيش أمام

بوابات الدخول .. والسيطرة الأمنية تتم بهدوء بعيدا عن العصبية أو التحرش العنصري الذي نشاهده في بعض المطارات العربية ضد العرب !
لقد انعكست الحركة الاقتصادية المزدهرة والانتعاش التجاري في اسطنبول وغيرها على حياة الناس ، إنهم يشعرون بتحسن ملموس في شتى المجالات ..حاولت أن أعثر على حفرة في أي طريق أو بلاعة مفتوحة فلم أجد . إصلاح الطرقات يتم ليلا وفي سرعة البرق . السيارات في المدينة لا يمكن أن يتجاوز عمرها ثلاث سنوات ، والبنوك تدعم شراء سيارات جديدة ، أما القديمة فتباع لسكان المدن الصغيرة والقرى ، أو لتجار الخردة الذين يعيدون إصلاحها وتصديرها إلى دول نامية !
لذا لا تجد في اسطنبول هواء ملوثا أو دخانا منتشرا في الشوارع ، بل تجد زهورا ملون في كل مكان حتى الرصيف يزرعونه ورودا وأزهارا ، ولا يزرعونه أكشاكا وسلاسل حديدية وفاترينات تجارية قبيحة . ثم هناك العنصر الرئيسي الذي لا يمكن نسيانه أبدا وهو النظافة .. نظافة الطريق والسيارة والمنزل والفندق والمؤسسة والحمام والمطعم والطعام .. لم أشعر بمغص طوال أسبوع أقمته في اسطنبول .. لماذا ؟

الرءوس الكبيرة

الإصلاح المادي في تركيا عامة واسطنبول خاصة بوصفها العاصمة التاريخية والتجارية والاقتصادية يستوجب أن نبعث ببعض أصحاب الضمير في بلادنا ليدرسوا كيف نهضت اسطنبول ؟ وقد حاولت أن ألتقي برئيس البلدية لأسأله هذا السؤال فوجدته مشغولا في الوقت الذي كان متاحا لي بالبقاء في المدينة .. ولكني أستطيع القول إن العنصر الأساسي في النهوض هو محاربة الفساد – كما سبقت الإشارة – وهذه المحاربة هي السبب الرئيسي الحقيقي في الاتهام الذي وجهه النائب العام لحزب العدالة والتنمية من أجل حلّه وحظر العمل السياسي على قادته السبعين .. فقد طالت محاربة الفساد رءوسا كبيرة تنتمي إلى المنظمة السرية الشهيرة " جلاديو " التي تتكون من ضباط سابقين ورجال أعمال فاسدين وسياسيين فاشلين ،وتسعى لإحكام سيطرتها على الاقتصاد والسياسة بدعم من حلف الأطلنطي ، وليس السبب ما أعلنه النائب العام عن تأليف إحدى المدرسات المنتميات إلى حزب العدالة والتنمية كتيبا عن فرائض الصلاة ، وهو ما يخالف المنهج العلماني .

قضية الحجاب

إن الضربات التي أنزلتها حكومات العدالة والتنمية بالفساد أطارت صواب الفاسدين ، لذا اتخذوا من قضية العلمانية متكأ يستندون عليه في مواجهة الحكومة الجادة التي تسعى إلى توسيع مساحة الحريات وكسب المزيد من الحقوق الأساسية للأتراك .. وكان من الواضح أن قضية الحجاب وموافقة مجلس النواب على ترك الحرية للنساء في ارتداء الحجاب وعدم حرمان المحجبات من التعليم مدخلا للهجوم على حزب العدالة والتنمية وتهييج اليسار للتظاهر ضد قانون الحجاب وقد نظموا مظاهرة مليونية تحركت من ميدان تقسيم الشهير ، شارك فيها العلمانيون واليسار والماسون ، ونددوا بالحكومة والحزب والقانون جميعا ،ولكن الحكومة كانت أذكى حين تجاهلت الأمر ، ولم ترد على المظاهرة بمظاهرة مماثلة أو أكبر !

الحصول على مزيد من الحرية للشعب التركي هدف رئيسي من أهداف العدالة والتنمية ؛ لأنه يرفع عنهم سطوة الاستبداد السياسي ويفتح الآفاق العقلية للتفكير الحر والإيمان الحقيقي والمشاركة الفعالة ، ويهيئ لكرامة إنسانية حقيقية ، لا تنتهكها قوة مستبدة أو هيئة تكره العدل والمساواة ..

نادٍ مسيحي

ولعل إصرار حكومة العدالة على الالتحاق بالاتحاد الأوربي مع أنها متأكدة أنه لن يقبل تركيا عضوا فيه وسبق لبعض أعضائه أن أعلنها صراحة أن " الاتحاد الأوربي نادٍ مسيحيّ !" ، فإن الهدف الحقيقي هو استخدام الاتحاد الأوربي أداة فعالة لتمرير القوانين المؤكدة للحريات والمعزّزة لها ، حتى يمكن التخلص من قبضة العسكر الأتراك وحلفائهم في القضاء والتعليم العالي والإعلام والأحزاب العلمانية .

إن تاريخ المؤسسة العسكرية مع الحريات لا يشرّف ، وسبق أن قامت بانقلابات عديدة ، وأجرت إعدامات لرجال كثيرين بحجة مخالفة العلمانية والنظام العلماني .. ويروى أن أحد أعضاء مجلس النواب التركي تلفظ بعبارة " ما شاء الله " وهي عبارة دارجة على ألسنة الأتراك فتم تحويله إلى التحقيق وتهديده بفقدان عضويته في المجلس الموقر !

العلمانية المتوحشة

التحرر من سطوة القبضة العسكرية بداية الطريق لبناء الإنسان التركي بناء جديدا حقيقيا ، لأنه يخلصه من سعار العلمانية المتوحشة التي لا مثيل لها في العالم .. وتخيل بلدا كان عاصمة للإسلام والمسلمين يحرم على مواطنيه النطق بالبسملة في المؤسسات الرسمية ، وكتابتها في الخطابات الحكومية .

ولا شك أن الحكومات التركية منذ حكومة عدنان مندريس وجلال بايار اللذين دفعا حياتهما مع آخرين مقابل السماح بالأذان في المساجد (أعدم الأول وخفف الإعدام عن الثاني إلى السجن المؤبد) قد تراخت قبضتها قليلا عن الشعائر الدينية والدعوة الإسلامية ، وإن كانت الصرامة والحزم داخل المؤسسات الرسمية أقوى من ذي قبل ضد أي مظاهر إسلامية .

طلبت من مضيفيّ أن أذهب إلى ميدان " تقسيم " الشهير الذي يعد قلب اسطنبول ، ولأول مرة ألمح على وجوههم بعض التجهم دون أن ينطقوا بكلمة ! لم أدرك السبب الذي دفعهم إلى التجهم مع أنهم كانوا يرحبون بالذهاب إلى أي مكان طلبته .. سألت الزميل الذي يشترك معي في المؤتمر فأخبرني أن هذا الميدان له سمعة غير حسنة لدى الأتراك ، فهو مجمع " التغريب " ، ومنه ينحدر أشهر شوارع اسطنبول ، وهو شارع الاستقلال الذي يغص بالسائرين على مدى اليوم والليلة ويمتلئ بالخمارات وأوكار القمار والانحلال والشذوذ ، ويترنح فيه السكارى ، وينتشر اللصوص . هذه الزيارة كانت مختلفة عن المرة السابقة قبل أربعة عشر عاما ، فقد رأيت سيارات الشرطة يكتظ بها الميدان والشارع ، وتبدو الأمور أكثر انضباطا ، حيث يتم تطهير الميدان والشوارع المتفرعة منه أو التي تصب فيه أولا بأول من كل مظاهر الخلل ، وهناك أساليب غير مباشرة تتخذها السلطات للتضييق على المنحرفين والحد من نشاطاتهم .

الإنسان المسلم

وللمدارس الدينية (مدارس الأئمة والخطباء) دور كبير في تغيير البنية المعنوية للشعب التركي ، وبناء الإنسان المسلم هناك بناء جديدا ، بعيدا عن التغريب والتفرنج الذي تم تعميمه عقب سقوط الخلافة رسميا عام ١٩٢٤م .

تستوعب هذه المدارس أعدادا كبيرة من البنين والبنات ، وتهتم بتعليم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والعبادات ، ويلتحق خريجوها بالتعليم العام والكليات المختلفة . ويستوعب التعليم الخاص أعدادا لا بأس بها من هؤلاء ، وبعضهم – وخاصة البنات – يلتحقن بجامعات أجنبية في العواصم الأوربية وأميركا ، لأن الحجاب ممنوع في الجامعات التركية . وبعض البنات يخلعن الحجاب على باب كليتهن في تركيا إذا لم يستطعن الذهاب إلى الغرب .. وما زال كثير من الجامعات التركية يعترض على تنفيذ قانون السماح للمحجبات بالدراسة الجامعية ، لأن مجلس التعليم العالي قرر الاعتراض رسميا أمام المحكمة العليا التي لم تفصل في الأمر بعد .

هناك جماعات دينية عديدة سلفية أو طائفية أو سنية تقوم بدور ما في تربية الأجيال الجديدة ، ولكنها تتفق غالبا على الابتعاد عن السياسة أو الدخول في دهاليزها المظلمة ، وتكتفي بالحرص على تأدية العبادات والإعداد لموسم الحج ، والابتعاد عن مجتمع التغريب بقدر الطاقة ، وهذه الجماعات هي التي حفظت جمرة الإسلام مشتعلة حت اليوم بعد أن حاول أتاتورك إخمادها وإطفاءها بالمشانق والسجون والمعتقلات والإعلام الموالي له .

" أعوذ بالله من الشيطان والسياسة!" .

تنسب هذه العبارة إلى بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٣ – ١٩٦٠م) صاحب " رسائل النور " التي ينعقد حولها مؤتمرات علمية عديدة . العبارة هي الوجه الآخر لعبارة الإمام محمد عبده " لعن الله ساس ويسوس وسياسة " التي عبر عنها بمعنى آخر حين أشار إلى أنه رأى في الغرب إسلاما بلا مسلمين وفي الشرق مسلمين بلا إسلام " ..

غاية الرجلين واحدة فيما يبدو.. وهي فقدان الأمل في تحقيق غايات الأمة من خلال السياسة السائدة وألاعيبها الماكرة التي تصنعها الأنانية والبغضاء والفرقة ، وهي بالتأكيد لا تشبه السياسة في الغرب التي تقوم على التخطيط والعمل والتكامل لتحقيق الآمال الوطنية والقومية .

اتجه الرجلان إلى بناء الإنسان من داخله أو تربيته تربية إسلامية تقوم على الإيمان والإخلاص والجد والقيم المضيئة .. وإذا تربى المجتمع هكذا فلا حاجة للثورات أو العنف أو التغيير بالقوة ، لأن كل شخص سيفعل ما يمليه عليه ضميره اليقظ الواعي .

وكانت لبديع الزمان نصيحة لأتباعه بعدم الاعتماد على السياسيين في الإصلاح ؛ لأنهم لن يحققوا شيئا يذكر ، وقد تأكدت نصيحته ،حينما خالفه بعضهم ، وانغمسوا في العمل السياسي فأخفقوا إخفاقا ذريعا .وكان هؤلاء قد أيدوا الرئيس السابق " سليمان ديميريل " ولكنه حين وصل إلى الحكم فاجأهم بما لا يحبون ، بل إنه قال لهم : " إن القرآن قد انتهى أمره . اتركوا القرآن كله !" .

الشجاعة والخوف

بديع الزمان النورسي ؛ من أبرز رجالات الدعوة الإسلامية . فسّر القرآن الكريم تفسيرا يعتمد على العقل ويخاطب القلب في ظل ظروف من أصعب الظروف التي مرّ بها شخصيا ،ومرت بها تركيا. فقد أنجز تفسيره في أربعة عشر مجلدا ضخما ، وتركيا تحارب الروس ، وكان مجندا ضمن الجيش التركي ، وأكمله وهو منفي في قرية بعيدة تسمى " بارلا " تبعد عن " إسبرطة " حوالي أربعين كيلومترا ، تحيطها الجبال والمياه ، وتقع فوق مرتفع من الأرض لا زرع فيه ، وظل ثماني سنوات ونصف سنة في منفاه يتخذ لنفسه مجلسا فوق شجرة من أشجار الشتار الضخمة ، يكتب فيه التفسير ويعبد ربه . لقد انتهى نفيه حوالي سنة ١٩٣٣، ولكنه لم يسلم بعده من الاعتقال والسجن حتى رحيله .

اتسم بديع الزمان بسمة الشجاعة ، والخوف من الله وحده ، وقد تعرض لمواقف صعبة كادت تودي بحياته ، ولكنه لم يتزعزع أو يستسلم . ففي أثناء الحرب مع روسيا دخل الجيش الروسي مدينة " بتليس " وكان النورسي ضمن الأسرى ، فجاء خال القيصر ، وهو القائد العام للجبهة ليزور معسكر الأسرى في " قوصتورمة " شرقي تركيا ، وقام الأسرى تحية إلا بديع الزمان ، ولاحظ القائد العام للجبهة ذلك ، فرجع مرة أخرى أمامه ، ولكن النورسي لم يعره اهتماما . فغضب القائد ، وقال له :

- يبدو أنك لا تعرفني !

فأجابه بديع الزمان :

- لا .. إنني أعرفك .. إنك خال القيصر والقائد العام .
- إذا فل، فلم تحتقرني ؟
- لا .. إنني لم أحتقر أحدا ، ولكنني فعلت ما تأمرني به عقيدتي ومقدساتي .
- وبماذا تأمرك عقيدتك ؟
- إنني عالم مسلم ، في قلبي إيمان ، والمؤمن أفضل من عديم الإيمان . إن قيامي لك ابتذال لعقيدتي ومقدساتي ، ولذا لم أقل لك .
- إذا فهذا يعني أنني عديم الإيمان ، وبذلك تكون قد احتقرتني ، واحتقرت جيشي ، واحتقرت أمتي ، واحتقرت القيصر ، لذا يجب تشكيل محكمة عسكرية لاستجوابك .

وتشكلت المحكمة ورغب كثير من الأسرى الأتراك والنمساويين والألمان حمل بديع الزمان على الاعتذار إلى القائد ، ولكنه رد قائلا :

- إنني أرغب في الرحيل إلى الآخرة، والوصول إلى حضرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا في حاجة إلى سفر للذهاب إلى الآخرة ، ولا أستطيع أن أفعل ما يتعارض مع إيماني .

ساد الحزن معسكر الأسرى ، وصدر الحكم بإعدام بديع الزمان ، وفي يوم التنفيذ حضر الجنود بقيادة ضابط لأخذه إلى ساحة الإعدام ، فطلب بديع الزمان أن يمهلوه خمسة عشر دقيقة ليتوضأ ويصلي .. وحينئذ خاطبه القائد العام بقوله :

- كنت أعتقد أنك بفعلك هذا تقصد إهانتي والتحقير من شأني . ولكنني الآن أفهم أنك بتصرفك هذا كنت تؤدي ما تأمرك به عقيدتك. لذا فقد ألغيت قرار المحكمة ، واقدرك لتقواك وورعك ، وأرجو قبول اعتذاري عما بدر منا من مضايقات لك.

مواجهة مع أتاتورك

إن عزة المؤمن تتجلى في هذا الموقف ، وفي مواقف أخرى ، منها موقفه مع أتاتورك حين دعاه للانضمام إلى قادة الاستقلال في أنقرة ، وقد لاحظ بديع الزمان أن معظمهم لا يؤدون الصلاة ، كما أن سلوك أتاتورك وتصرفاته المعادية للإسلام أحزنته كثيرا ، فكان أن أصدر بيانا في١٩/١/١٩٢٣ضمنهنقاطا عديدة أسفرت عن عودة ستين ضابطا إلى دينهم وإقامتهم الصلاة ، وحدثت مواجهة بينه وبين أتاتورك انتهت إلى قوله له :

- "باشا .. باشا " إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة ، وإن الذي لا يصلي خائن ، وحكم الخائن مردود! .

فكر أتاتورك في إبعاد بديع الزمان عن أنقرة بحجة تعيينه واعظا عاما للولايات الشرقية ، وبمرتب مغرٍ، ولكنه رفض الطلب !

وعاش النورسي مطاردًا منفيا ، ولكن أتباعه كانوا يتزايدون ويتحركون في صمت وخفية إلى أن جاء " تورجوت أوزال " الذي خفف قبضة الدولة العلمانية بعض الشيء عن العمل الإسلامي الشعبي ، فنمت حركتهم التي تقوم على نشر رسائل النور ، ومُدارستها في حلقات مع حفظ ما تيسر من القرآن .

ورسائل النور تعتمد في تفسيرها على الإقناع الحي الذي يقوم على الشواهد والأدلة والتمثيل . وتتمتع الرسائل بأسلوب مشرق مليء بالصور المبتكرة التي تتسلل إلى القلب مباشرة ، وقد دارت حولها دراسات كثيرة أجمعت على أهميتها ودورها المؤثر .

في عهد أتاتورك كان طبع الكتب الإسلامية محظرا والكتابة بالحرف العربي العثماني محظورة ، فتغلب طلاب رسائل النور على ذلك بنسخها بخط اليد بالحرف العربي ونشرها في الإقليم . وكان كتابها يسمون النساخ ودارسوها يسمون القراء ، وظل الأمر كذلك حتى سمح بطبع الكتب الإسلامية ، فأقيمت أكبر مطبعة للمصحف الشريف في تركيا ، بل في العالم الإسلامي بمدينة " إسبرطة " التي يقيم بها " سعيد النوري " الذي يقوم على رعاية رسائل النور بعد موت الراعي السابق " أحمد خسرو باشا " خليفة النورسي .

أجري على الله

وسعيد النوري يتجاوز السبعين ، ويتمتع بحيوية ونشاط واضحين ، ولا يقبل الهدايا ، ويعيش متواضعا ، يأكل من عرق يده ، حيث يقوم على مزرعته التي تجاور مطبعة القرآن الكريم بنفسه ، وهو يمثل الزهد في أرقى صوره منطلقا من " رسائل النور " وتفسيرها للقرآن الكريم . إنه يتسق في ذلك مع منهج بديع الزمان وطلاب رسائل النور الذين يقمعون شهوة الأنانية وحب الذات وطلب الدنيا ، انطلاقا من قوله تعالى :" إن أجري إلا على الله" (هود : ٢٩) ،وهو منهج الأنبياء الذين تتملكهم رغبة إصلاح العالم دون مقابل إلا رضا الله سبحانه وتعالى .

إن طلاب " رسائل النور " في تركيا يتلقون تربية روحية وعملية لتصفية نفوسهم من الشوائب والرذائل ، وإقامة الدين ، ومساعدة الآخرين دون انتظار مقابل . ومن نماذجهم المشرقة : عمال مطبعة القرآن الكريم الذين استوعبوا الرسائل ، وثبت حسن

خلقهم وسلوكهم ، وحصّلوا معرفة علمية عالية أهّلتهم للقيام بهذه المهمة الجليلة خير قيام .. إنهم لا يدخلون المطبعة إلا متوضئين ، ويستمرون في عملهم بدأب وهمة ونشاط ، ويقومون على طبع المصحف بدءا من غلافه الكرتون المذهب حتى صفحاته المطبوعة بالخط العربي العثماني ، وخروجه في علبته الأنيقة الجميلة .
لقد شاء الله أن تكون إسبرطة مركزا لليقين الإسلامي ، بعد أن شهدت في التاريخ القديم مهارشات الفلاسفة حول قضايا هامشية أو ترفية لا تفيد أحدا ولا تقنع مخلوقا .

وردة بيضاء

وإسبرطة لا تقل جمالا عن اسطنبول ، فالزهور والورود تحوطها من كل جانب ، وقد أصر بعض المضيفين إهدائي وردة بيضاء كي أذكرها ،وإن كنت لا أنساها بحكم أنها تملك أكبر مطبعة للقرآن الكريم في العالم .
وإسبرطة كانت مجال العمل الرئيسي لأول خليفة لبديع الزمان النورسي، هو أحمد خسرو باشا ،وكان من أغنى أغنياء تركيا ، وقد أنفق أمواله على نشر رسائل النور بوصف ذلك نقلا للحقائق القرآنية إلى أرض الواقع ، كما أراد مؤلف الرسائل ، محتسبا أجره عند ربه .
إن بعض من يدخلون مجال الدعوة الإسلامية يتحولون من فقراء إلى أغنياء . أما أحمد خسرو وتلاميذه ؛ فهم ينفقون ويرضون بعيشة الكفاف، لأنهم واثقون أن الدعوة عطاء وليست أخذا، وأنهم يعمّرون الدنيا من أجل الآخرة ، ودستورهم الدائم هو الاستغناء وعدم طلب شيء الآخر ،فالأجر من الله " اتبعوا من لا يسألكم أجرا .." (يس : ٢١) ، ومن هذا المنطلق فإنهم لا يتفاعلون مع " الميديا " ولا يحبون الظهور في وسائل الإعلام ، لأن ذلك لا يتناسب مع دستور رسائل النور الذي يحبذ " إنكار الذات " من أجل إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح الإنسان أولا ،واعتقادهم الراسخ يكمن في أن من لا يستطيع إصلاح نفسه لا يستطيع إصلاح أحد .ثم إنهم في كل الأحوال يأخذون بالأسباب ، ويتركون النتائج على الله .
ولاشك أن تغيير بنية الإنسان التركي من التغريب إلى الإسلام تأخذ بعدا مهما ، يتمثل في ذلك الاهتمام الكبير لدى طلاب رسائل النور ، والجماعات الإسلامية الأخرى ، بالشعائر الإسلامية والعبادات والسلوك الاجتماعي عبر التضامن والإيثار وخدمة الآخرين .. وقد صليت الجمعة في مسجد السلطان أحمد ، فرأيت جموعا غفيرة ، تحرص على الذهاب إلى الصلاة قبل الخطبة بوقت طويل وتستمع إلى الخطبة بلغة عربية فصحى في مقدمتها ، ثم لغة تركية تتخللها العربية عند قراءة الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في بقيتها .. والمفارقة أن السائحين الأجانب يقفون أمام المسجد يشاهدون شعائر صلاة الجمعة وعلى وجوههم أسئلة صامتة لا تخطئها العين أو الملاحظة السريعة .

الجمال والرقة والشجن

ثم إن الأذان يمثل ملمحا مهما من ملامح الاهتمام المتزايد بالإسلام ، وصوت المؤذن التركي يجمع إلى الجمال الرقة والشجن ، وفيه إخلاص يستشعره القلب والوجدان .. أخبرني بعضهم أن أذان الصلوات الخمس تختلف طبقاته الصوتية أو مقاماته

الموسيقية بحسب كل صلاة . فأذان الفجر تختلف نغماته عن نغمات صلاة الظهر وهكذا .. ويحتشد المؤذن للأذان كأنه يقوم بمهمة استثنائية تاريخية .
لقد صارت إسبرطة مركز نشر القرآن الكريم بالخط العربي العثماني الجميل الذي حيل بينه وبين الأتراك على مدى عشرات السنين ، واستعادة الجمال في الخط والزهور والورود ؛ عنصر أساسي من عناصر البناء الإنساني في إسبرطة واسطنبول وغيرهما من المدن والقرى التركية التي تنعم بغابات طبيعية خضراء ، تظل على خضرتها على مدى العام .

عصر اللالا

قال لي بعض المرافقين إن اسطنبول استعادت عصر اللالا " و" اللالا " هي زهرة التوليب التي استوردها السلطان احمد من أوربة في سياق اهتمامه بالشعر والفنون والآداب ، فصارت مدينة الزهور بامتياز ، شوارعها وحدائقها وشواطئها وهضابها وأوديتها ومبانيها الرسمية ومؤسساتها وبيوتها وقصورها . وقد دعت البلدية المواطنين والتجار إلى تحويل كل مساحة ممكنة إلى أماكن مزروعة بالزهور .. كما تقيم البلدية مسابقة سنوية لأجمل مكان مزهر ،وأجمل زهرة متألقة في اسطنبول .
إن البسفور يشهد عصرا جديدا لمدينة تتجدد ، شكلا ومضمونا ، إنسانا وشجرا وحجرا ، وتلك سمة الشعوب التي تستجيب للنهوض وتسعى إلى الحركة .

اسطنبول لثاني مرة -٢

في رحاب أبي أيوب
احتفال بالسلطان العثماني القادم
وأمتع حوار صحفي

كان الليل يتراجع بقدر سرعة هبوط طائرتنا في مطار أتاتورك الدولي باسطنبول – الآستانة سابقا – استجاب ضوء الشمس سريعا لحالة الاشتياق التي تجتاحني لاكتشاف معالم الحياة في تركيا . تساقطت خيوطه الذهبية لتستقر فوق المآذن الشاهقة الضامرة المشدودة إلى السماء . كانت الأسقف الفخارية الهرمية للبيوت والعمائر تحاول الإمساك بما تبقى من ضوء الشمس . بدت أشجار الغابات في الإعلان عن جمالها . التلال والوديان السبعة حالة جغرافية فريدة كانت تحت قبضة الباب العالي .
تركيا بلد الخلافة العثمانية التي يبدو أنها في طريقها لاستعادة مجدها مرة أخرى . تدافعت صفحات كتب التاريخ أمامي وأنا أقلب شوارع المدينة . كنت أستعد لمراجعة ما احتفظت به ذاكرتي عن هذا المكان ، بينما كان الأتراك مشغولين بمتابعة احتفالاتهم بختان السلطان العثماني الجديد بجوار مسجد أبي أيوب وسط مدينة اسطنبول . قضيت يومي الأول أتجول في الشوارع والطرقات أتأمل الحدائق التي تغطي المدينة ووجوه البشر الطيبين .
التركي إنسان بسيط وهادئ يؤدي واجبه في هدوء وهمة ونشاط ، يعمل من السابعة صباحا حتى الخامسة مساء ، يحظى بساعة واحدة من الثانية عشرة إلى الواحدة ظهرا للراحة وتناول وجبة خفيفة تساعده على الاستمرار في العمل . أيام العمل لديه خمسة في الأسبوع . يحصل على يومي السبت والأحد للراحة مع النمط الأوربي .
هم يشبهوننا في زيادة عدد السكان ، لكنهم لا يحملون علامات المعاناة التي تمتلئ بها وجوه المصريين .

التلال والأودية

الزحام في اسطنبول شديد، والسيارات تفرش الشوارع والطرقات تعلو وتنخفض بحكم وجود التلال السبعة والأودية فيما بينها . ولكن حركة المرور تسير طبيعية حتى في ساعات الذروة قبل السابعة صباحا وبعد الخامسة مساء – موعد بدء العمل ونهايته .
في صباح اليوم الأول ذهبنا إلى ميدان أبي أيوب الأنصاري أو " أيوب سلطان " كما يسمى هناك ؛ حيث مسجده الأشهر والأقدم ، وضريحه الذي يرتبط به العثمانيون منذ فتح القسطنطينية حتى اليوم .. ومقابر لعشرات من السلاطين والأمراء وأفراد الأسر الحاكمة تظللها الأشجار العريقة التي يبلغ حجم جذعها أحيانا دائرة قطرها أربعة أو خمسة أمتار .

يتردد على المسجد يوميا آلاف الطلاب والطالبات من مدارس الأئمة والخطباء وتحفيظ القرآن ، فضلا عن السياح والزوار والمصلين ،ومنطقة المسجد مليئة بالمباني الأثرية وأماكن الوقف التي ترعى اليتامى والفقراء ، بالإضافة إلى المحلات الصغيرة التي تبيع الهدايا التذكارية والملابس والكتب الدينية .

ارتباط حميم

يرتبط الأتراك بمسجد أبي أيوب ارتباطا حميما لأسباب تاريخية .. فأبو أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – هو الصحابي الجليل الذي بركت الناقة القصواء على باب بيته حين وصل الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة مهاجرا من مكة المكرمة ، وكان ذلك دليلا على أن ضيافة النبي الكريم – عليه الصلاة والسلام – ستكون في بيت أبي أيوب . ومن هنا اكتسب أبو أيوب امتيازا تاريخيا انفرد به ، وتكريما إلهيا بسبب هذه الضيافة التي لم يتشرف بها أحد غيره .

وقد عاش أبو أيوب عصر الخلافة الراشدة (أبي بكر – عمر – عثمان – علي) وامتد به الأجل حتى الدولة الأموية حيث لقي ربه شهيدا على أسوار القسطنطينية .

كانت أولى محاولات الفتح للقسطنطينية في عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه – وقد أصرّ أبو أيوب على المشاركة في الفتح ، ولكن يزيد بن معاوية وكان قائد الجيش حاول أن يثنيه عن الخروج إلى القتال . فقد تجاوزت سنه الثمانين ، وقال له يزيد :

- نحن نكفيك يا عماه .

ولكن أبا أيوب أصر على الخروج ، وأوصى يزيد أن يدفن على أسوار القسطنطينة إذا مات أو استشهد قبل الفتح .

خرج أبو أيوب مع الجيش الإسلامي الذي امتنعت عليه المدينة ، وكان أجله قد حان ، فنفذ المجاهدون وصيته ، ودفن على الأسوار .

الفاتح الحقيقي

بعد ثمانمائة عام جاء من قلب آسيا محمد الفاتح واستطاع في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (٢٩ مايو ١٤٥٣م) أن يفتح المدينة العصيّة ، وأن تتجلى العبقرية العسكرية لمحمد الفاتح في التغلب على العقبات التي حالت في الماضي دون الفتح ..

وبعد سيطرته على المدينة فاجأ من معه بالقول إن الفاتح الحقيقي هو أبو أيوب الأنصاري . ونقل رفاته إلى قلب المدينة ، وبنى له ضريحا فخما وأقام بجواره مسجدا جميلا . ومن يومها ومسجد أبي أيوب قبلة العثمانيين القدامى والأتراك المعاصرين . ففي هذا المسجد كان يتم تتويج الخلفاء والسلاطين من آل عثمان ،وتخرج منه مواكبهم المهيبة إلى قصر الحكم .

يعتز الأتراك بالصحابي الجليل الذي استضاف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحبه حتى لقاء الرفيق الأعلى . وما زالوا حتى اليوم يبدءون مواكب الأعراس من هناك بعد قراءة الفاتحة . ثم إن مراسم الختان للأطفال تبدأ من هناك أيضا . يرتدي الطفل زيا سلطانيا ، ويضع على رأسه العمامة العثمانية وبيده الصولجان وعلى صدره الوشاح الأبيض، ويذهب الأهل بطفلهم إلى المسجد لزيارة أبي أيوب ، ثم ينتقلون إلى المنزل لإجراء الختان .

الحفيد الذي حلمت به

استوقفني منظر أحدهم فرحت به فرحا غامرا . تمنيته الحفيد الذي أحلم برؤيته قبل رحيلي إلى الدار الآخرة . طلبت من مرافقي أن ألتقط صورة معه . رحبت الأسرة ترحيبا كبيرا . سلمت عليه وقبلت يده وسلمت على والده، ووقفت معه لألتقط الصورة وكانت أمه وجدته وخالاته يشاهدون اللقطة وهم في غاية البهجة والغبطة .

هيمنت صورة الطفل وكان اسمه الأول محمد - نسيت بقيته – على كياني وتفكيري . كانت البراءة التي تكسو محياه ، وعيناه البريئتان تفيضان إنسانية وتشعان مودة وحبا وبراءة .

لقد خلع قلبي معه هو ينضم إلى أسرته في طريقهم إلى البيت بعد أن عرفت من أبيه أن موعد الختان بعد أسبوع .

إن السلطان العثماني القادم سيكون أكثر نضجا ووعيا وتقدما ، لأنه سيستعيد الإسلام كاملا ، وسيعمل بكل جهده للبناء الحضاري المتكامل .

شوربة العدس

تناولنا الإفطار في حي أيوب سلطان أو أبي أيوب . صعدنا على سلم خشبي إلى المطعم الذي يبدو الخشب مكونا لجدرانه وأرضه وسقفه أيضا ، باستثناء الهرم الفخاري الذي يعلو المطعم ويواجه الأمطار .

لاحظت أن شوربة العدس طبق أساسي في الوجبات الثلاث . يبدأ الطعام بتناول " شوربة العدس " هل لذلك علاقة بالعدس الأباظي الذي اشتهرت به العائلة الأباظية في مصر ؟ " تأتي بعدها السَّلَطة المكونة من الخضراوات الممزوجة بزيت الزيتون . ويبدو أن زيت الزيتون هو الدسم الوحيد المعتمد في المأكولات والمطبوخات التركية ، وبعد ذلك تأتي الأطباق الأخرى .

بحثت عن الفول والطعمية أو الفلافل لم أجد لهما أثرا . عرفت أن القوم هناك لا علاقة لهم بهما . ضحك صديق تركي عاش في مصر فترة طويلة حتى أصبح مصري الروح واللغة حين سألت عن الفول والطعمية ، وظل يذكرني بهما عند كل طعام ، ويقول في الزيارة القادمة سيجهزون الفول والطعمية .

في ختام الوجبة الصباحية يأتي الشاي بعد العصائر والمثلجات ، وأكوابه نمط واحد تقريبا في المطاعم جميعا ، مهما اختلف مستواها أو طبيعتها .

هناك تستطيع أن تأكل كل اللحوم وأنت مطمئن ، فلا توجد لحوم خنزير أو لحوم محرمة . ولا تقدم مشروبات كحولية إلا في الفنادق ومطاعم مخصصة ، شرط أن يطلبها الزبون ، ولكن الإيقاع العام الراهن هو " الذبح على الطريقة الإسلامية " ، وهم ينادون العرب دائما " يا حجي " أي يا حاج ، تعبير عن الانتماء الروحي والأخوة الإسلامية .

السوق المصري

أدهشني أن أرى في اسطنبول سوقا تجاريا يطلقون عليه " السوق المصري " . إلى هذا الحد كانت مصر مؤثرة ؟؟ ترى ما الذي أصابها في أيامنا ؟

السوق المصري فيه كل البضائع والمنتجات التركية المحلية والشعبية . لا توجد فيه الآن بضائع مصرية . هناك كل أنواع المأكولات والمكسرات والأسماك واللحوم

والحلويات والأجبان والهدايا. وهناك أيضا نفق قريب يفترشونه أرضا لبيع الملبوسات والأدوات الكهربية والمنزلية وغيرها ، بالإضافة إلى مطاعم ومقاه شعبية ينادي أصحابها عليك ويعرضون أسعارهم الرخيصة " يا حجي " تعال عندنا ولن نكلفك كثيرا . هذا مضمون النداء وإن لم يكن صريحا .

بيد أن الأسعار هناك نار بالنسبة لنا نحن المصريين . الليرة التركية الجديدة تساوي دولارا أميركيا تقريبا (انخفضت الآن بنسبة ليست قليلة) .. تشجع أردوغان قبل سنوات وحذف ستة أصفار من يمين قيمة الليرة التركية . كانت المائة دولار تساوي مليونا وربع مليون ليرة ، وبعد الحذف صارت المائة دولار تساوي مائة ليرة وكسورا بسيطة . اعتدل الميزان ، وصارت الليرة الوحدة الأساسية في المعاملات على أساس جديد ، ولم يعد الناس بحاجة إلى ذكر الدولار .

أغلى مدينة

ولأن اسطنبول تعد من أغلى المدن في العالم ، فإن المرتبات هناك أعلى مرتبات في العالم أيضا . ولا يجد الأتراك غضاضة في تقبل هذا الوضع الذي يجعل الشطيرة أو الساندويتش يتراوح بين دولارين وخمسة دولات أو الوجبة تتكلف في المتوسط ثلاثين دولارا ؛ إذا حسبناها بالجنيه المصري فلن نتقبل الأمر ، اللهم إلا إذا كنا من المليونيرات الذين لا يتعبون في الحصول على الفلوس أو المال ، أما إذا وضعنا في الحسبان نمط الحياة هناك ، فإن الأمر يبدو طبيعيا للغاية .

قالت لي أم محمد (حرمن المصون) : أحملك أمانة ، أن تشتري لي مسبحة من أمام مسجد أبي أيوب ، وتصلي بها وتدعو هناك ، ولأني أحمل الأمانة وأحافظ عليها ، فقد وقفت أمام البائع لأجد الأسعار تبدأ من ليرتين إلى ما لانهاية .. الليرتان تساويان دولارين أي عشرة جنيهات ونصف (عام ٢٠٠٨ ، الآن في أوائل عام ٢٠١٦ تساويان سبعة عشر جنيها ونصف جنيه !) .وذلك ثمن مسبحة تباع بخمسين قرشا أو جنيها أو جنيهين أمام السيدة زينب أو سيدنا الحسين .

رضخت للأمر ، وأحضرت مسبحتين وليس مسبحة واحدة ، فذلك أهون وخير من أشياء أخرى !

تاريخ حيّ وجغرافية حية أيضا

كان من أبرز الزيارات للأماكن المهمة في اسطنبول ، متحف أو معرض " المجسمات " وهذا المعرض يقع على مساحة ضخمة ، ويقدم نماذج مجسمة لمعالم المدينة التاريخية والحديثة . المساجد والكنائس والأحياء والمؤسسات والسكة الحديد والجسور والبسفور والحدائق والقصور السلطانية والمتاحف . إنه تاريخ حي وجغرافية حية أيضا .

كل نموذج له قصة ، وكل أثر له تاريخ ، وهو تعريف عملي بالمدينة ومحتوياتها وتاريخها وجغرافيتها جميعا . لذا تحرص المدارس في التعليم الأساسي : الابتدائي والمتوسط ، على زيارتها من خلال ترتيب مسبق محدد باليوم والساعة ، حيث تتوافد المدارس في مدينة يبلغ سكانها عشرين مليونا على هذ المعرض بصورة منتظمة وبأعداد غفيرة . ويوفر لهم المعرض أماكن للترفيه والتسلية.

هناك الملاعب والأراجيح وقد رأيت شطرنجا كبيرا يلعب به الأولاد حيث ينقلون البيادق الضخمة ، وهم يحملونها من مربع إلى آخر بغرض استنفاد طاقتهم أو تفريغها في الحمل والنقل ، وفي الوقت نفسه يتنافسون على الكسب والانتصار .
أما الملاعب فهي مغطاة بشباك خضراء كي لا تخرج الكرة من الملعب إلى أماكن أخرى ، وتظل في متناول الأطفال .

أمتع حوار صحفي

ومن الطرائف التي لا أنساها أن طلاب فصل في المرحلة الابتدائية وقفوا مع مدرستهم يجرون معنا حوارا شفويا ، ولكنه كان أمتع حوار صحفي . الطلاب في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي . كان من بينهم طفلة ذكية نشيطة ، راحت تسألني عن اسمي وعمري وبلدي . ثم استطردت للسؤال عن أهم الآثار في مصر وعدد السكان وأسئلة أخرى ، وكان زميلي أستاذ اللغة التركية في عين شمس الدكتور الصفصافي أحمد المرسي **(رحمه الله ، توفي في منتصف العام الماضي ٢٠١٥)** يقوم بالترجمة .
لقد ضحكوا كثيرا عندما قلت لهم إنني (يومئذ) في الثالثة والستين ، وقال لهم الزميل العزيز مازحا : وأنا عمري خمسة وثلاثون ، فقالت المدرسة : وعمري خمسة وعشرون ، وعلا الضحك ، فقد عرف الأطفال أن هذا مزاح بريء ..
لقد ذكرت لهم عمري الحقيقي أما الدكتور الصفصافي فشعره الأبيض يدل على أنه في السبعين وشكل المدرّسة يوحي أنها في الأربعين أو أكثر ...
عرفت أسماء الأولاد الذين كانوا يتسابقون لذكرها ، ولكن أهم ما لفتني هو ذلك الألق المشع والبهجة الغامرة التي تكسو ملامحهم . إنهم يشعرون بطفولتهم حقا ، على العكس من أطفال آخرين في بلاد عربية يعيشون الاكتئاب في هيئتهم ، والحزن يغطي وجوههم حتى لو بدا بعضهم شرسا أو مشاغبا .. فحياتهم وحياة أسرهم كفيلة بأن تنقلهم إلى الشيخوخة وهم يحبون على أربع .. ولله في خلقه شئون !

أغادير مدينة متجددة

الضيافة والكرم على شاطئ المحيط

حين يأتي الشتاء من كل عام أشعر بعدم الإرتياح الذي يصل إلى ذروة التوتر و القلق . ظروفي الصحية تجعلني لا أتوافق مع هذا الفصل وإن كان غيري ممن أعرف يحبونه ، و يرونه أجمل من الصيف ، و يضعون لذلك تفسيرات عديدة أهمها : أنه يخلو من العرق الذي يتصبب على الوجوه صيفاً ، ومن الشمس الحارقة التي تلهب الرءوس ، ومن الحشرات المزعجة وعلى رأسها : الذباب و البعوض وفي الشتاء أيضاً ، لا أستريح للسفر أو الارتحال سواء داخل الوطن أو خارجه ، فالبرد يمثل بالنسبة لي حاجزًا صلدًا يصدني عن التفاعل أو الرغبة في المشاركة في أي نشاط يرتبط بالحركة والخروج عن دائرة البيت أو مقر العمل الوظيفي .
بيد أن بدايات عام ٢٠٠٠ م يساوي ١٤٢٢ هـ ، حملت إليّ مفاجأة لأتحرك في الشتاء وأواجه رحلة لم تكن متوقعة و هي السفر إلى المغرب الشقيق لحضور مؤتمر للأدب الإسلامي ، ينعقد في مدينة أغادير الساحلية ، حيث يتم تكريم أحد أعلام هذه المدينة ، وهو محمد المختار السوسي و التعريف به من خلال بحوث المؤتمر وضيوفه .

حب قديم

حبي للمغرب ، أو مراكش كما كانت تسمى قديماً يبدأ منذ الطفولة فقد كانت قريتي محطًا لبعض الحجاج المغاربة الذين يأتون عبر ساحل الشمال الإفريقي سيراً على الأقدام أو راكبين لوسائل مواصلات بدائية تستغرق شهورًا في الذهاب و الإياب وتجعل عددًا منهم يفضلون الإقامة في بعض القرى أو المدن المصرية ، و يرتبطون بأهلها و ناسها ، و قد يتزوج بعضهم و يستوطن في مصر حتى ينتهي أجله ، أما من يسافر بعد قضاء فترات طويلة أو قصيرة فإنه يظل في الغالب على صله بمن عرفهم و صادقهم عبر البريد أو من خلال الحجاج الذين يأتون إلى مصر قاصدين الحجاز والأماكن المقدسة في الأعوام التالية .
كنت صغيرًا أصغي إلى هؤلاء الحجاج وأستمتع بحكاياتهم ولهجتهم التي كان الكبار يتطوعون بتفسير ما غمض منها أو صعب فهمه .

فوق السحاب

عندما تلقيت الدعوة للسفر ، تناسيت ما يفرضه الشتاء و ما توجبه علاقتي بالبرد التي تقوم على ودّ مفقود وتوكلت على الله ، وركبت الطائرة التي رقت فوق سحاب الشمال الإفريقي ، واستغرقت ما يقرب من ست ساعات منذ دارت محركاتها في مطار القاهرة الدولي حتى هبطت في مطار الملك محمد الخامس بالدار البيضاء (يسمونها غالباَ كازابلانكا) الفارق في التوقيت ثلاث ساعات فإذا كانت الساعة هي الثامنة صباحاً في القاهرة فهي الخامسة صباحًا في الدار البيضاء و المسافة بين الدار البيضاء وأغادير حوالي ٥٠٠ كم ، وتقطعها الطائرة في نحو ٤٥ دقيقة ومطارها

يسمى مطار المسيرة نسبة إلى المسيرة الخضراء التي قادها الملك الراحل الحسن الثاني إعلانا لتحرير الساقية الحمراء وضمها للوطن الأم المغرب .

لحظات جميلة

و المغاربة يتمسكون بالأصالة العربية والإسلامية مع أن الغزو الاستعماري ترك آثارًا واضحةً في أكثر من مجال وما زالت الأسر العريقة تحتفظ بالتقاليد القديمة التي واكبت الفتح الإسلامي داخل البيوت والمجتمعات الريفية حتى الآن ، وقد أتيح لي وللضيوف المشاركين في المؤتمر أن يعيشوا مع هذه التقاليد ويستمتعوا بلحظات جميلة ذات عبق تاريخي وبعد إنساني عميق .

قضينا أول يوم في ضيافة أسرة عريقة كبيرة بأغادير حضر رئيس المجلس العلمي للمدينة وهو تابع لوزارة الاوقاف ويشبه مجلس كبار العلماء في الشئون الدينية ، كما حضر عدد أخر من أساتذة الجامعة الرئيسية بالمدينة وهي جامعة ابن زهر التي تضم عددًا من الكليات وتمضي على النمط الجامعي الفرنسي بالإضافة إلى عدد آخر من أساتذة جامعة القرويين يعملون في فرع الجامعة بالمدينة (الجامعة الأم تقع في مدينة مراكش) و جامعة القرويين تشبه جامعة الأزهر في مصر .

معدة الكاتب

حفل الغداء بصنوف كثيرة من الطعام وتقدم على خمس مراحل ، ويحتاج الغداء أو الطعام هنا إلى معدة جيدة سريعة الهضم والاستيعاب وبالطبع فإن معدة الكاتب ليست صالحة لهذا الطعام بصورته المعتادة ، لأنها أضعف أن تستقبل مرحلة واحدة من مراحله الخمس.

في المرحلة الأولى من الغداء وضعت (البسطيلة) ، و هي اسم أندلسي أو أسباني وتشبه القلاش أو الرقاق المحشو بالدجاج والتوابل والمكسرات في فطيرة ضخمة ينبعج منها نصف كرة تضم لحم الدجاج المنزوع العظام في أكثر من موضع بالفطيرة .

والمرحلة الثانية من الغداء تضم خبزا مع أطباق صغيرة متنوعة ، تضم الخضار والكبد و البنجر و السلاطة .

و تأتي المرحلة الثالثة وهي عبارة عن خروف مشوي فوقه عيدان محملة بقطع الكباب وفقًا لعدد الجالسين حول المائدة .

في المرحلة الرابعة يقدم الطبق الشعبي الشهير في المغرب وهو الكسكسي الذي يعلو صينية واسعة ويرتفع فوقها كالهرم الذي تغطيه قطع اللحم و الخضار المسلوق .

و في المرحلة الخامسة و الختامية يقدم الدجاج و الحمام المسلوق .

بعد أن ترفع أطباق الطعام يأتي دور الفاكهة و هي فاكهة كثيرة ومتنوعة أحصيت منها عشرة أنواع هناك ما تعرفت عليه مثل التفاح والموز والفراولة واليوسفي وهناك ما لم أتعرف عليه و تختص المغرب بزراعته وإنتاجه .

إضاءة من كل الجهات

وفي مثل هذه المناسبات العلمية والثقافية ينتقل الضيوف إلى غرفة الاستقبال الضخمة وهي مصممة على النمط الأوربي الذي يحرص أن تكون مضاءة إلى أقصى حد ولذا كانت مساحة الزجاج كبيرة بحيث شملت معظم الجدران القائمة على

حافة الحديقة ، مما يعطي جوًا مبهجاً خاصة إذا كانت الأغصان والزهور بألوان شتى هي ما تقع عليه عين الجالس في غرفة الاستقبال الضخمة .
و كانت مناسبة جيدة للحوار الفكري الذي يثبت أن هموم المغرب هي هموم المشرق وإن اختلفت بعض التفاصيل ، بدا ذلك في المناقشات الثقافية أو القصائد الشعرية التي ألقاها بعض الشعراء الحاضرين .
في غرفة الاستقبال يوزع الشاي الأخضر و القهوة و المكسرات (اللوز و الجوز والفول السوداني أو الفول السوداني المقشور والحلويات في أصناف متعددة و كثيرة) .
فاتني أن أذكر أن أهل البيت عندما يستقبلون الضيوف يقدمون لهم بمجرد أن يستقروا جالسين التمر واللبن تأسيًا بسنه إسلامية ترى في التمر واللبن غذاءً متكاملاً و تقليدًا حسنًا ، وقد لاحظت أن التمر كان كبير الحجم محشوًا بالمكسرات وكان طعمه جميلاً للغاية .

قرية الكهربائي

و من هذا العالم المفعم بالتقاليد العريقة الراسخة ، ورائحة الماضي الذي كان جميلاً في بعض مراحلة انتقلنا إلى عالم آخر يكاد يكون مناقضًا . إنه مقر إقامتنا في فترة المؤتمر وهو فندق ملحق بقرية سياحية ، أنشأتها شركة الكهرباء ، كما أنشأت مثيلات لها في مدن مغربية أخرى و تسمى قرية الكهربائي و تكاد تمثل حيًا مستقلاً بمدينة أغادير ، وكان واضحاً أن القرية مخصصة لأغراض أخرى و خاصة في الصيف ولكنها في الشتاء يفيدون منها لخدمة السائحين والمؤتمرات والندوات حيث تقدم خدماتها بأسعار أقل نسبياً من الفنادق الكبرى بالمدينة فضلاً عن تميزها باستيعاب أعداد كبيرة فوق طاقة فنادق أغادير وبها خدمات الاتصال والمطعم والمقهى والمسبح وصالون (الحلاقة) وغير ذلك .
القرية مصممة على الطراز الأوروبي وهي من طبقة واحدة غالباً ، وهناك أحيانًا طبقتان ومع طغيان الهندسة الحديثة على البناء فهناك بعض اللمسات الزخرفية العربية ، و تحمل الجدران بعض اللوحات المعاصرة .
و مع أن الإقامة مريحة بصفة عامة ، فلم نجد عناصر ضرورية لأمثالنا ، مثل الأوراق والأقلام و المظاريف كما لم نجد إشارات دالة على القبلة عند الصلاة ، ويقع المسجد (و هو صغير للغاية) في مكان بعيد نسبياً عن السكن أما الطعام الذي يقدم للنزلاء فهو على النمط الفرنسي . سألت عن الفول المدمس في الإفطار ، فضحك النادل وأخبرني زميلي المغربي أن كل شيء هنا نسخة أخرى من فرنسا ! وعلينا أن نتواءم مع الظروف المستجدة بقدر الإمكان ، و لأنهم – أي المغاربة – يقدمون الشاي الأخضر في كل مكان : الفندق ، المطعم ، المقهى ، المنزل ، كانت مشكلتي هي البحث عن الشاي الأحمر أو اللبتون كما استطعت أن أوضح للقوم فيما بعد .

مدينة جديدة

تكتب أغادير بالكاف المنقوطة بثلاث نقاط بدلاً من الغين ، كما نكتبها في المشرق فتكون هكذا (أڭادير) و قد تعرضت لزلزال مدمر في أوائل الستينات من القرن الماضي ، كان له صدى كبير في أرجاء العالم و خاصة العالم العربي والدول

الإسلامية . لقد قضى على المدينة و لم ينج من أهلها إلا عدد قليل وقد تم بناء مدينة جديدة في سفوح جبل أطلس . كانت المدينة القديمة التي أطاح بها الزلزال فوق الجبل ، و لكنهم اختاروا هذه المرة السفوح ليصنعوا مدينة سياحية من الطراز الأول وهي بالفعل المدينة السياحية الأولى في المغرب ، ويبدو أن تخطيطها عند بنائها لم يضع في الحسبان هذا الإقبال الضخم الحالي من جانب السائحين و الزوار الأجانب ومعظمهم من الفرنسيين لزيارتها والإقامة السياحية فيها . فالطرق ضيقة نوعًا ما ولكنها بالقياس إلى القاهرة مثلاً تعد معقولة . الأحياء الأساسية تكتظ بالأجانب ، وبها فروع للمحلات التجارية الكبرى المشهورة في فرنسا وعلى مستوى العالم مثل كريستيان ديور ولكن أسعارها مرتفعة للغاية بالنسبة لأمثالنا من ضيوف المؤتمر أو الطبقة الوسطى على الأقل . جاكت رجالي عادي ثمنه ٤٠٠ دولار ، حذاء جلدي متوسط النوع يبلغ ثمنه ١٧٠٠ درهم (نحو ١٧٠ دولار) ، حقيبة سفر متوسطة الحجم والمستوى ثمنها ٦٠٠ درهم (أي ٦٠ دولار تقريبًا) وهو ما جعلني لا أستطيع الشراء من هذه الأحياء ، حتى الصحف لم أستطع شراءها ، معظمها قادم من فرنسا وأرخص مجلة مصورة ثمنها ثلاثة دولارات و مع ذلك فمعظم قرّائها من الشبان المغاربة المفتونين بفرنسا و معطياتها الإنتاجية و الثقافية .

قيل لي : إن هناك سوقاً شعبياً أسعاره معقولة أو تنخفض فيه الأسعار عن مثيلتها في الأحياء الرئيسية يسمى سوق الأحد وهو يعمل طوال أيام الأسبوع عدا يوم الاثنين الذي يعد إجازة السوق أو يوم إغلاقه وفي هذا السوق يوجد كل شيء بدءًا من البقالة حتى المنسوجات .

المكان المرتفع

سألنا عن معنى أغادير (اسم المدينة) ، فقد تعددت التخمينات والإجابات ومنها أن الاسم محرف عن كلمة الغدير أو ما يشبهها ، ولكن القوم فسّروا المسألة تفسيرًا بسيطاً وسريعًا حين قالوا إن الكلمة أمازيغية وهي اللهجة المحلية و معناها المكان المرتفع وقد كانت أغادير مبنية على ربوة مرتفعة قبل أن يهدمها الزلزال كما سبقت الإشارة ومن معاني الكلمة أيضا الحصن أو القلعة .

و المدينة بصفة عامة نظيفة ، وملأي بالمقاهي والمحلات والمؤسسات ومبانيها غير مرتفعة في مجموعها لا تتجاوز طبقة أو طبقتين ، ويغلب عليها اللون الأبيض .

في أغادير مسجد اسمه مسجد لبنان وهو تحفة فنية رائعة سماه الملك الراحل الحسن الثاني باسم لبنان لأنه بني في المدن الأخرى مساجد تحمل أسماء الدول العربية والإسلامية فهناك مسجد مصر ومسجد سوريا و مسجد السودان .. إلخ ، و في لوحة الأساس ، أشار الملك أن ذلك تعزيز للروابط والأخوة الإسلامية بين الشعوب العربية والإسلامية ، زخرفة المسجد جميلة ورائعة تعتمد عن الزخرفة النباتية في الخشب والحوائط ، وقد لاحظت أن المساجد مفروشة بالحصير و السجاد فيها قليل ولعل ذلك يرجع إلى اعتناق السكان المذهب المالكي الذي يكره السجود على السجاد و الوبر لأنه يُعد من قبيل عدم الخشوع أو يدل على عدم التواضع في حضرة الله .

المسجد الجامع

بيد أن المسجد الجامع الذي أقيم في الدار البيضاء على شاطئ المحيط يمثل آية وحده في المساحة و البناء والزخرفة والفرش ويكاد يكون أهم مسجد في المغرب كلها وقد صليت فيه الجمعة ضمن عشرات الألوف الذين يزحفون إليه من كل مكان في الدار البيضاء ومن خارجها ، ويستطيع المصلون أن يروا أمواج البحر عبر البوابات الزجاجية الكبيرة ، كما يمكنهم رؤية ماء المحيط تحت أرضية المسجد تفصلها طبقة زجاجية في صحنه ، وبوابات المسجد ومصاعده تعمل آلياً بالكهرباء وبالطبع فإن هذا المسجد محط مهم ومعلم رئيس للسائحين والزوار الذين يضعون أقدامهم على أرض المغرب الشقيق .

أم حمزة تدير الحوار

في أثناء جلسات المؤتمر جاء إليّ من يدعوني إلى إلقاء محاضرة في بلدة قريبة من أغادير . وكان عليّ بعد الإلحاح أن أتجاوز ظروفي الصحية وألبّى الدعوة وأذهب إلى قرية الدوشيرة على مسيرة نصف ساعة تقريباً ، وفي مبنى جمعية المحافظة على القرآن الكريم تحدثت عن قضايا الإسلام والعصر واستمعت إلى مداخلات الحضور وأسئلتهم واستنتجت من اللقاء مدى اهتمام الأشقاء المغاربة بما يحدث في المشرق العربي ، ومتابعتهم لما يجري فيه وقراءتهم الدءوب لما يصدر عنه من ثقافة وفكر وكان حضور المرأة ملحوظاً ، فقد قدمتني أم حمزة إلى الحاضرين تقديماً جادًا و جيدًا وأدارت الحوار باقتدار وكان هناك في جانب من القاعة عدد كبير من الفتيات و السيدات في مظهر إسلامي محترم ورغبة قوية في المعرفة والثقافة والنشاط والمشاركة .

مشاعر حميمة

إن مشاعر الأشقاء المغاربة مرهفة وحانية وصادقة وغامرة ، ومثلما غمروني بالمودة والترحيب في الدوشيرة فعلوا الشيء نفسه في بلدة (تزنيت) التي تمتد جنوب أغادير نحو مائه كيلومتراً وهي مدينة صغيرة ومعظم أراضيها بور بسبب قلة المياه ، ولذا يعمل أهلها بالتجارة أو بعض الصناعات الخفيفة ، لقد ذهبت إليها أكثر إرهاقاً و معاناة ولكن المشاعر الحميمة التي غمرني بها الجمهور الغفير الذي جاء إلى المحاضرة التي دُعيت إليها بإلحاح وإصرار بعثت في نفسي الحيوية والنشاط .
لقد تحدث عن التحديات المعاصرة التي يقابلها المسلمون ولاحظت حضوراً متميزاً للنساء كما كان متميزًا في الدوشيرة . كانت المناقشات في مجملها طيبة ، وإن كان بعض العلمانيين قد حاول استفزازي ، فرددت بهدوء ردودًا مفحمة .
ما زلت أحتفظ بهدية أهل تزنيت الرمزية التي كرموني بها و هي عبارة عن (سيف معدني صغير) ، وأضافوا إلى هذه الهدية إصرارًا على التقاط الصور التذكارية حتى الأطفال الذين جاءوا مع آبائهم و أمهاتهم أصروا على التقاط الصور أيضاً .

أمسية شعرية

في ختام أعمال المؤتمر محمد المختار السوسي دعينا إلى أمسية شعرية ، فذهب أعضاء المؤتمر وضيوفه إلى قاعة البلدية في أغادير وهي قاعة ضخمة فسيحة وتنافس شعراء المؤتمر : مغاربة وعرباً و مسلمين في إلقاء قصائدهم ، وكان

للانتفاضة الفلسطينية نصيبٌ كبيرٌ من الشعر ، وحظيت قصيدة حاصروني للشاعر حسن الأمراني باهتمام كبير حيث أنشدها فنان مغربي موهوب .
وشهد نادي الفروسية أكثر من عشاء دسم يتكون من الحريرة و الدجاج و السفّة (تشبه الكسكسي بالسكر) مع اللبن ثم الفاكهة ، وبالطبع لم أستطع أن أتناول منه إلا قليلاً وركزت على طلب الشاي الأحمر أو الليبتون لأنهم يقدمون الشاي الأخضر عادة كما سبقت الإشارة .
في الفجر التالي لآخر ليالي المؤتمر كنا على متن الطائرة في طريقنا إلى الدار البيضاء وصلنا في السابعة و النصف صباحًا كان الجو ممطراً ولكنه كان لطيفًا ونزلنا فندق الدار البيضاء لقضاء يوم نغادر بعده إلى القاهرة .

اللون الأبيض

الدار البيضاء مدينة حديثة قيل إن الإسبان أيام القرصنة البحرية وفي أثناء غزوهم للثغور البحرية قاموا بإنشاء الدار البيضاء على شاطئ المحيط الأطلسي ، و مبانيها تشبه مباني أغادير ، لا تتعدي طبقتين أو ثلاثاً باستثناء الفنادق و المؤسسات التجارية و نحوها و هي تبعد عن المطار بنحو عشرين كيلو متراً ، و إن كانت تمتد نحوه وتتوسع ، وشوارعها الرئيسية عريضة نوعًا ما ، وتكثر فيها الشوارع والحواري الضيقة التي يسمونها هناك (زنقات) ويلاحظ أن اللون الأبيض يغلب على المباني في المدينة .
بيد أن الملاحظة العامة في أغادير وتزنيت والدوشيرة والدار البيضاء تكمن في الاهتمام الواضح بالناحية الجمالية فهناك تشجير للشوارع و المنازل و الفيلات والأرصفة . أينما وليت وجهك وجدت اللون الأخضر يناغيك في حديقة واسعة أو حوض صغير فضلاً عن أن المدن كلها تحوطها رقعة خضراء ممتدة ، و تزداد اخضرارا مع نزول المطر و فصل الشتاء .. حيث تبدو الزراعة الشاغل الأساسي للناس ، ومع الخضرة فإن النظافة قاسم مشترك يطبع المكان في المغرب العربي .

التواصل والتقارب

لم أتكلم عن المؤتمر و أعماله و أبحاثه و مناقشاته فقد أشرت إليها في مناسبات أخرى ، ولكني أردت فقط أن أرصد بعض الملامح التي شاهدتها في زيارة أهلنا في المغرب الشقيق ، ولعل هذه الملامح تثير فينا رغبة العمل الجاد للتواصل والتقارب بصورة عملية و أكثر كثافة .
لقد كان الحجاج المغاربة يحطون في مصر قديمًا عندما كانت وسائل المواصلات محدودة و مرهقة ، أما اليوم بعد تقدم وسائل المواصلات فقد صار الأشقاء يحطون مباشرة في أرض الحرمين ثم يقلعون دون أن يمروا على أرض الكنانة أو أرض الشمال الإفريقي .. فهل من وسيلة معاصرة تجعل التلاقي أفضل من ذي قبل ؟ لعل الطريق البري المأمول الذي يربط دول شمال إفريقيا يقدم جانبًا أساسياً من الإجابة .

مراكش الحمراء
حمرة الجبال والخضرة في كل مكان !

حين عرفت أن " مراكش " هي المقصد في أواخر أكتوبر ٢٠٠٧ م ، استدعت ذاكرتي أياماً قديمة جميلة .. رأيت فيها اثنين من المغاربة يهبطان قريتنا في شمال الدلتا ، لقد كانا في طريقهما لأداء فريضة الحج ، و بقيا في ضيافة أحد الجيران فترة طويلة عاماً أو أكثر من عام ، وكان رحمه الله خياطاً بلدياً ، حتى رحلا إلى أرض الحجاز تشيعهما دموع الأهالي البسطاء ، و ذكريات الأيام الطيبة التي قضياها بين أهل القرية ..

كان الرجلان من مراكش ، ولا أدري من مراكش الدولة كما كانت تسمى آنئذ ، أو مراكش المدينة الحمراء كما تعرف الآن ؟ .. ولكن مراكش التي ترددت في أسماعنا صغاراً ظل لها سحر غريب وعجيب ... يشدّنا إلى عالم بعيد ومجهول وشائق ... وهو عالم محبوب تمنينا أن ننتقل إليه ، ونتعرف عليه .. بيد أننا - نحن القرويين الصغار – لم نكن نملك إزاء ذلك شيئا ..

في فترات لاحقة كانت الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) تكتب في الأهرام " الملحق الأدبي " مقالات تذكر فيها مراكش . وتتحدث عن عملها في جامعة القرويين ، وعن الأبحاث و المخطوطات التي تحققها هناك ، وتضيف إلى ذلك شيئا من التاريخ القديم والحديث الذي يتعلق بأهل مراكش وكفاحهم و حضارتهم و علاقتهم بالأندلس ..

مراكش في داخلي

رسخت مراكش في ذاكرتي .. و مع أنني زرت المغرب عام ٢٠٠١ م ، قاصداً مدينة أغادير الشهيرة على المحيط الأطلنطي ، فقد كانت مراكش مطروحة في الأحاديث والأبحاث التي عرضت في المؤتمر الذي كنت أحضره يومئذ ، و زاد من شغفي لرؤيتها أن بعض الزملاء تحملوا مشقة السفر ، وذهبوا إليها في الوقت الضيق المخصص لزيارة المغرب .. وعدت أحمل مراكش في داخلي وجدانًا وحلمًا أسعى لرؤيته على أرض الواقع .

و يوم جاءت الدعوة لزيارتها بعد سنوات ، كنت مجهداً أعاني آلامًا مزمنة ، اشتدت في الفترة الأخيرة ، و ظننت أني لن أستجيب و لن أستطيع ، ومع التشجيع ورغبة الأحباب ، قاومت أوجاعي ، وتوكلت على ربي ، وكان القرار بالسفر .

ليلة السفر ، غادرت قريتي في منتصف الليل ، و صحبني بعض أولادي إلى المطار ، وقبيل الفجر كان كل شيء هادئا في الصالة القديمة . بقي على موعد الإقلاع ثلاث ساعات تقريباً وكان علينا أن ننتظر حتى يبدأ العمل في فحص التذاكر ووزن الأمتعة وتحديد الأماكن .

غينيا سيكوتوري

بعد صلاة الفجر و انبلاج النور ، رأيت بعض الزملاء و المعارف ، وفي الطائرة تعرفت على زميل كان في طريقه إلى كوناكري في جمهورية غينيا – وهي غينيا سيكوتوري كما كنا نسميها في الستينيات نسبة إلى رئيسها أحمد سيكوتوري الذي لم

يكن ينقطع عن زيارة القاهرة إلا نادرًا . كان الزميل متوجهًا إلى الدار البيضاء المدينة الرئيسة أو المحطة الرئيسة بالنسبة له ، سيقضي فيها بضع ساعات ليستقل طائرة أخرى إلى كوناكري حيث يمثل مع السفير المصري في غينيا و شيخًا أزهريًا الجالية المصرية هناك !
سألته : ألا يوجد مصريون يعملوا أو يتاجرون أو يقيمون ؟
قال لي : لا .. نحن الثلاثة فقط . و أخبرني أنه يعمل في جامعتين . إحداهما اسمها جامعة جمال عبدالناصر ، و الأخرى اسمها فرنسي (نسيته الآن مع أنه اسم مشهور ، والعتب على الذاكرة الخربة !).

نام الناس

قضينا في الطائرة الضيقة طراز بوينج ٧٣٧ ما يقرب من ست ساعات ، نام فيها الناس كما لم يناموا . أما أنا وزميلي المسافر إلى غينيا فقد جفانا النوم . لا أستطيع النوم في طائرة أو قطار أو سيارة ، أظل يقظاً حتى أعود إلى مقر الإقامة المؤقتة أو الدائمة .. ولكن ثرثرتي مع زميلي التي شرّقت وغربت أضافت إليّ أشياء كثيرة .. أما زميلي المرافق لي إلى مراكش فقد استغرق في نوم عميق متقطع ، وكان يستيقظ بين حين وآخر ، ليشارك معنا في الثرثرة ، ثم يخلد إلى النوم .
كان مطار الدار البيضاء يستقبل مع طائرتنا بعض الرزاز الذي أخذت ترسله السحب الخفيفة ، وكان المحيط بزرقته متعانقًا مع خط السماء في مشهد بديع ، يصنع صباحاً جميلًا مفعمًا بالهواء النقي الطري .. لم أر من (كازابلانكا) أو الدار البيضاء غير مطارها هذه المرة ، والطرق المحيطة به ، والمؤدية إلى مدن مغربية أخرى ، وكانت السيارة التي تنتظرنا تقف على أهبة الاستعداد لتقطع حوالي عشرين ومائتي كيلوا مترًا إلى مراكش الحمراء ..

محطات " الأداء"

الطريق معبد وجديد ، محطات الخدمة على الطريق جاهزة ، لا توجد محطة تدعى أن الكهرباء مقطوعة ، أو أن البنزين ٨٠ غير موجود أو أنها تحولت إلى غسل السيارات فقط . الخدمة جيدة و سهلة و سريعة ، و السيارات تلتزم بحزام الأمان تلقائيًا ؛ السائق ومن يركب إلى جواره لابد أن يرتديا الحزام ، و بوابات الطرق تحصل الرسوم من السيارات المارة في أخر الرحلة . يسمونها محطات " الأداء" ، سألت عن معناها ، قالوا لي : إن الدولة تحصّل تكاليف الطريق و إنشاءاته من مرور السيارات ، و عندما يتم تحصيل مجملها ، ترفع من على الطريق الذي يصير حرًّا ، ولا تدفع عليه أية رسوم بعد ذلك . وقفزت إلى ذهني صور بوابات المرور عندنا على الطرق السريعة ، و أموالها التي ... ؟
ابتلعت الكلام عندما عرفت من محدثي أن الحكومة المغربية ترفع بوابات الطرق بعد تمام تحصيل قيمتها و توردها إلى خزينة الدولة ، و تتركها حرَّة ، يستمتع بها الناس مجاناً بعدئذ ، مع حرصها على صيانتها و نظافتها و تجديد اللافتات الإرشادية كلما حالت بفعل الجوّ و تقلباته .. على العكس مما يجري عندنا ..!

الجد .. والحفيد

كنت أستمتع في الرحلة من الدار البيضاء إلى مراكش ، إلى نشرة الأخبار في الإذاعة ، و كان الاهتمام بأخبار الشرق التعيس في الصدارة إلى جانب أخبار الحكومة الجديدة التي ألفها " علال الفاسي " الحفيد ، فالجد بطل من أبطال الإستقلال ، و مدافع عظيم عن هوية المغرب الإسلامية في مواجهة " الفرنسة " أو " الأسبنة " التي يفرضها باستماتة الغزاة المتوحشون ، ويواجهها بعض المغاربة بمقاومة باسلة . مازالت الفرنسة قائمة حتى اليوم ، و تبدت الأسبنة واضحة في " سبتة " و " مليلة " عند زيارة ملك إسبانيا الاستعمارية ، وتحديه لمشاعر الشعب المغربي المسلم الشقيق !

حمرة الجبال

مساحة الصحراء كبيرة ، وعلى جانبي الطريق ، تظهر القرى و المزارع ، في سهول منبسطة أو في أحضان الجبال العالية ؛ بعضها ينتسب إلى سلسلة جبال أطلس ، والقوم هناك يزرعون الجبال بطريقة المدرجات ، والمحصول الملائم هو " التين الشوكي " الذي لا يحتاج إلى كثير عناء ، ولكنه إنتاج لا بأس به .. فهو لا يحتاج إلى ماء ولا تسميد ولا عناية زراعية كبيرة ، أما الزراعات الأخرى فهي مماثلة لما عندنا في مصر ، والمياه تأتي عن طريق بعض الأنهار أو النهيرات التي تتخلف من الأمطار الغزيرة في فصلي الخريف و الشتاء ، أو من خلال حفر الآبار الارتوازية .. و يبدو أن مراكش الحمراء تكتفي زراعياً بمزارعها ..
وتكتسب مراكش تسميتها بالحمراء من حمرة الجبال المحيطة بها ، و حمرة مبانيها ، فبيوتها حمراء ، و مباني المؤسسات الحكومية والتجارية والفنادق و المحطات كلها حمراء ، ويلاحظ أن الارتفاعات في مباني مراكش الجديدة (الأحياء الحديثة) ، بل والقديمة ، متوسطة ، ولا تزيد في الغالب عن أربعة أدوار ، ولكن شوارعها عريضة للغاية ، وبها جزيرة خضراء ، مزروعة بالنخيل والزيتون و اليوسفي الذي يسمى هنالك بالليمون .. والقوم هناك يمتازون بالحرص على الخضرة والأشجار ، بل إن بعض الأشجار والنخيل تعترض بعض الشوارع الجديدة ، فيتغير المسار من أجل النخلة أو الشجرة مع تسويرها وإحاطتها بمساحة من النجيل الأخضر .. وهناك حديقة ضخمة وواسعة تسمى حديقة النخيل في مدخل مراكش من جهة الدار البيضاء وتلقى عناية ملحوظة ، وقد استنّت الحكومة قانوناً رادعاً لمن يقطع شجرة أو نخلة دون إذن منها ، وتصل العقوبة إلى ثلاث سنوات سجنًا مع غرامة كبيرة ..

حديقة كبيرة

الخضرة ملمح من ملامح مراكش الحمراء ، حدائق في كل مكان وكل مساحة فضاء ، والمنازل في كثير منها حدائق صغيرة ، وأشجار الزيتون تغزو مراكش وتفرض وجودها ، لدرجة أنّه يمكن القول إن مراكش حديقة كبيرة في قلب المغرب الشقيق .
في مبنى كلية اللغة العربية – جامعة القرويين - التي كان ينعقد بها المؤتمر الذي دُعيت لحضوره ، كانت الخضرة تكسو كل مكان داخلها وخارجها ، وحولها حديقة خضراء تعد متنزهًا شعبيًا ، يجلس فيه الباحثون عن البهجة والراحة ، و الحديقة مزوّدة بمقاعد جميلة ، وأشجارها مبسوطة الظلال ، بما فيها أشجار الزيتون العتيقة .

في أم الدنيا قطع الأشجار هواية ، وتجريف الحدائق إدمان ، وتخريب البساتين مرض لا شفاء منه ، وقد تم القضاء على الأشجار المعمرة عندنا (الجميز ، و التوت ، والكافور ، و الصفصاف و غيرها) ، و استوردوا لنا شجرّا يسمى " الفيكس " . قزم في شكله ، بخيل في ظله ، عاطل عن الثمار ! و يا له من شجر يتناسب مع زماننا البلاستيكي المزوّق .. كل شيء فيه غير طبيعي ، و غير معتاد !

تذكار طيب

وصلنا إلى الفندق قرب العصر ، هناك سماحة في التعامل ، وترحيب حقيقي بالنزلاء ، واهتمام غير مزيف ، فالقوم حريصون على ترك تذكار طيب مع الضيف يرتبط بحسن المعاملة في أبسط تعبير .. لا جهامة ولا عبوس ، ولا صلافة مكتومة تشعر النزيل بأن موظفي الفندق يمنحونه من فيض كرمهم وجزيل عطائهم ، و ينبغي أن ينحني لهم ، ويقدم لحضراتهم قرابين الولاء و الطاعة .. أشقاؤنا المغاربة غير ذلك تمامًا ، بل تعاونوا مع النزلاء الذين استعصى عليهم تغيير الجنيه (المصري) بالدرهم المغربي ، و سهلوا لهم رغباتهم . شركات الصرافة هناك لا تتعامل مع الجنيه المصري – عليه واسع الرحمات – هناك بنك رئيسي فقط يتعامل معه في الأوقات الرسمية و هي لا تشمل يومي العطلة (السبت و الأحد وفقًا للنظام الفرنسي) . تشعر بالحسرة حين يتحول الجنيه المصري إلى ضيف غير مرغوب فيه ، أو ضيف ثقيل ، أو ضيف منزوع الهيبة و القيمة و الوقار ! نحن لا نلوم المغاربة حين يرفضون الجنيه المصري ، و لكن نلوم أنفسنا حين أصبحنا " معرّة " الدول اقتصاديًا ، مع أن باشكاتب الدولة لا يكف عن إعلان الارتفاع في نسبة النمو الاقتصادي ، وزيادة الدخل القومي .. وهو كلام يدحضه الواقع و يفنده المتخصصون في الاقتصاد ، مما لا مجال للحديث عنه هنا .

في الفندق يحضر على الجدران والسقوف والأعمدة والنوافذ والأبواب الأرابيسك الطراز الأندلسي . الطراز الموروث يتجاوز الفندق إلى البيوت والجامعة والمؤسسات الرسمية ، حتى المقاهي الكثيرة ، التي يرددون عنها فكاهة أن بين القهوة والقهوة تجد قهوة ، تدليلاً على كثرتها و أهميتها في حياة المغاربة ، وفي فترة العمل الرسمي في النهار تكتظ بالزبائن ، مثلما تكتظ بهم ليلًا ، السبب معروف ، وهو انتشار البطالة .. هي بطالة ليست في حجم البطالة عندنا بكل تأكيد ، ومن بينها بطالة البحث عن عمل أفضل .. وتقدم المقاهي الشاي الأخضر الذي يشتهر به المغرب ، توفر شاي " الليبتون " أو الفتلة أو الشاي الأحمر ، لمن يطلبه من المصريين الذين يمثلون قلة أو ندرة هنالك .. يبدو أن المغاربة مولعون بقراءة الصحف على المقاهي لمتابعة الأحداث ، أو البحث عن فرص عمل .

الطريقة الفرنسية

صعدت إلى غرفتي بالفندق ، بعد تناول الغذاء على الطريقة الفرنسية الممزوجة بالأسلوب المغربي ، (السلطة أولًا ، ثم طبق آخر ، ثم الطاجن المغربي الشهير ، ثم الفاكهة ختام الغذاء). صليت الظهر و العصر جمعًا وقصرًا ، لم أجد سجادة صلاة ، ولا مصحفًا (كنت قد نسيت مصحفي مما كدّرني طوال الرحلة بسبب عدم تلاوة الورد اليومي) .. و لكنني تدبرت أمري ، ثم ألقيت بجسدي المتهالك على السرير ،

و لم أفق إلا على صوت نداء ، يدعو إلى اجتماع بالقاعة الكبرى في كلية اللغة العربية ، تمهيدًا للمؤتمر و قضاياه ..

إلى مطار ابن بطوطة في طنجة ثم تطوان !
الناس يعيشون الفصول الأربعة

أؤكد أن المغرب صورة من مصر في الطيبة والتسامح ، والاعتزاز بالإسلام . ذهبت إليها مرتين من قبل ؛ زرت في الأولى أغادير (في الجنوب) وفي الأخرى مراكش الحمراء (في الوسط) . وهذه المرة أزور تطوان (في الشمال) . كل مرة أزداد معرفة بالشعب الشقيق، والمفارقة أن المغاربة يعرفون عنا كل شيء تقريبا ، ونحن في المشرق لا نعلم عنهم إلا القليل ، وغالبا ما تكون هذه المعرفة في مجال كرة القدم !

الرحلة من القاهرة إلى الدار البيضاء أو كازابلانكا كما يسمونها ، تستغرق - كما أشرت من قبل - حوالي ست ساعات في طائرة ضيقة نسبيا ، ومكتظة إلى آخرها بالركاب ، وهي قادمة غالبا من جدة ، وتستوفي الأماكن الفارغة من ركاب القاهرة .. وحين حطت بنا كان علينا أن ننتظر عدة ساعات لنواصل إلى طنجة على شاطئ البحر المتوسط قبالة إسبانيا أو الأندلس، ولكن طائرة طنجة تأخرت ، واستطال التأخير حتى تجاوزنا منتصف الليل ، ساعة بعده وأكثر ، وأعلنوا أخيرا عن وصولها ، ولكنها لن تذهب مباشرة إلى طنجة ، بل ستهبط أولا في فاس ، وركب الذاهبون إلى طنجة مع الراكبين إلى فاس ، وكان التبرم واضحا وخاصة على الركاب القادمين من القاهرة ، بيد أني لاحظت راكبا من ذوي البصائر كان متجها إلى فاس ، كان دائم الشكوى وغاضبا ، وازداد غضبه عندما عرف ونحن نحلق في الجو أن الطائرة ستعدل خط سيرها ، وتتجه إلى طنجة أولا بسبب الاضطرابات الجوية فتلفظ بألفاظ قاسية عن الحظ والنصيب ونحوها.

سألوني عن مصر

قبيل ركوب الطائرة جلست مع زميلي في الرحلة الدكتور سعد أبو الرضا في استراحة الترانزيت بالدار البيضاء ، وصلينا المغرب والعشاء جمعا وقصرا ، ثم تناولنا بعض الطعام والشاي ، في إحدى المرات التي كنت أسأل فيها عن موعد طائرة طنجة جري حوار بيني وبين بعض العامين المكلفين بخدمة الرحلات ، سألوني عن مصر ، وعما يجري فيها . كانوا يتابعون ما يحدث بتفاصيله الدقيقة ، وأحسست بفرحهم الغامر بانتصار الثورة ، وخوفهم عليها ، وعرفت أن مصر دائما في قلوب العرب والمسلمين ،حاضرة باستمرار ، لا تغيب أبدا مهما بدت السحب والغيوم كثيفة وداكنة ، فهي أم الدنيا التي يحبونها في كل الأحوال والظروف . لطول وقفتي مع العاملين بخدمة الرحلات نسيت آلامي ومتاعبي حتى ركبت إلى طنجة .

وصلنا إلى مطار ابن بطوطة بطنجة في نحو الثانية والنصف صباحا ، وكان في استقبالنا أبو سلمي (الأستاذ عبد الهادي أبي يسف) وعثمان السباعي ، وركبنا السيارة إلى تطوان التي تبعد نحو ستين كيلومترا ، كان الرذاذ يتساقط خفيفا ، ثم ازداد حتى صار مطرا غزيرا ، لكنه لا يعطل السيارة ، فالطرق هناك جيدة وواسعة ونظيفة ، ولا تحدث انزلاقا للسيارات ، وعرفت أن المطر شبه دائم في المنطقة ،

ولذا يحمل الأهالي دائما مظلات لحمايتهم من المطر ، وفي السيارات توجد دائما مظلة يحملها راكبها عندما يهبط ويجد المطر يتساقط ، المطر لم يعد يمثل مشكلة ، بل يسهم في تلطيف الجو وتخفيف الرطوبة ، ويساعد على اخضرار المساحات الخالية ، فضلا عن الزراعة ، فكل تطوان خضراء اللون طوال العام ..

وجوه طيبة

كان الفندق واسمه "دريم " – أي الحلم - نائما ، وتتسرب من الاستقبال إضاءة خفيفة ، ويقف موظف شبه نائم استيقظ عنوة من أجل التسجيل والتسكين ، صعدنا إلى الغرفة للنوم وكانت إغفاءة أو ما يمكن تسميته كذلك لمدة ساعتين تقريبا استيقظنا بعدها في السابعة . ضاعت صلاة الفجر ، وبدأ التلاقي مع أعضاء المؤتمر ..

رأيت بعض الوجوه الطيبة لتي أعرفها ، وبعضهم صديق حميم . قابلت الشاعر محمد على الرباوي والدكتور عبد الباسط بدر ، والشاعر الدكتور حسن الأمراني ، والدكتورة سعاد الناصر(أم سلمى) ، والدكتورة حياة الخطابي ، وآخرين ..

هوية القصة والنقد

انعقدت جلسة الافتتاح في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي ، وكان مقر المؤتمر أو الندوة أو الملتقى كما يسمونه في المغرب قاعة محمد الكتاني ، وشهد الافتتاح عدد كبير من أساتذة الكلية وطلابها والمسئولون بالجامعة ورابطة الأدب الإسلامي ؛ بالإضافة إلى أعضاء المؤتمر. وضمت القاعة معرضا صغيرا عرضت به بعض إصدارات رابطة الأدب الإسلامي ، وكلية الآداب بتطوان مضيف الندوة ، وسلسلة روافد التي تصدرها وزارة الأوقاف الكويتية وبعض صور وكتابات محمد بن تاويت الشخصية الثقافية المحتفى بها في الندوة .

عنوان الندوة أو الملتقى يدور حول القصة القصيرة : خلفيات نظرية وإشكالات فنية ، في مجموعة من المحاور، الأول - القصة القصيرة الإسلامية والمنهج ، والثاني - اتجاهات القصة القصيرة الإسلامية ، والثالث - قضايا القصة القصيرة الإسلامية ، والرابع - تكريم الأستاذ محمد بن تاويت . .

كان الجلسة الأولى قوية ، ودارت حول منهج القصة الإسلامية القصيرة ، وشارك فيها بالبحث والمناقشة معظم المشاركين وبعض الطلاب ، وظهر من خلال المداخلات التركيز على هوية القصة القصيرة وهوية النقد الخاص بها ، وظهرت هناك مقولة تشير إلى أن القصة القصيرة الجيدة تشغلك عن هوية منشئها . كما طرحت فكرة نظرية إسلامية للقصة القصيرة والفارق بين الجمال والزخرف والحسن والحق ، والتخلص من فكرة العبث ، وذكر ما يخدم القصة من العناصر والأشياء ، مع التخلص من الزوائد .. كما كان هناك فكرة تنادي بأسلمة التقنيات ثم التعويل على فكرة الأثر في القصة ، وتطرقت المناقشات إلى تناول القصة والهوية الإنسانية وتعريفات القصة القصيرة ، والعقل الشرعي والعقل الأدبي والعلاقة التكاملية بينهما ، واستصحاب النص الإلهي للاهتداء في المنهج ، والثابت بالواقع الاجتماعي يسبق الثابت بالواقع المثالي .

وقد توالت الجلسات تشهد مناقشات ومداخلات صريحة وقوية ، خاصة من جانب بعض الطلاب الذين بدت ثقافتهم جيدة ، وظهر لديهم وعي أدبي ونقدي ساطع ..

أشجار النارنج

وكلية الآداب في تطوان تسير وفقا لنظام الساعات المعتمدة ، ومناهجها مشابهة لمناهج التعليم الفرنسي الجامعي ، ولعل ذلك كان من وراء تصميم مبنى الكلية وفق قاعات من طبقة أرضية واحدة تقريبا ، تتوازى مع بعضها في اتجاه واحد ، وغرف تتسع لخمسين طالبا في المتوسط . ويتخلل المباني المتوازية حدائق من الأشجار والموالح ، وقد تصورت أن هناك أشجارا لليوسفي تمتلئ بالثمار الناضجة ولا يقربها أحد ، ولكني فوجئت أنها أشجار النارنج التي تشبه البرتقال أو اليوسفي ، ولا تؤكل في مصر إلا بعد تخليلها أو وضعها مع الجبن الفلاحي القديم ليتم تمليحها وجعلها سائغة بحكم مرارتها الشديدة ، حيث تشبه الليمون.

الفصول الأربعة

حين ينزل المطر على الكلية أو تطوان عموما لا يؤثر على الدراسة أو الحضور . الطلاب والعاملون والرواد يرفعون المظلات ، ويمضي كل شيء طبيعيا ، والسيارات في الخارج أيضا لا تجد مشكلة في الاستمرار والحركة ونقل الطلاب .

وقد رأيت الجو يتغير في تطوان طوال النهار والليل ، أو قل رأيت الفصول الأربعة على مدى الساعات الأربع والعشرين ، وسرعة التغير تجعل أثر التقلبات محدودة ، فالجو أكثر ميلا إلى الدفء والاعتدال بصفة عامة .

ولعل ذلك يرجع إلى قرب تطوان من البحر المتوسط (حوالي ٧ كيلو مترات) ، ووقوعها على قمة جبل ، في أدناه واد ، فيه زرع وشجر ونهيرات أو بحيرات عذبة صغيرة .

صناعة التاريخ

تطوان مدينة عريقة ذات تاريخ .. تعرضت للغزو ، وكانت منطلقا للفتح ، ومُهاجرا لمن طردهم الصليبيون المتعصبون من الأندلس في حروب فرديناند وإيزابيلا ومن تلاهما ، وفي كل الأحوال فقد كانت صانعة للتاريخ ، أو كان التاريخ صانعا لها .

ويقال إن الرومان احتلوا تطوان فترة طويلة في الزمن القديم ، وكان تسمى في عهدهم " تمودة " وهي أنثى الخنزير ، وقد اكتشفت تمودة من خلال حفريات وآثار يعود تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وقد دمرتها الجيوش الرومانية حوالي عام ٤٢ ق.م ، وبقي منها حصن روماني ما زالت أسواره ظاهرة إلى الآن ، وكانت المدينة تمثل في العهود القديمة مدينة إستراتيجية لقربها من البحر وتحصنها في حضن جبل ضخم مما يؤهلها لرد الغزاة ومواجهتهم ، فضلا عن كونها تستعصي على الغزو القادم من ناحية البحر المتوسط .

أحياؤها القديمة أندلسية الطابع، وتقع في قلب منطقة زراعية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بين مرتفعات جبل درسه وسلسلة جبال الريف. وقد حافظت على الحضارة العربية الأندلسية فيها، وتفاعلت مع الروافد الثقافية التي عبرت بها .

واسم تطوان أو تطاون موجود حسب المراجع منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وقد اختلف الناس قديما وحديثا في كيفية نطق اسم تطوان وفي صفة كتابته ، وهناك سبع صور في الكتب والوثائق الرسمية:

١- تطوان: بتاء مكسورة بعدها طاء ساكنة فواو فألف فنون، كذا يكتب جل الناس اسمها الآن .
٢ - تطاون: بطاء مشددة بعدها ألف فواو فنون وهذه الصيغة هي التي ينطق بها جميع أهل المدينة ومثلهم معظم أهل المغرب في كلامهم العادي.
٣ - تطاوين: بواو مكسورة بعدها ياء فنون. هذه الصيغة نجدها مكتوبة في معظم الوثائق والرسوم العدلية القديمة .
٤ - تيطاوين: بياء بين التاء والطاء، وأخرى بين الواو والنون. وقد وردت هذه الصيغة في تاريخ ابن خلدون ، وكتاب البيدق المؤلف في القرن السادس ، وكتاب النفحة المسكية المؤلف في القرن العاشر.
٥ - تطاوان: بتاء تليها طاء مشددة فألف فواو فألف فنون. هذه الصيغة ذكرها أبو عبيد البكري الأندلسي في كتابه المسالك والممالك. وهو من رجال القرن الخامس ووفاته سنة ٤٨٧ هـ .
٦ - تيطاوان: مثل الصيغة التي قبلها بزيادة ألف بعد الواو في الصورة السابقة . وقد وردت في كتاب البكري أيضا ، وفي كتاب الاستبصار المؤلف في القرن السادس وفي كتاب النفحة المسكية.
٧ - تيطاون: بياء بين التاء والطاء وعدم الفصل بين الواو والنون. هكذا ذكرها ابن عذاري المراكشي في حوادث سنة ٣٤٧ من كتابه " البيان المغرب في أخبار المغرب " ، ووردت أيضا في مواضع متعددة من جزء مختصر من كتاب مناهل الصفا للقشتالي. وفي كتاب لقطة الفرائد لابن القاضي وكتاب النفحة المسكية.
وهذه الصيغ السبع كلها أمازيغية صرفة ، ولا يعرف لها معنى في اللغة العربية؛ أما في اللغة الأمازيغية فمعناها عين أو عيون بمعنى العين التي تبكي ، أو العين التي يتفجر منها الماء . ولعل سكانها الأقدمين من الأمازيغ سموها بذلك لكثرة العيون التي بها.

قلعة محصنة

وفي أوائل القرن الرابع عشر وتحديدا عام ١٣٠٧ م، أعاد السلطان المريني أبو ثابت بناء المدينة قلعة محصنة ، ويقال إن هدفه كان الانطلاق منها لتحرير مدينة سبتة. وقد دمر الملك الإسباني هنري الثالث المدينة عن آخرها سنة ١٣٩٩ م.
ويبدأ تاريخ المدينة الحديث منذ أواخر القرن الخامس عشر، عند سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ على يد فرديناند وإيزابيلا أي منذ أن بناها الغرناطي سيدي علي المنظري، وهو اسم أصبح رمزا ملازما لمدينة تطوان. وقد خرج آلاف المسلمين وكذلك اليهود من الأندلس ليستقروا في شمال المغرب عموما وعلى أنقاض مدينة تطوان خصوصا ، فعرفت هذه المدينة مرحلة مزدهرة من الإعمار والنمو في شتى الميادين وأصبحت مركزا لاستقبال الحضارة الأندلسية. وشهدت المدينة مواجهات عسكرية مع إسبانيا والبرتغال في القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث كانت أساطيل تطوان تشكل خطرا دائما على مصالح العدو الخارجي، وكان لها الأثر البالغ خاصة من الناحية العمرانية حيث بنيت قلاع وأسوار للدفاع عن المدينة. وأيضا في مجال تجارة المغرب مع أوروبا(إسبانيا وإيطاليا وإنجلترا) في القرنين السابع عشر والثامن عشر،

وكانت التجارة كلها عبر مدينة تطوان التي كانت آنذاك تعد من أهم الموانئ المغربية ؛ حيث كانت البواخر تقوم برحلات بين تطوان وكل من جبل طارق، ومدينة الجزائر، ومرسيليا، وليفورنو..

ويقرب عدد السكان في تطوان من خمسين وثلاثمائة ألف نسمة ، ويتزايدون وفقا لمعدل يتسق مع معدل الزيادة في بقية المدن الساحلية الشمالية المغربية ، مع امتداد العمران وانتشاره في الضواحي المحيطة بالمدينة . وهناك مبان حديثة تأخذ طابعا موحدا ، يختلف عن المباني القديمة والتاريخية ذات الطابع الأندلسي .

المدينة القديمة

يتعايش سكان تطوان مع طبيعتها الجغرافية دون إحساس بأية مشكلات تنتج عن المرتفعات والمنخفضات التي تحكم وضعها السكاني ، وقد اكتشفت هذه المفارقة في مساء اليوم الأول حين دعينا للعشاء في مكتبة سلمى ..فقد انطلقنا من منطقة سهلية منبسطة يقع فيها الفندق ، ثم دخلنا عبر طريق يرتفع تدريجيا لنصل إلى ما يسمى المدينة القديمة التي يغلب عليها الطابع الأندلسي .. وهناك كان علينا أن نترك السيارة في أقرب شارع جانبي لنسير على أقدامنا حتى نصل إلى مكان المكتبة أو مكان العشاء ، فالشوارع ضيقة والحواري تتداخل مع محاور عديدة أو دورانات كثيرة ، وبعضها يعتمد على درج يوصل من مكان منخفض إلى آخر مرتفع ، والمحلات والبيوت تبدو أقرب إلى الخصوصية التي صنعتها العمارة الأندلسية في الحفاظ على المبنى من داخله ، والحرص على أن يكون المدخل ساترا لما بعده من أعماق المبنى.

كانت الدعوة الموجهة للعشاء من جانب أبي سلمي (الأستاذ عبد الهادي أبي يسف) ، وأم سلمي (الدكتورة سعاد الناصر) في مكتبة سلمى . المكتبة دار نشر وتوزيع وتمثل طفرة ثقافية في تطوان أو في الشمال المغربي المطل على البحر المتوسط .

أبو سلمي نشيط ثقافيا ، وهو والد لمجموعة من الأبناء والبنات ، كلهم متفوقون علميا وأسماؤهم تبدأ بحرف السين ، وكان ذلك ملهما لأم سلمي كي تكتب قصة قصيرة بعنوان " مملكة حرف السين " ، وهي مملكة أسهمت في بنائها في خضم انشغالاتها العلمية وأبحاثها الأدبية ، والنشاط الثقافي العام ، ورعتها بغريزة الأمومة وحب الأبناء . وسلمي ليست كبرى البنات ولكنها صغراهن ، وهي باحثة في كلية الآداب بقسم الأدب النسائي الذي نسميه في مصر أدب المرأة ، وهو متفرع من قسم اللغة العربية ، بالكلية .

مكتبة سلمى

قبل الوصول إلى المكتبة كنت قد استطعت أن أنام لبعض الوقت ، وأعوض جزءا من الحرمان من النوم الذي عشته بالأمس حيث لم أنم إلا قليلا ، فضلا عن الإجهاد الذي طال لدرجة أن اعتذرت عن مواصلة الجلسة الثانية التي قدمت فيها ورقتي البحثية ، ولم أنتظر حتى أسمع تعليقات الحاضرين ، وآثرت العودة إلى الفندق ، ونمت من فوري .

عندما وصلنا إلى مكتبة سلمى رأيت المكان على هيئة منزل أندلسي كبير ، بواباته ضخمة ذات حلقات يتم استخدامها في السحب عند الإغلاق ، والبوابات تبدو مصنوعة من الحديد أو الصاج المزدوج ، ومنقوشة بوحدات زخرفية معدنية .

ويؤدي الباب الرئيسي إلى رحبة واسعة مربعة ، تضم بعض الموائد التي اصطفت بجوار بعضها ، وبجانب الرحبة على الجانبين صالة مستطيلة تزين جدرانها المزخرفة على الطريقة الأندلسية بعض المرايا الكبيرة . ومن السقف المرتفع بطريقة ملحوظة تتدلى بعض الثريات العريقة المصممة تصميما زخرفيا لافتا ، وفوق الرحبة تبدو قبة مفتوحة الجوانب أو ما يشبهها ، لتوفير الإضاءة في النهار ، والتهوية عند اشتداد الحرارة ، وإن كان ارتفاع الجدران التي تبدو سميكة يوفر نوعا من التكييف الهوائي الذاتي على نمط المباني المصرية الريفية في الصعيد والدلتا قديما .

الموسيقى الأندلسية

في صدر الصالة المربعة وعلى تخت مرتفع نسبيا ؛ ارتقى ثلاثة من الموسيقيين بلباسهم الوطني المعهود مع آلاتهم، وكانت الطرابيش الحمراء تمثل نغما بارزا متميزا ؛ وهم يعزفون موسيقاهم الأندلسية الشجية ، وخاصة ما يسمى بالملحون والتراث الشعبي المشهور في المغرب الأقصى والقصائد الإسلامية المادحة للرسول - صلى الله عليه وسلم . كان هناك عازف من ذوي البصائر يعزف على العود ، وبدا متمرسا ، وقد أشاد به بعض الحاضرين وبموهبته الملحوظة ، وكان العزف بصفة عامة يلقى استحسانا من الجميع .

كان العشاء مغربيا كالعادة ، وتقدم أصنافه على مراحل ، السلطات والمتبلات أولا ، ثم اللحم مع البرقوق الخارج من الفرن في الأواني الفخارية ، يليه الدجاج المتبل في الفرن أيضا ، ويختم العشاء بالحلويات ، وبعدها الشاي الأخضر الشهير في المغرب .

كان العشاء مناسبة طيبة لتبادل الأفكار والآراء حول ما يجري في العالم العربي من أحداث ، بالإضافة إلى أحوال الأدب والفكر والثقافة ، وما وصلت إليه الجامعات من مستوى ، وحركة البحث العلمي ومعوقاتها.

وقد أتيح لنا التعرف على مكتبة سلمى ومحتوياتها ، ومنشوراتها المتنوعة في الأدب والفكر والثقافة ، وخدمة الأدب الإسلامي على وجه الخصوص ، وتبدو صناعة النشر في المغرب مزدهرة بحكم الاستقرار الاقتصادي النسبي ، وتيسير عملية الطباعة ، فضلا عن وجود شركات توزيع جيدة في الداخل ، ومشاركات في المعارض العربية خارج المغرب .

عدنا إلى الفندق بعد منتصف الليل ، وكان استغراق عميق في النوم ، بعد إجهاد الأمس ومتاعب السفر .

يوم حافل

يوم الجمعة في المغرب يوم عمل مثله مثل بقية الأيام . ويتوقف العمل في بعض المؤسسات وقت صلاة الجمعة . أما الإجازة الأسبوعية فهي يوم الأحد . نظام وضعه الاستعمار الفرنسي ، ولم يتغير ، وغالبا تتبعه دول شمال إفريقية التي خضعت للاستعمار الفرنسي .

لذا كان يوم الجمعة يوما حافلا بحلقات البحث في ندوة القصة القصيرة منذ الصباح .. كنت قد استيقظت قبيل شروق الشمس لألحق صلاة الصبح ، توضأت وصليت ، وجلست أقرأ الورد اليومي في المصحف ، ثم تابعت قناة الجزيرة وأحداث العالم

العربي والعالم .. جرى حوار بيني وبين زميلي في الغرفة ، وتحدثنا عن السرقات الأدبية ، وجرأة بعض المنتسبين إلى العلم والكتابة في الخطف والإغارة على جهود زملائهم دون أن يشعروا بالخجل من هذا السلوك المشين أو يعتذروا عنه بعد اكتشاف جريمتهم .
تذكرت من أغاروا على كتابي " محمد – صلى الله عليه وسلم - في الشعر العربي الحديث " ، وصنعوا منه مقالات شهرية أو كتبا قدموها للناس تحت أسماء مختلفة سواء نقلوا منه نقلا حرفيا ، أو نقلوا مع بعض التبديل والتغيير والتحوير ، بل هناك من قدموا على أشلائه رسائل ماجستير ودكتوراه دون أن يتفضلوا بذكره مصدرا ومرجعا .

مادة غير متاحة

الطريف أن هؤلاء نسوا أن الكتاب يضم مادة لم تتوفر لأحدهم ، وهي الخاصة بالشعراء النصارى . فهذه المادة في الأغلب الأعم كانت للشعراء النصارى المهجريين في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية ، وكانت تنشر هناك بعيدا عن العالم العربي في دواوين أو مجلات دورية لا تتوفر إلا نادرا في العالم العربي ، بحكم البعد المكاني ومرور وقت طويل بين النشر ووقت تأليفي للكتاب ، وكان للأستاذ وديع فلسطين ؛ فضل في توفير كثير من هذه المادة التي نسخها وأرسلها إليّ ؛ بعد أن استخرجها من الدواوين والدوريات والرسائل التي كانت ترسل إليه من معظم هؤلاء الشعراء في عقود بعيدة.. ولكن المُغيرين على كتابي تناسوا ذلك وقدموا للناس ما ليس لهم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .
عقب الحديث مع زميل الغرفة أحسست بآلام القولون تتزايد ، واشتد الإمساك الذي لم تُجد معه الخضروات والألبان والزبادي ، وصار النزف يحدث باستمرار كلما دخلت الحمام . كانت معي برتقالتان حملتهما معي من مصر ، قلت لعلهما تحركان الأمعاء وتيسران عملية الإخراج ، وإيقاف النزف .
لم أستطع تناول الإفطار ، اكتفيت بقدح من الشاي باللبن .ثم تناولت قدحا آخر من القهوة باللبن ، وقضيت بعض الوقت مع الدكتور الأمراني والدكتور محمد نافع (أبي ضياء) .وكان الحديث حول القضايا العامة .

امرأة مقهورة ورجل مكبوت

في الجلسة الصباحية للملتقى أو الندوة ، دارت الأوراق والمداخلات في معظمها حول القصة القصيرة في كتابات المرأة . وقد أثارت الأوراق المقدمة مناقشات حامية ، خاصة حول ما يتردد دائما عن مظلومية المرأة وقهرها ، ومقولة إن وراء كل امرأة مقهورة رجل مكبوت ، فضلا عن قيام بعض الطلبة بالتعليق على بعض الأوراق تعليقات حادة ووصفها بأنها خطب منبرية .
تسللت بعد الجلسة وذهبت مع عثمان إلى السوق ، ودخلنا المنطقة الشعبية . بدأنا بتغيير بعض العملات إلى دراهم مغربية . الجنيه المصري لا قيمة له . لا يذكره أحد ، لأنه غير معترف به أصلا في المصارف المغربية ، ولا يمكن لمن يحمله أن يغيره بأية عملة أخري .

من العطارين اشترينا بعض الأشياء ، ولكن الأسعار بمقاييس مصر مرتفعة للغاية ، وإن كانت بمقاييس المغرب تبدو طبيعية وعادية جدا ، فالدرهم يساوي نحو ثلاثة أرباع الجنيه المصري ، وهو عندهم في المغرب يساوي قرشا أو نحوه ، وأبسط الأشياء – قدح من الشاي مثلا في مقهى شعبي – يساوي عشرة دراهم ، وهو أمر معتاد لا غرابة فيه ، ولكنه بالنسبة لنا نحن المصريين يمثل طفرة عالية غير مستساغة !

ومع ذلك فإني أذكر أن مراكش تبدو أكثر تساهلا وتفاهما في مجال الأسعار ، وأفضل من " تطوان " المتأثرة بالجنوب الأوربي في تحديد أسعار البضائع ، بما لا يقبل التخفيض إلا بقدر ضئيل .

هرمنا!

عدنا إلى الجلسة التالية وقد بدت مستعرة . كان رئيس الجلسة الصديق الشاعر محمد على الرباوي ، وقد بدأها بقصيدة من شعره حول تطوان وحبه لها ، ولقيت القصيدة استحسانا من الجمهور ، وقد أنهى الجلسة بمقولة المواطن التونسي الشهيرة " هرمنا !" التي قالها في أثناء ثورة الشعب التونسي ضد بن على ، وكان تلفزيون الجزيرة يكرر إذاعتها باستمرار في الشهور الأولى للثورة بعد سقوط النظام التونسي .

في الفندق ونحن ننتظر الذهاب إلى صلاة الجمعة جري حديث حول المرأة مع مجموعة من المشاركات في الجلسة . قلت لهم إن المظلوم هو الوطن رجالا ونساء ، وليس المرأة وحدها ، وإن الترويج لقضية المرأة وحدها ؛ انحراف بقضية الوطن والعقيدة والحرية ، وإن الناشطات في قضية المرأة معظمهن من الفاشلات في حياتهن الزوجية ، أو يعانين من مشكلات معينة .

ذهبنا إلى صلاة الجمعة ، وكانت المسافة طويلة بين الفندق ومسجد الجمعة ، ومع ذلك مشيتها مرغما ، وتعبت كثيرا ، وأحسست بزيادة التهاب مفاصلي . بعد الصلاة دبر لنا الدكتور الحسين رزوق سيارة يملكها زوج إحدى المشاركات في كلية الآداب بتطوان . ونقلنا الرجل إلى الفندق مشكورا، وعاد مرة أخرى إلى المسجد ليأتي بمن يسيرون على أقدامهم .

بعد الغداء ، لم أستطع الذهاب إلى الجلسة الأخيرة . كانت آلامي شديدة ، والتعب أخذ مبلغه فاعتذرت ونمت حتى السادسة تقريبا .

الذهاب إلى مرتيل

بعد صلاة المغرب والعشاء قصرا وجمعا، جلست أدون بعض الملاحظات والأفكار ، ثم شاهدت التلفزيون ، انتظارا للذهاب إلى مرتيل لتناول العشاء بناء على دعوة مجموعة من الجهات المشاركة في دعم المؤتمر .

مرتيل مدينة صغيرة ، ولكنها صارت ضاحية من ضواحي تطوان ، وهي على حافة البحر المتوسط ، وتعد مصيفا مهما من مصايف المغرب ، ويأتيها المغاربة وغيرهم في فصل الصيف من كل مكان ، وقد تفضل الدكتور أحمد زيادة باصطحابي في جولة ليلية لأرى معالم مرتيل التي بدت منبسطة ، وأقرب في مبانيها وعمارتها إلى النمط الغربي الحديث ، ويزداد فيها سعر الإيجارات السكنية صيفا ارتفاعا شديدا ، وتشتهر مرتيل بمطاعم الأسماك وفواكه البحر ، وقد تناولنا العشاء في أحد مطاعمها

المشهورة بتقديم الأسماك ، وكان فرصة لمزيد من التعارف بين الضيوف ، وتناول قضايا عديدة .

شخصيات تشيكوف

كان صباح السبت هادئا ، وخاليا من الالتزامات ، فقد انتهت أعمال الملتقى مساء الجمعة ، ووزعت شهادات التكريم ، وصدرت التوصيات ، وأهمها أن يكون الملتقى السابع في مدينة الجديدة ، وتبعد حوالي ٩٥ كم عن الدار البيضاء ، وأن يكون موضوعه المصطلح النقدي ..
كنا على موعد مع عثمان لنذهب إلى السوق ، ونشتري بعض الأغراض ، ولكنه لم يأت مع أنه وعد بالمجيء، وأكد ذلك مرارا، وأكدته أم سلمى ، وانتظرناه طويلا دون جدوى ، ويبدو أن هناك أمرا طارئا منعه.
في الواحدة ظهرا جاء الدكتور محمد الوزاني ليزور صديقه الدكتور عبد الباسط ، ذهبنا معه لزيارة جمعيته الثقافية التي تهتم بالجوانب الاجتماعية والصحية والثقافية ، وتخدم المجتمع حسبة لله ، وتركز على خدمة اليتامى والأرامل .
تجولنا في الجمعية ، وتعرفنا على مكاتبها وما تقدمه من خدمات للجمهور الذي تتوجه إليه . لم أستطع الصعود إلى الدور الثاني بسبب مفاصلي ، ثم انطلقنا إلى السوق. كان المطر ينهمر بغزارة ، والقوم يتحركون في الشارع بسرعة أكبر من سرعتي ، وهو ما كلفني جهدا أكبر لمجاراتهم ، وأتعبني بشدة ، وقد استرحنا بعض الوقت في مقهى شعبي لشرب الشاي بالنعناع. كان المقهى يضم عددا كبيرا من العاطلين معظمهم من كبار السن والكهول ، ولهم في الغالب لحى قصيرة ، ذكرتني بشخصيات تشيكوف القصصية . وكانت هناك ظاهرة غريبة ، تتمثل في وجود النحل الذي يملأ المقهى . كان النحل يلف ويدور منجذبا إلى أقداح الشاي . منظر النحل كان مزعجا للغاية ، ولكن رواد المقهى أفهموني أن هذا النحل ليس مؤذيا ، وعليّ ألا أخاف منه ، فهو نحل مسالم لا يلدغ .

حذاء جديد

كما قلت من قبل فالأسعار هنا بالمقاييس المصرية مرتفعة للغاية، وتكاد تكون ضعف الأسعار في مصر . وقد اضطررت لشراء حذاء جديد بدلا من حذائي الذي خذلني وأوشك على الانهيار، كما اشتريت صندلا صغيرا لحفيدتي رقية التي وصلت قبل أسابيع قليلة .. اضطر القوم لتركي جالسا في أحد المحلات بعد أن أو شك رصيدي من الحيوية والمقاومة على النفاد .
في محل الانتظار كانت البائعة تسعى للبيع بأية وسيلة . تبدو ماهرة في التسويق بأسلوب جذاب يغري المشتري بالشراء ، حتى لو كانت هناك مساومات طويلة .
عندما قلت للبائعة : إنني أريد فستانا لحفيدتي ، خرجت إلى محل آخر وجاءتني بعدد من الفساتين مختلفة الأشكال والألوان والمستويات، اخترت منها واحدا ودفعت لها ما طلبت لأنه سعر المحل الآخر ..
عدنا إلى الجمعية ، وقام الدكتور الوزاني الذي كان ينتظرنا باصطحابنا لرؤية البحر في النهار ، فذهبنا إلى مرتيل ، وانطلقنا منها إلى بقية المدن الأخرى المجاورة على

الشاطئ في اتجاه المضيق ، فرأينا الفنيدق والرأس الأسود والمضيق ووصلنا إلى سبتة المحتلة !

الجانب الآخر من اليابسة

وقد صلينا في أحد المساجد الصغيرة على جانب الطريق ، ويبدو أن المسجد أقيم بجهود ذاتية ويتمثل ذلك في تواضعه وبساطة الفرش والمرافق .. ولكن الذي لفت نظري ووضحه الدكتور الوزاني أن المسجد صار مركزا لتحفيظ القرآن ودراسة الشريعة من خلال الطلاب الذين يأتون إلى المسجد ، ويقيمون بجواره حيث يقيمون لأنفسهم أكواخا صغيرة من الخشب مساحتها ضيقة للغاية تكاد تكون مترا وأكثر قليلا في مترين ، وتحمي الطالب من المطر والحر، وبعد أن ينهي مهمته يتركها لغيره ، والمكان ينفق عليه أهل الخير الذين يتبرعون من أجل تحفيظ القرآن ونشر الدعوة الإسلامية الصحيحة ، وقد واصلنا السير حتى المضيق ورأينا الجانب الآخر من اليابسة ، وكنا نتناول الطعام في محل له واجهة زجاجية لا تحجب البحر وماءه الأزرق الصافي، وعدنا مرة إلى تطوان عبر الطريق الساحلي الطويل الذي جعلنا نقترب من طنجة وميناءها الضخم الذي تم تجهيزه على مدي سنوات مضت، ويستوعب أعدادا كبيرة من السفن والعبارات، ويستقبل كميات هائلة من البضائع المختلفة تصديرا واستيرادا ..

وكان من طرائف العودة أن ضللنا الطريق ، فقد تجاوزنا فتحة الطريق التي تعيدنا إلى تطوان ، وهو ما اضطرنا إلى قطع مسافة طويلة عائدين مرة أخرى إلى حيث ندخل من فتحة أخرى ، كان وقود السيارة أوشك على النفاد ، فملنا جانبا إلى استراحة بها محطة تزويد للوقود ، وكانت فرصة لأداء صلاتي المغرب والعشاء جمعا وقصرا ، ثم مهاتفة الأسرة في مصر للاطمئنان ..

نكتة عن زين العابدين

وعدنا إلى الفندق في نحو التاسعة مساء لتناول العشاء ، والاستعداد للسفر من طنجة إلى الدار البيضاء في المرحلة الأولى للعودة ، وقد جمعتنا المائدة لتبادل حديث ذي شجون كان معظمه يدور حول أحوال الأمة ، وخاصة ما جرى في مصر وتونس من أحداث وتطورات لم يتوقعها أحد ، وكان هناك إجماع على أن الشعوب الحرة التي تسودها العدالة والكرامة هي التي تتقدم وتنتصر على الضعف والهزائم ، وتطرق الحديث إلى مقاومة الشعوب العربية للاستبداد والقهر بكل الوسائل المتاحة حتى النكتة ، وروى أحد الحاضرين نكتة طريفة عن حاكم تونس السابق الذي تزوج من حلاقة تزين شعر النساء !

وتقول النكتة إن أجهزة الأمن في تونس قبضت على أحد التونسيين الذي اشتهر بالتنكيت دائما على الرئيس المخلوع ، وبعد أن أفرجوا عنه بعد وعده عدم التنكيت مرة أخرى ، قعد في مكان ما وراح يطلق النكات من جديد على الرئيس ، فأعيد اعتقاله ، واعتزمت أجهزة الأمن هذه المرة حسم الأمر معه ، فقالوا له : أمامك طريقان ، أن تتوب عما تفعل ونطلق سراحك ، وإلا قبضنا عليك وأبقيناك في السجن حتى الموت ، فقال لهم بعد تفكير : أتوب وأخرج . وقبل أن يطلقوا سراحه طلبوا منه أن يسمعوا نكتة بعيدا عن الرئيس التونسي. فقال لهم :

هل تعلمون لماذا يطلق العقيد القذافي شعره المنكوش بهذه الصورة اللافتة؟
قالوا : لا.
قال : لأن زوجته ليست حلاقة !
والإشارة هنا إلى زوجة بن على ، وهي مفهومة بالطبع !

مطار ابن بطوطة

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ، وكان علينا أن نستيقظ في نحو الثالثة والنصف للذهاب إلى مطار ابن بطوطة ؛ لنتجه إلى الدار البيضاء ، ولكن زميلي في الغرفة أيقظني في نحو الثانية والنصف ظنا منه أنها الساعة الموعودة ، أي الثالثة والنصف ، لم أدرك ذلك إلا بعد أن توضأت ولبست وجهزت حقيبتي ، ونزلت إلى الاستقبال في الفندق، أخبرني الموظف أن الساعة لم تصل إلى الثالثة بعد . عدت ثانية إلى الغرفة ، وجلست أقرا الورد اليومي من القرآن الكريم ، ثم نزلت إلى الاستقبال مرة أخرى ، وجلست في البهو لأشاهد التلفزيون الذي كان يعرض فيلما لفريد شوقي وسناء جميل عن المرأة المتسلطة وأثرها في تدمير الأسرة ؛ يشاهده أحد أفراد أمن الفندق الذي كان يتناول عشاء متأخرا أو عشاء إضافيا ، كان يتمدد على أريكة متكئا على مرفقه ، وكان مندمجا في المشاهدة ويده الحرة تعمل بمهارة في تناول ما فوق صفحة الطعام والشراب ، لم أجد مفرا من الانتظار حتى جاءت السيارة في الرابعة صباحا تقريبا .

كان المطر يهطل والسيارة تقطع بنا الطريق نحو طنجة ، وكان الطريق مفتوحا ، وكنا ثلاثة بالإضافة إلى السائق ، واستغرقنا الحديث حول التعليم ودوره في حل مشكلات التعليم الحكومي ، وتوفير فرص أفضل للطلاب وللأساتذة جميعا، وأشرنا إلى البحث العلمي في الجامعات ومدى ما يلاقيه الباحثون من إهمال مادي ومعنوي ، وعدم رغبة المعنيين في ترقية البحث أو العلم ، ثم الميزانية الضئيلة للبحث العلمي التي لاتسمن ولا تغني . بعض الجامعات مثلا لا تسمح بحضور المؤتمرات والندوات العلمية ، وبعضها لا يدفع ثمن تذكرة الطائرة إلا لمؤتمر واحد كل بضعة أعوام ، مع تعقيدات بيروقراطية فجة ، بينما كبار الموظفين في الجامعات يحصلون على مكافآت وبدلات لا يستحقونها ؛ تفوق كثيرا تكاليف حضور المؤتمرات العلمية التي يحضرها الأساتذة والباحثون ، وهي مكافآت وبدلات تمثل إهدارا كبيرا للمال العام ، مقابل الوضع الوظيفي الذي لا يمت إلى البحث العلمي بصلة .

جواز السفر الضائع

في مطار طنجة كانت صدمة ضياع جواز سفر زميل سوري . ألغى الحجز ، واستعد للعودة إلى الفندق في تطوان حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. كنت أدرك حجم الكارثة ، فهو سوري يعيش في بلد عربي ، ويحمل جواز سفر أجنبي ، لأنه محروم من استخراج جواز سفر يحمل اسم بلاده ، وهو الآن لا يستطيع أن يستخرج " بدل فاقد "من الجواز ، مما يربك حياته ويعرضه لمتاعب جمة . أصابني الكدر في ساعات الفجر الأولى بسبب ما جرى ، ولكني دعوت الله أن ييسر له الأمر ، وودعته ، ودخلت إلى صالة العبور نحو الطائرة ..

بعد نصف ساعة تقريبا ، وأنا جالس في صالة العبور متكدرا ، رأيت صاحب الجواز المفقود يدخل متهللا ، فقد وجده في أحد الجيوب السطحية لحقيبة من حقائبه ، وتم تدبير مكان له على الطائرة ، وأحسست بعودة الروح إلى ، حمدت الله على انفراج الأزمة ، ووجهت صاحب الجواز إلى المسجد الصغير بالصالة ليؤدي صلاة الصبح .. المفارقة أنني نسيت حقيبة يدي الصغيرة وبها جواز سفري على أحد المقاعد ولم أنتبه إليه إلا عند النداء على دخول الطائرة ، أحسست بالكدر مرة أخرى ، ولكن الله سلم ، فقد تذكرت المكان الذي كنت جالسا فيه ، ووجدت الحقيبة وبداخلها الجواز .
حمدت الله مرة أخرى ، وصعدنا إلى الطائرة الصغيرة المزعجة بمراوحها الطويلة ، وصوتها الخشن الزاعق ، وأغمضت عيني حتى وصلنا إلى مطار الملك محمد الخامس ، وهبطنا الدار البيضاء ، كان المطر مازال ينهمر ؛ والجو تبدو فيه لسعة برد واضحة .
وفي الطريق إلى الفندق رحنا نستعيد قصة الجواز ودلالتها العميقة ، على بشاعة بعض الأنظمة التي تفتك بمواطنيها ، وخاصة إذا كانوا من الإسلاميين ، ولا تتسامح معهم أبدا ، في الوقت الذي تركع فيه أمام أعداء الأمة وخصومها ..

فندق متواضع

كانت المسافة بين المطار وقلب المدينة طويلة إلى حد ما ، واستغرقت نحو الساعة ، ويزداد الوقت إذا كانت السيارة تتحرك في منتصف النهار وأوقات الذروة ، ولحسن الحظ كان اليوم الذي وصلنا فيه الدار البيضاء هو يوم الأحد العطلة الأسبوعية الرسمية .
أفطرنا في الفندق الذي بدا قديما متواضعا ، لعله نجمتان أو ثلاث ، كان الإفطار دون شاي ، وقيل إن الرواد الذين سبقونا من السائحين الأجانب أتوا عليه تماما .
صعدنا الغرفة ، واغتسلت قبل النوم في حمام متهالك بدا مزعجا ، ونمت حتى الظهر تقريبا ، وخرجنا نجول فيما حول الفندق .دخلنا سوقا للمواد الغذائية بكل أنواعها : اللحوم والطيور والأسماك والفاكهة والبقالة . في السوق كل ما يخطر على البال بأسعار متفاوتة وفقا للوضع الاقتصادي السائد في البلاد .
لفت نظري وجود محلات متخصصة في أنواع الأغذية والبقالة ، على سبيل المثال رأيت محلات متخصصة في أنواع المخللات . أنواع كثيرة من الزيتون المخلل وأيضا الخيار والجزر واللفت ونحوها ، وتبدو مغرية ومحفزة على الشراء ، وخاصة لأصحاب المعدات القوية والقدرة على الهضم الجيد .

يسألون الناس إلحافا وأكثر

الظاهرة المزعجة كانت وجود بعض المتسولين الذين لا يسألون الناس إلحافا فحسب ، بل يكادون يضعون أيديهم في الجيوب بأسلوب شديد السماجة . أحدهم طاردنا منذ خرجنا من الفندق حتى دخلنا السوق . في البداية نهره أحد مسئولي الفندق ، ولكنه طاردنا داخل السوق ، ومن الطريف أنه ذكر لنا رموزا مصرية في الأدب والفكر والثقافة كي نعطيه . ولكننا لم نفعل فهو يبدو بصحة جيدة جدا ، ولا يستحق أن يأخذ شيئا . قال أحد المغاربة : إنهم يجدون في التسول وسيلة مثلى للكسب دون أن يبذلوا

جهدا. كانت هناك أيضا بعض النسوة المتسولات ، ولكننا خرجنا من السوق بعد جهد جهيد ، وتحركنا نحو مسجد كبير مجاور للسوق .
كان أذان الظهر بعيدا بعض الشيء، مضينا في الشارع الخالي نجلس بعض الوقت ونواصل السير البطيء ، وكنت قد أرهقت تماما والتهبت مفاصلي أكثر ، ولكننا قطعنا المسافة حول المربع الذي أفضى بنا مرة أخرى إلى المسجد .
كان الأذان قد رفع ، ودخلنا المسجد ، هناك تقليد جيد حرصا على نظافة المسجد . على الأبواب أو المداخل خصصت أكياس من القماش توضع فيها الأحذية كي لا يسقط منها شيء على السجاد أو الأرض. صلينا وخرجنا وعدنا إلى الفندق. تناولنا الغداء ، وودعنا الزميل السوري ، حيث كان موعد طائرته قد اقترب .

يسرقون الله!

في أثناء الطعام لفت نظري أن من يقوم عليه يكنّ مشاعر حميمة لمصر . قال لي : إن معلّمته في الستينيات كانت تسمى أم يحيى ، وهو يكنّ لها كل تقدير ، فقد شعر أنها كانت أمه ، ولذا سمّى ابنه يحيى من فرط تعلقه بها ، ثم فاجأني بالقول :إنه يكره حسني مبارك ! وعندما سألته عن السبب قال : لأنه كان يقود سرب الطائرات التي ضربت المغاربة في الصراع الذي دار بينهم وبين الجزائريين في الستينيات ! ويعبر أبو يحيى عن سعادته بما جرى لمبارك في ثورة يناير . حاولت أن أنفي الواقعة (مشاركة مصر في الصراع بين الجزائر والمغرب) ولكنه كان مصرا على موقفه ..
ثم أخبرني الرجل أنه لو كان الأمر بيديه لفرض على الحكومات العربية ألا تتدخل بين شعوبها قط مهما كانت الخلافات بينها ، ويجب أن يكون هناك قانون بذلك .
اهتم أبو يحيى بنا وبالغداء الذي قدمه لنا بسرعة قياسية كي يلحق زميلنا السوري بطائرته، وأحضر لنا الشاي الأحمر فضلا عن الشاي الأخضر ، ولكنه طالب بثلاثين درهما من أجل الشاي الأحمر ، وقد أعطيته جنيها مصريا علق عليه تعليقا سياسيا ضاحكا ، وكان قد ذكر أن اللصوص الكبار في العالم العربي لا يكتفون بسرقة الشعوب ، ولكنهم يسرقون الله أيضا ، لأنهم لا يدفعون الزكاة المستحقة عليهم !

أخبار الدم العربي

نمت ساعتين بعد الغداء ثم استيقظت ، تحسنت قليلا ، وجلست أدون بعض الأفكار والمشاهدات ، مع متابعة نشرات الجزيرة التي تقدم أخبار الدم العربي الذي يهرقه بعض الحكام الذين ثارت عليهم شعوبهم نتيجة الاستبداد والقهر والظلم العظيم !
كان سفرنا أو موعد إقلاع الطائرة مقررا في الواحدة صباحا ، وقد بقيت في الغرفة طلبا للراحة واستعدادا للرحلة الطويلة ..
كان بودي أن أشتري بعض الكتب ، وبعض الأشياء الأخرى للأولاد ، ولكن إغلاق المحلات يوم الأحد ، حال دون ذلك ..
في التاسعة تقريبا جاءت السيارة التي حملتنا إلى مطار محمد الخامس ، وفي الواحدة أقلعت إلى القاهرة التي وصلناها بعد انبلاج النهار وشروق الشمس ، ودعت الزميل الذي رافقني في الرحلة ، وكان بعض أولادي في انتظاري ، حيث قطعنا الطريق إلى المجد عائدين بعد رحلة حافلة وجميلة مع ما عانيته من آلام خاصة !

لا بد من صنعا !

مليحة عشيقاها العلم والأدب ؟

صنعا تناديك من أجل باكثير ..
وكان على أن ألبّي النداء مهما كانت المشقّات ، فباكثير الأديب العربي المسلم الذي غني لأمته أعذب الغناء وأشجاه ؛ يستحق أن أذهب إلى بلدته في حضر موت باليمن السعيد ، وأرى بيته (دار السلام) ، وأسعد بتحويله إلى متحف قومي يضم متعلقاته الشخصية وصوره مع أعلام زمانه في مصر وخارجها ؛ فضلا عن كتبه ومخطوطاته ، وأرى بيوت (الكثيريّين) وما أكثرها في مدينة سيئون ، وأقف على الأماكن التي ارتبط بها ومعها ، ومنها مسجد قيدان الصغير الذي كان يؤدي فيه الصلوات الخمس ، ثم أجول في الأحقاف ، ومدنها وقراها ، وأرى عالما مربوطا بالتاريخ والجغرافيا ، وله في حضارة الإسلام نصيب غير هيّن .
فرحت عندما عرفت أن الدخول إلى اليمن بدون تأشيرة . شكرت العبقري الذي ييسّر دخول بلاده دون تعقيدات ، ويجعل على من يريد الإقامة أكثر من شهر مخاطبة الجهات المعنية لتذلل له المسألة .. ارتبطت التأشيرة في وجداني بأمور غير طيبة ، منها التعقيدات البيروقراطية ، والزحام في الطوابير ، والمنّ والأذى من جانب كثيرين ؛ ليس أصحاب السفارات والقنصليات وحدهم ؛ بل من جانب المصريين الذين يعملون عندهم ، يستوي في ذلك من يعملون في قنصليات عربية ومن يعملون في قنصليات أجنبية ، بعض القنصليات العربية وخاصة في شمال إفريقية تبدو أقرب للسماحة وروح المودة ، أما في بقية البلدان العربية فحدث ولا حرج !

الترانزيت

قام نجلي محمد بحجز التذكرة ذهابا وإيابا ، ولم يتنبه إلى مشكلة ظهرت فيما بعد ، وهي الرحلة الترانزيت ! كيف؟
كان الذهاب إلى صنعاء ومنها إلى سيئون معضلة ، سألت بعض من سافروا إلى اليمن : كم ساعة تستغرقها الرحلة إلى صنعاء ؟ قالوا : حوالي ثلاث ساعات . وسألت كم تستغرق الرحلة إلى سيئون ؟ قالوا : نحو ساعة ! قلت في نفسي حسنا ! أربع ساعات يمكن احتمالها في مثل ظروفي الصعبة ، وحين قرأت الحجز الذي قدم به نجلي من القاهرة إلى القرية حيث أقيم (نحو مائتي كيلو متر) وجدت أن الرحلة تستغرق إلى صنعاء سبع ساعات تقريبا . وساورني القلق ، وقلت لعله خطأ في طبع التذكرة أو بيانات الحجز ، لأن بيانات الحجز إلى سيئون معقولة حيث حددت الرحلة بأنها تستغرق ساعة ..
وعندما سألت أحد الأشخاص عن فترة الانتظار الطويلة ست ساعات على الأقل بين الرحلتين ، قيل لي : إنهم في صنعاء سيأخذونك إلى الفندق الخاص بالمطار ويستضيفونك حتى يأتي موعد الرحلة الداخلية .. فقلت في نفسي لا بأس . لقد حلت المشكلة . . واستسلمت للأمر الواقع !

في يوم السفر ؛ رافقني نجلي أحمد إلى المطار، قاد السيارة لأني لم أعد قادرا على القيادة ، وكان معنا أحد الشباب من الأقارب . قدمت التذكرة للصعود إلى الطائرة .. لم تكلمني الموظفة عن الرحلة ولا ما يمكن أن يحدث في الترانزيت ،ومن إجهادي نسيت أن أسألها ، وتوجهت إلى بوابة الطائرة .

أسعار الشاي

بدا لي أن أتناول قدحا من الشاي قبل الصعود ؛ بعد أن تناولت لقيمات حملتها معي من المنزل ، ذهبت إلى مقصف المطار ، وطلبت الشاي ، فإذا بالعامل يعتذر ، ويقول إنه لا يوجد سوى الشاي الأخضر . قلت له : إنني فلاح تربيت على الشاي الأحمر . فاعتذر ، وأخبرني أنه يمكن أن أصعد إلى الدور العلوي فالمقصف هناك به شاي أحمر . ولكن العامل اعتذر أيضا عن عدم وجود شاي أحمر ، لأنه لا يوجد غير الشاي الأخضر ، واقترح أن يضع لي منه تذكرة إضافية لكي يكون الشاي شبيها بالأحمر ، أو أشرب نسكافيه . سألت عن سعر النسكافيه فقال لي : ٢٥ جنيها مصريا ! فسألت بالتبعية عن ثمن الشاي فقال :١٢ جنيها ! وهنا قلت له : شكرا جزيلا ، واعتذرت عن تناول أي شيء ! ولكنه - يا للغرابة - قال لي : إنهم سيجلبون من أجلي تذكرة من الشاي الأحمر بطريقة ما ، قبلت ودفعت الجنيهات الاثني عشر ، وتساءلت في داخلي : هل يخضع مثل هذا المقصف للقانون أو للأسعار العالمية التي يتحدثون عنها دائما في معرض المقارنة مع غيرنا ؟ ثم توجهت إلى باب الطائرة .

الطائرة مكتظة

كنت أتصور أن عدد المسافرين قليل ، فبعد الشقة يجعل التفكير في السفر أمرا صعبا ويقلل عدد من يفكرون فيه ، ولكن الطائرة كانت مكتظة ، وأعلن قائدها أن الرحلة ستتجه أولا إلى مطار الريان في مدينة المكلا عاصمة حضر موت ، وأن الرحلة ستستغرق ثلاث ساعات وبعض الساعة ، وعرفت بعدها من جيراني في المقعد أنها ستمكث في المطار حوالي ساعة ثم تقلع إلى صنعاء وتستغرق ساعة أخرى ، وبذلك يكون الوقت الذي تضمنته بيانات الرحلة صحيحا إلى حد كبير ، ومعنى ذلك أنني سأصل إلى صنعاء مع منتصف الليل تقريبا وهو ما حدث بالفعل .

معظم ركاب الطائرة من حضر موت ، وكثير منهم جاء إلى أرض الكنانة للاستشفاء ، فأسعار العلاج في مصر بالنسبة لليمن تبدو معقولة ، فضلا عن وجود المتخصصين ، وفي السياحة العلاجية فوائد كثيرة للطرفين ، وليت القوم في قاهرة المعز يوسعون فرصة العلاج في الأقاليم مثل الإسكندرية والمنصورة ، لتكون دائرة التعارف والتبادل الاجتماعي والإنساني أكثر وأرحب ، ليس لليمنيين وحدهم ولكن لكل العرب والقادمين من البلاد الإسلامية . مع القضاء على عناصر الاستغلال والانتهازية والفهلوة التي تذهب بالجهود الطيبة ، وتفسدها .

اليمن فيها نفط

في مطار الريان بالمكلا ، جلسنا في الطائرة حتى صعد إليها الركاب الجدد المتوجهون إلى صنعاء ، وجلس بجواري شابان في العشرينيات ، أخبراني أنهما من صنعاء ويعملان في مجال الغاز أو النفط . أول مرة أعلم أن اليمن فيها غاز ونفط .. فرحت في داخلي ، وكنت قد سمعت منذ سنوات أن اليمن يعوم على بحيرة من

البترول ، ولكنها لم تستغل بعد ، تمنيت لأهل اليمن أن يعوضوا سنوات العناء التي أشار إليها البردّوني في مطولته :

ماذا أحدّثُ عن صنعاء يا أبتِ مليحةٌ عشيقاها السلُّ والجربُ

فهي اليوم مليحة تتزين ، وتعالج السل والجرب بأساليب كثيرة ، وتتعدد فيها المدارس والجامعات والمستشفيات والمؤسسات المختلفة ، فضلا عن شق الطرق ورصفها واستيراد السيارات الحديثة . ويمكن القول : عشيقاها العلم والأدب ؟

الشابان اليمنيان اللذان جلسا بجواري تكلما معي في موضوعات شتى ، وعندما تطرق الحديث إلى القات حيث كانا يحملان لفافة منه ، قالا : إن مصر تحكم بالسجن المؤبد على من يحمله ، ولكنه هنا مسموح به ، ويتناوله القوم جميعا . ضحكت وسكت ولم أحاول أن يسترسلا في الحديث ، وكانت الطائرة توشك على الهبوط في صنعاء .

وكانت ليلة من العذاب غير مسبوقة ؛ بدءا من الجوازات حتى ركوب الطائرة الثانية بعد ست ساعات تقريبا !

عذاب في صنعاء

قدمت جوازي إلى الموظف ، فقلب فيه ثم كتب كلاما على الحاسوب ، وطالت وقفتي في انتظاره ، ورأيته ينادي على شخص آخر يبدو أعلى رتبة منه ويسلمه جوازي ويتبادلان كلاما باللهجة المحلية لم أفهمه ، فأخذني الرجل الثاني وانتحي بي جانبا ، ثم سألني عن سبب الزيارة ، والمدة التي سأقضيها ، وكان في خلال سؤاله يقلب في صفحات الجواز ، وأخيرا قال للموظف ما معناه أن الجواز ممتدّ لسنتين أخريين ، فقام صاحبنا بختمه وتسليمه لي ، وقال لي صاحب الرتبة الأعلى : إن عليّ أن أذهب إلى الترانزيت وسيتصرفون معي . كنت مشغولا بحقيبتي التي تحمل أغراضي الشخصية ، هل سأتسلمها ، أو ستبقى لديهم لتشحن في الطائرة المتجهة إلى سيئون ؟ وسألت هنا وهناك حتى عثرت على أحد الموظفين ، وقال لي : اطمئن . الحقيبة ستصل إلى سيئون وأتسلمها من هناك .

وخرجت إلى الترانزيت كما أشار صاحب الرتبة الأعلى ، كنت أسير أمام المطار أحسست بلفح البرد القارس ، مضيت متعبا مكدودا متألما حتى دخلت إلى الترانزيت فلم أجد من أسأله . مكاتب مظلمة أو مضاءة إضاءة خافتة ، وخالية من الموظفين ، أو بعضهم أغلق على نفسه الباب ، وراح في نوم عميق .. لم أجد أحدا يدلني على مكان انتظار طويل ، أو فندق المطار الذي سمعت عنه . قال لي أحد الجنود : هناك مصلى في نهاية القاعة تستطيع أن تتمدّد فيه .

الجلوس في المصلى

كان عليّ أن أحتمل مهما كانت الظروف . في أيام تجنيدي عقب هزيمة ٦٧ حتى تسريحي بعد حرب رمضان في عام ٧٤ رأيت ليالي أشد سوادا من قرن الخروب كما يقال ، ولكني أيامها كنت شابا أستطيع التحمل ، أما الآن فقد صرت شيخا هرما محاصرا بالمتاعب الصحية ، وساقاي لا يقدران على السير بسبب آلام المفاصل ..

لا مفرّ إذا من الجلوس في المصلى . كان مفروشا بسجادتين كبيرتين عليهما نقوش رمادية ، وفي نهايتيهما بجوار الحائط مكتبة صغيرة عليها مجموعة من المصاحف ،

وبجوارها إشارة إلى اتجاه القبلة . وضعت عصاي التي أتوكأ عليها والكيس البلاستيك الذي أضع فيه حقيبة يد صغيرة تحمل أوراق السفر، وكتابا أطالع فيه ، وبعض الفاكهة ، مددتُ ساقيّ ، وأسندت ظهري إلى الحائط . كان هناك أحد الأشخاص ينام على طرف السجادة الأولي . يبدو أنه من موظفي المطار أو العمال أو الجنود المكلفين بالحراسة ، ولعله ينتظر نوبته . أحسست أن البرد يزداد شراسة ، وجسمي كله في حالة اضطراب ، وبطني تقلب ما فيها ، وتكاد تخرجه من حلقي ، خلعت السترة التي أرتديها وطويتها ووضعتها تحت رأسي وحاولت أن أغمض عيني من خلال تمثيل دور النائم ، ولكن الزمهرير لا يطاق . رحت أتقلب يمينا وشمالا وظللت على هذه الحال نحو ساعة ونصف الساعة سمعت بعدها صوت جندي ، عرفت فيما بعد أنه من المكلفين بتشغيل جهاز تفتيش الحقائب عند السفر، وهو يهتف : حاج .. حاج .. خذ هذا ، وكان يدفع معطفه الثقيل الذي يرتديه أمام الجهاز حيث تبدو القاعة التي يجلس فيها ذات تكييف دافئ لأن بداخلها موظفي الجوازات والمسافرين . قلت شكرا، دون أن أستطيع النظر إليه لمعرفة شكله ، ولكني أحسست أنها رحمة من الله أرسلها إلي ّ، وضعت المعطف على نصفي الأسفل ـ ولكن البرد لم يتراجع ، وجسمي لم يهدأ ، وأخيرا تنبهت إلى أنه يمكنني أن أستفيد بالسجادة ألتي أنام فوقها ، فانتقلت إلى طرفها الثاني وطويت جزءا منه على جسمي ، ووضعت المعطف على رأسي والجزء الأعلى ، وبدأت أستشعر شيئا من الدفء النسبي ، وبعد ساعة تقريبا نظرت في الساعة لأجد الفجر قد أوشك ، فقمت وتوضأت ، وتلوت الوِرْدَ اليومي من القرآن الكريم ، ورأيت شخصا جالسا يقرأ القرآن أيضا ، ولكنه توقف بعد أن رآني قد انتهيت من التلاوة وسألني : أنت مصري ؟ وأخذنا نتعارف ونتحدث ، وعرف أنني ذاهب إلى سيئون فأخبرني أنهم سينادون على الطائرة بعد صلاة الفجر .

قال لي : إنه يعمل سائقا على سيارة أجرة ينقل المسافرين من المطار إلي العاصمة ، وعرفت منه بعض التفاصيل حول العملة والأسعار ، وأقيمت صلاة الفجر ، وبعدها حملت المعطف إلى صاحبه ، وشكرته ، ودخلت إلى صالة السفر ، وأنهيت الإجراءات ، ولمحت شخصا يرتدي ملابس الهنود أو يشبههم .. أحسست أنه قادم إلى سيئون للمشاركة في ندوة باكثير . قلت له ونحن ندخل الطائرة : ندويّ ؟ ابتسم وقال بالفصحى : نعم . قلت له : لعلك قادم إلى سيئون لحضور ندوة باكثير؟ قال : نعم .وتعارفنا ، أخبرني أنه قادم من بنجلاديش . وذكّرته أنني زرت شيتاجونج – العاصمة التجارية لبنجلاديش - عام ١٩٩٣م لحضور مؤتمر أدبي في الجامعة الإسلامية هناك ، فأخبرني أنه من شيتاجونج ، وأنه شهد المؤتمر وهو طالب في هذه الجامعة ، وكان من أبرز الحاضرين في ذلك المؤتمر العلامة الراحل سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي الداعية الإسلامي الهندي الشهير .

السعيدة

كانت الطائرة صغيرة تشبه الزورق ، على كل من جانبيها كرسيان ضيقان ، ومن المفارقات أن الطائرة تحمل اسم شركة طيران جديدة اسمها السعيدة ، وهي غير

الشركة الحكومية التي تحمل اسم اليمنية ، وقد قطعت بنا المسافة في نحو الساعة ، وهبطت أخيرا في مطار سيئون .
ومطار سيئون صغير نسبيا ، فهو مطار محلي ، ويبدو أنه أنشئ في عهد ما قبل الوحدة اليمنية ، وإن كانت دخلت عليه بعض التحسينات ، وقد استقبلنا في المطار بعض الشباب الذين علقوا على صدورهم شارات المؤتمر ، ولكن المفارقة أننا اكتشفنا بعد استقبالنا في صالة كبار الزوار وكان معنا بعض علماء الدين الإسلامي اليمنيين ، أن القوم جاءوا لاستقبال ضيوف مؤتمر آخر حول الشريعة والوسطية ، ينعقد في سيئون أيضا ، في الفترة نفسها التي ينعقد فيها مؤتمر أو ندوة باكثير (٢٢-٢٣ من ديسمبر ٢٠١٠م) ، تحت رعاية جامعة حضر موت ، وقد تم تدارك الأمر، حيث عثروا على مُستقبلينا ؛ الذين كانوا بالفعل في جانب آخر من المطار ، ينتظروننا ..
كان الجو في سيئون دافئا . أحسست بحالة من النشوة أذهبت عني زمهرير الليل الذي كاد يقتلني .. ركبنا إلى الفندق ، واسمه سيئون بلازا ، وقد لاحظت أن معظم فنادقنا العربية تحاول أن ترفع من قدرها بإضافة اسم (بلازا) إلى الاسم العربي ، ولو أنهم قالوا قصر سيئون مثلا ، لكان ذلك أفضل ، ولكن الواقع العربي يشير إلى مهانة اللغة العربية أمام اللغات الأجنبية بسبب هزيمة الأمة هزيمة نفسية ، وانبطاحها أمام الثقافات الوافدة ، ولا أريد أن أقول بسبب إحساسها بالدونية .. انظر مثلا إلى شوارع القاهرة ، بل صحفها ومجلاتها وقنواتها التلفزيونية وموجاتها الإذاعية وما تحمله من مصطلحات أجنبية ومفردات غريبة على طريقة الفرانكو آراب التي شاعت في الخمسينيات من القرن الماضي ، مع أن الأمم الحية تعتز بلغتها إلى درجة أن أبناءها في الخارج وخاصة في المناسبات الرسمية لا يتكلمون إلا بلغاتهم ، بل لا يردون في بلادهم على السائحين أو الزائرين ما لم يتكلموا بلغتهم !

دار السلام

كان على أن أستريح وأتدفأ بعد رحلة الزمهرير التي قضيتها في مطار صنعاء ، وفور أن دخلت حجرتي بالفندق ؛ ألقيت بنفسي على السرير ولم أستيقظ إلا بعد ساعتين تقريبا ..في بهو الفندق عرفت أن صديقي الدكتور محمد أبوبكر حميد وصل قبلنا بيومين تقريبا ، وأنه في منزل باكثير (دار السلام) يجهز للافتتاح الرسمي ، لقد بذل جهدا عظيما على مدى ثلاثين عاما من أجل باكثير وتراثه ، فقد جمع متعلقاته الشخصية ومخطوطاته ونشر شعره في دواوين ، كما نشر رواياته وقصصه التي لم تظهر في حياته ، وفرّغ الأحاديث التلفزيونية والإذاعية التي لم تطلع عليها الأجيال الجديدة على الورق ، بحيث يمكن القول : إن باكثير صار حاضرا بشحمه ولحمه أمام العيون ، يراه الناظر من كل الجهات ، الأدبية والفكرية والشخصية .
عرفت الدكتور حميد عن طريق صديقنا المشترك وصديق باكثير الحميم الشاعر الكبير الراحل عبده بدوي - رحمه الله – وتلاقينا على المستوى الفكري والأسري ؛ طوال ثلاثين عاما ، وما زالت المعرفة أواللقيا ممدودة بمشيئة الله .
بعد دقائق كانت السيارة تحملني إلى دار باكثير أو دار السلام ، رأيت هناك الدكتور حميد وجمعا من أسرة باكثير ومحبيه وبعض المسئولين ، ورأيت ملامح

المعروضات والمتعلقات الشخصية التي سيراها الجمهور بعد الافتتاح ، والتقيت بشاب تبدو عليه علائم النشاط والحيوية ، وفرحت به عندما علمت أنه ابن صديقي الراحل أحمد عبّاد الذي عرفته في التسعينيات بالرياض ؛ وكان من أصدقاء باكثير ومحبيه – يرحمهما الله . كان أبو بكر أحمد عباد الذي يعمل بوزارة الإعلام ويدرس الماجستير من أنشط العاملين في إعداد متحف دار السلام ، وندوة باكثير ، وكان له معي فيما بعد لقاءات طويلة ومروءة لا أنساها .

جمهور حاشد

عدت إلى الفندق وبعد تناول الغداء صعدت إلى غرفتي محاولا أن أغفو بعض الوقت ، ولكن القوم لم يمهلوني كثيرا ، فقد وجدتني مدعوا للافتتاح ، وأخبروني أن وزير الثقافة في بيت باكثير (دار السلام) . لم تستطع السيارة أن تقترب من البيت ، كانت الساحة أمامه مملوءة بالجمهور الذي كان يؤدي رقصة شعبية على وقع الطبول ، دار السائق من مكان آخر حتى اقترب من الباب الذي احتشد بجمهور يتزاحم من أجل الدخول . لمحني أحد الجنود الذي رآني من قبل عندما أتيت قبيل الظهر ، فأفسح لي الطريق ، ودخلت لأجد الحفل قد بدأ ، وبعد عدة فقرات وجدت عريف الحفل ينادي على بعد أن أخبر الجمهور أنني سأتحدث في كلمة قصيرة . لم أكن مستعدا للكلام ولا جاهزا لأنه لم يكن هناك سابق ترتيب ، ولكن صديقي الدكتور حميد كان من وراء هذا الترتيب . لم أجد مفرا من الحديث عن باكثير ومكانته ، والحلم برؤية موطنه منذ أربعين عاما أو يزيد . شدت كلمتي الأنظار ، وعانقني الوزير بعدها ، وسلم على الحاضرون وخاصة رئيس جامعة عدن والزملاء ..

جلس معي شاب من طلاب كلية الشريعة . سألني أسئلة كثيرة ، وأجبته . عرفت أن أباه صديق قديم لصديقي الأديب الكبير وديع فلسطين ، واسمه سالم زين باحميد ، وأرجو أن يكون الاسم صحيحا كما وعته ذاكرتي ، في المساء قابلني شقيقه الأكبر ورغب أن أقابل أباه وأسلم عليه في منزله ، لأنه مريض ولا يمكنه الحضور إلى الندوة أو الفندق ، واتفقنا على تحديد موعد بين الأنشطة في اليومين التاليين ، وقد عاد في أثناء الجلسات البحثية وأكد على اللقاء ، واتفقنا على أن يكون في المساء ، ولكن اللقاء لم يتم بسبب ذهابنا إلى إحدى المدن القديمة بالقرب من سيئون !

وزير الثقافة

في الصباح ، أول أيام الجلسات البحثية ، كانت جلسة الافتتاح تكلم فيها عدد كبير من المسئولين في جامعة عدن المثقفين والسلطة المحلية . وحضر وزير الثقافة الدكتور محمد أبوبكر المفلحي ، وشارك في الجلسات على مدى اليومين ، وشاهد المناقشات ، وهو رجل جم التواضع والأدب ، وقريب من الناس ، وقد تحاور معه عديد من الحاضرين في قضايا مختلفة ، وتحدثت معه في أمور ثقافية كثيرة ، وواضح أنه متابع لما يجري في مصر من أحداث ثقافية ، وقد جاء إلى القاهرة وشارك في مؤتمر باكثير الذي عقدته رابطة الأدب الإسلامي في يوليه ٢٠١٠م مع وزراء عرب آخرين للثقافة ، ويحسب له أنه قرر نشر أعمال باكثير الكاملة في أربعة عشر مجلدا ، صدر منها مجلدان بالفعل ، وسيتم توزيعها على المكتبات العامة والجامعات والمؤسسات

الثقافية ، ويفكر في نشر هذه الأعمال من خلال طبعة شعبية بحيث تكون متاحة للمواطنين البسطاء والطلاب .

كان التلفزيون الرسمي وإذاعة صنعاء وإذاعة سيئون المحلية يذيعون وقائع المؤتمر على الهواء مباشرة ، واستمرت إذاعة سيئون في إذاعة الجلسات ونقلها على الفور حتى إعلان البيان الختامي وقراءة التوصيات .

الجلسات البحثية كانت جيدة ، وكان الحوار حول الأبحاث موضوعيا في أغلبه ، وساخنا في بعض الأحيان ، ولكنه كان مفيدا في كل الأحوال . وقد استأثر مفهوم التناص وعلاقته بالاقتباس والتضمين بجدل ملحوظ ، لأن الكلام حوله أثير في أكثر من جلسة من الجلسات التي غطت أبحاثها دراسة إنتاج باكثير الأدبي في السيرة الذاتية والرواية والمسرح والشعر .

كان هناك سبعة عشر بحثا عرضها أصحابها في جلسات البحث ، وحظيت بتعليقات مهمة ، ومن حسن التنظيم أن جامعة عدن طبعت هذه الأبحاث في عدد خاص من مجلتها الدورية المسماة " التواصل " وكانت بين يدي الجمهور والباحثين في أثناء المناقشات .

وكانت الملاحظة التي أشرت إليها في أثناء إلقاء بحثي ورئاستي للجلسة الختامية ، أنه من الضروري أن يكون هناك حضور – ولو رمزي – للطلاب من المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية ؛ لسماع عرض الأبحاث والمناقشات ، ليتعود الطلاب على الجو العلمي ، وسماع الرأي والرأي الآخر ، ما يحفزهم أو يحفز بعضهم على الدخول إلى المجال البحثي ، والتشوق للدراسة الأكاديمية ، فالاكتفاء بالمناقشة بين الباحثين لا يحقق الهدف الأمثل من تلك الندوات .. لقد حضر جلسة الافتتاح عدد من الطلاب والطالبات اكتظت بهم القاعة ، وكان من الممكن أن يستمروا في حضور الجلسات على مدى يومي الندوة .

رحلة إلى شبام

في المساء عقب انتهاء الجلسات أعلن الدكتور مسعود عمشوش عرّاب المؤتمر ومحركه الأساسي ، عن رحلة إلى شبام ، وهي مدينة تاريخية من أقدم مدن العالم ، وفيها عرف الناس أول ناطحات سحاب أقيمت في الدنيا ، والمفارقة أن هذه الناطحات أقيمت بالطوب اللبن ، ومع ذلك لم تسقط أو تزل . هناك بيوت عمرها أكثر من خمسمائة عام ؛ وما زالت صامدة وقوية ، وتحقق التكييف الهوائي الذاتي : في الصيف تكون باردة ، وفي الشتاء تكون دافئة ، ولكن بعض الأغنياء ؛ لمزيد من الرفاهية أدخلوا إليها أجهزة التكييف الصحراوية ، والمدينة على كل حال مقصد للزوار ، وتبعد عن سيئون حوالي عشرين كيلومترا ، وتحيطها المزارع والنخيل ، وتروي بمياه السيول أو المساقي ، وتبدو وكأنها على ربوة عالية (ترتفع عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر تقريبا) ، وبها مسجد هارون الرشيد ، وقد أقيم في أواخر عهد الدولة الأموية ، وجدده العباسيون ، وما زال قائما حتى اليوم ويصلي فيه الناس بوصفه المسجد الجامع ، وهناك أكثر من عشرة مساجد أخرى في شبام ، وعرفت فيما بعد أن كثيرا من العائلات التي تنتسب إلى شبام هاجرت إلى الشاطئ ، وخاصة

مدينة الشحر(على بعد أربعمائة كيلو تقريبا) للعمل في التجارة أو الصيد ، ومنها عدد من كبار التجار والباحثين وأساتذة الجامعات المرموقين الآن .
وينسب إلى شبام تاريخ حافل من خدمة الإسلام والمسلمين ، ففي صدر الإسلام خرج منها عدد كبير من الدعاة المجاهدين الذين شاركوا في نشر الدعوة الإسلامية ، وأسهموا في الفتوح وخاصة في الشام ومصر .
وشبام مسورة بسور عال يتراوح بين أربعة وتسعة أمتار ، ولها بوابة واحدة تسمى (السدة) في الجهة الجنوبية ، يدخل منها أهلها ومن يزورونها، وقد أخذت أشكالا متعددة على مدى التاريخ حتى وصلت إلى شكلها الحالي .وتعد شبام مركزا تجاريا منذ القدم فهي محطة تصدير لأهم منتجات حضر موت ما قبل الميلاد حتى القرن الرابع وهو اللبان ، وكانت حتى ثلاثينيات القرن الماضي سوقا تجاريا مهما يستقبل أكثر من ألف من الجمال محملة بالبضائع المتنوعة شهريا ، وتنقل منها الحبوب والمنسوجات إلى نجران وصنعاء والمكلا والبيضاء .
وقد أدرجتها منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٨٢ ضمن قائمة التراث الإنساني الدولي ، وزارها المدير العام لليونسكو أحمد مختار أمبو عام ١٩٨٤.

سوق صغيرة

عدنا بعد صلاة المغرب إلى سيئون ، كان القوم من الزملاء قد استطاعوا أن يصعدوا إلى الأدوار العليا في بعض المباني في شبام ، ويروا نظام البناء من الداخل ، أما أنا فلم أقدر بسبب ظروفي الصحية ، وبقيت مع الدكتور طه حسين الحضرمي الذي سماه أبوه على اسم طه حسين المصري تيمنا به ، جالسين في ساحة جامع هارون الرشيد حتى يعود الزملاء ، وطه حسين الحضرمي باحث شاب في الأربعين من عمره ، ويهتم بالمناهج النقدية الحديثة التي تلج إلى النص من خلال عتباته ، أو الصيغ الأسلوبية في بنائه ، ويعتز بهويته العربية الإسلامية .
رأينا في بعض الساحات التي تقف فيها السيارات سوقا صغيرة للخضروات والفاكهة ، والسمك المجفف الذي يسمونه (لخم) ، ويعد من الغذاء الجاهز الذي يلجأ إليه الناس حين لا يجدون سمكا طازجا ، أو حين يضيق الوقت بهم فلا يجدون غيره ، فيعدونه على الفور من خلال طبخات سريعة متنوعة .
في سيئون تجولنا في السوق لنشتري بعض الملابس الداخلية . الأسعار هناك مرتفعة ، أغلى من السعودية ومصر، والريال اليمني يهبط بصورة شبه يومية .. في عام ١٩٧٨ ؛ كنت في السعودية ، وكان الريال اليمني يومها يعادل الريال السعودي تقريبا مع تفاوت طفيف . اليوم : خمسون ريالا يمنيا = ريالا سعوديا واحدا ، ومائة ريال يمني = ثلاثة جنيهات مصرية تقريبا ، أما الدولار الأميركي فتقترب قيمته من مائتي ريال يمني .
لم نشتر شيئا ذا بال ، وعدنا إلى الفندق للعشاء والمسامرات !وصعدت إلى غرفة نومي بعد أن استعرت جهاز كمبيوتر من صديق ، لأطالع بريدي الإلكتروني ، وأكتب رسالة إلى أولادي في مصر أطمئنهم على .

الدان .. دان

لم أستطع متابعة النشاط المسائي الذي بدأ عقب العشاء ، فقد كان القوم يعدون حفلا ينتمي إلى الفولكلور الشعبي على حافة مسبح الفندق ، وقد حضر المشاركون في ندوة باكثير ، ومعهم الوزير ورئيس الجامعة ، وجلسوا جميعا أرضا على البساط المفروش، واسندوا ظهورهم إلى الوسائد المرصوصة بانتظام بجانب الحوائط ، وكان معظمهم في زيهم الشعبي ، قميص في الجزء الأعلى ، ثم رداء يلف المنطقة السفلى تتعدد تسميته من منطقة لأخرى ، فهو يسمى تارة بالفوطة ، وأخرى يسمى بالحوكة ، ولكنه في كل الأحوال يتشابه مع زي أهل إندونيسيا وخاصة جزيرة جاوة ، التي ترتبط بروابط تاريخية ونسب ومصاهرة مع الحضارمة .

وفي حفلة الدان دان يتبارى الشعراء الشعبيون في نظم المقطوعات القصيرة الفورية التي تعبر عن فكرة خلقية أو دينية أو تقاليد محلية ، وتشبه حفلات الدان دان حفلات الزجل الفوري التي تنقلها بعض القنوات اللبنانية باللهجة الشامية ، ومعظمها يصب في التأكيد على القيم العليا الموروثة في العلاقات الاجتماعية بين أفراد الشعب ، وتحث على النبل والمروءة والشهامة ، وتحذر أو تستنكر قيم الانتهازية والكذب والتنكر لأداء الواجب وتحو ذلك ..

وبصفة عامة تجد هذه الاحتفاليات الشعبية إقبالا كبيرا من مختلف الطبقات ، وتلقى صدى طيبا في النفوس لأنها تعبر عن طبيعة الشعب الطيب الميال للتعاطف والتكاتف والتعاون في السراء والضراء .

مفاهيم شعبية

ومن نماذج الدان دان أنقل بعض هذه المقطوعات التي تعبر عن مفاهيم شعبية عميقة وتنسب إلى شاعر يدعى حسن عبد الله باحارثة ..

يقول تحت عنوان الزين والشين:

ضيوف للمنزل بلا استئذان يأتونك
ما يطلبوا منك ضيافة بس يريدونك
تجلس معاهم دائما وتفتح عيونك
ضيوف حبّوبين أغلبهم يحبونك
وحسب ذوقك حين تطلبهم يلبّونك
إن كنت هاوي علم يهتمون بشئونك
وإن كنت هاوي موعظة فيها يفيدونك
وبكل ما يجري في العالم يوافونك ..

الطريق إلى تريم

المسافة بين تريم وسيئون حوالي خمسون كيلو مترا ، وكان اليوم الثالث – يوم الجمعة –موعد زيارتها ، فهي مدينة أثرية ذات تاريخ ، ومن ناحية أخرى فقد اختارتها الأمم المتحدة لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠ م ، ومن ناحية ثالثة فهي تضم آثارا ينبغي على من يزور حضرموت أن يشاهدها .

بدأنا التحرك في التاسعة صباحا نحو تريم ، وصلنا في العاشرة تقريبا ، وفي الطريق رأينا قرى ومدنا صغيرة عديدة ، وبدت جميعا كما لو أنها في بطن الجبل الذي يحيط بها من كل الجهات ، ويبرز بجوارها الزراعات الخضراء المتنوعة ،

سواء تلك التي تعتمد على المياه الجوفية أو السيول أو مياه الأمطار الموسمية ، وهناك النخيل الذي يملأ الأرجاء وتشتهر به المنطقة ، ويتخذون منه أعمدة للبيوت وأسقفا للمنازل ، وبجوار النخيل تظهر أشجار السدر التي لا يعرف السوس طريقا إليها ، ولذا نجحت أن تكون أسقفا طويلة العمر لمدة تصل إلى خمسة قرون أحيانا ؛ هي عمر البيوت التاريخية ذات الطبقات المتعددة التي تصل أحيانا إلى ثماني طبقات كما في بيوت شبام التي سبقت الإشارة إليها ، فأشجار السدر تكتسب القوة والعمر الطويل من كونها لا تعرف السوس الذي ينخر قلب الخشب عادة .

وتتخذ تريم طابعا خاصا يميزها عن بقية المدن والقرى المحيطة ، فأهلها وشبابها خاصة ؛ لهم طابع خاص في الملابس ، وحلاقة الشعر وتسريحه بطريقة الفرق على الجانبين ، حيث ينزل الطرفان ملتويان إلى مؤخرة الرأس كأنهما موجتان ، كما يتميز الكبار بارتداء غطاء مميز للرأس به نقوش وزخرفة واضحة .. ويلاحظ أن بشرة أهل تريم فيها سمرة غامقة غالبا .

مكتبة الأحقاف

ومن أهم معالم تريم مكتبة الأحقاف ، وهي تضم مخطوطات متنوعة ، كان يملكها الأهالي في مكتباتهم الخاصة التي اشتهر بها الحضارمة ، وقد استجابوا لنداء إنشاء المكتبة ، فقدموا ما لديهم ، وقد خصصت السلطات هناك مكانا للمكتبة على ظهر أحد المساجد في الميدان الرئيسي للمدينة مفروشا بالسجاد ، ويخلع الزائر حذاءه على العتبة عند دخول المكتبة ..

وواضح أن المكتبة تحظى بنوع ملحوظ من الحفاوة والاهتمام ، والمخطوطات منسقة ومفهرسة ومرتبة في دواليب بعضها مفتوح والآخر له أبواب زجاجية ، وتشمل عناوين : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والتصوف ، والأدب واللغة ، والطب والعلوم .... الخ ، وبالمكتبة قسم يضم كتبا مطبوعة حديثا واضح فيه الاعتناء بما يخص اليمن من دراسات ومؤلفات .

سجلت كلمة في دفتر الزيارات بالمكتبة ، تمنيت فيها جمع المخطوطات التي لدى المواطنين في شتى أرجاء العالم العربي ، وإقامة مكتبات متشابهة ، وأشدت بتنظيم مكتبة الأحقاف ونظامها ونظافتها .

خرجنا من المكتبة ، وتجولنا في بعض الشوارع والحارات ، ورأينا بعض المحلات الخاصة بالأعشاب والفواكه والخضروات والحلويات والصيدليات والتوكيلات والمكتبات غير ذلك مما يحتاجه الناس ، الشوارع مرصوفة ، ونظيفة ، وتمرق فيها السيارات القوية بسرعة ملحوظة تتناسب مع الطبيعية الجبلية الصعبة للمنطقة .. ولذا يندر أن تجد سيارات صغيرة ، وإن كانت الدراجات البخارية (الموتوسيكلات) تملأ الشوارع ، وتزعج بصوتها العالي المثير ، ولكنها وسيلة مواصلات شعبية ، توصل الطلبات والأفراد داخل المدينة .

مسجد المحضار

وصلنا إلى مسجد المحضار التاريخي ، وهو ذو طابع معماري خاص ، يتميز بمئذنته المربعة المرتفعة ، ويتدرج محيط المربعات من حيث المساحة فيضيق كلما ارتفعت المئذنة ، ويصل إلى رأسها الذي يتحول إلى برج صغير مقبب فوقه هلال .

بجانب المئذنة تقوم قبة صغيرة فوق عدد من الأعمدة، واللون يميل إلى الأخضر والأزرق .. أما واجهة المسجد فهي مليئة بالزخارف والنقوش ذات الطابع الإسلامي .

وفي تريم عدد من القصور والبيوت التي كانت تملكها الأسرة الحاكمة في القرون السابقة ، وهي مبنية كالعادة من الطوب اللبن ، ولكنها مزخرفة بالجير الأبيض والألوان الزرقاء ، ولهذه القصور والبيوت أسوار عالية تحمي مساحاتها الكبيرة نسبيا ..

صلاة الجمعة

قبيل صلاة الجمعة ؛ دعانا أحد أعضاء الندوة لتناول الشاي في بيته القريب من مسجد الجمعة . المنزل طيني ، نظيف ، مفروش بالسجاد ، وعلى جانب حوائطه بعض الحشايا حيث يجلس الضيوف أرضا . تناولنا الشاي بعد أن قدم أهل البيت الفول السوداني والفسفاس (اللب)، وهذا عادة موروثة ، واللب المصري له مكانة خاصة هناك ؛ حيث يعد أفضل الأنواع وأفخرها .

في صلاة الجمعة لاحظت قلة عدد المصلين نسبيا بسبب اتساع المسجد، وقلة عدد السكان من ناحية أخرى ، ويقرأ الناس في المصاحف حتى يقام الأذان الأول ، الذي يعقبه توشيح أو ترحيب يقوم به المؤذن حتى موعد الأذان الثاني وصعود الخطيب على المنبر . والخطيب يرتدي العمامة والجبة مثل علماء الأزهر الشريف .

كانت الخطبة تصب في إطار تنمية الأخلاق الخاصة أو الفردية ، وكان موضوعها تزكية النفس بمعنى تطهيرها ، ويرجع ذلك كما علمت إلى روح التصوف التي تسود المنطقة منذ زمان بعيد ، ولم تتطرق الخطبة من قريب أو بعيد إلى الواقع أو ما يعج به من أحداث .

في تريم يكثر المنتسبون إلى آل البيت ، ويسمونهم هناك السادة ، وينادون أعلامهم بالحبيب . وقد أشار بعضهم في طريق العودة عند الخروج من تريم إلى منزل الحبيب الجفري الداعية التلفزيوني الشهير في التلفزيونات المصرية والعربية ، وهؤلاء السادة لا علاقة لهم بشيعة إيران أو غيرها ، وإن كان بعض شبابهم قد أخذ – كما قيل لي – يتأثر بما يجري في الواقع المحيط ، ويتجه نحو العمل العام .

منذ إعلان تريم عاصمة للثقافة الإسلامية ،تدفق عليها السائحون والمستشرقون الأوربيون والأميركان ، وقد علمت أن بعض هؤلاء قد اشترى بيوتا في المدينة ليتخذها مقرا وسكنا ، ويتابع من خلالها دراساته وأبحاثه عن المنطقة .

العودة إلى سيئون

عدنا إلى سيئون ،وفي المساء أجرى تلفزيون عدن لقاء معي حول باكثير وأدبه استمر نصف ساعة ، كان اللقاء جيدا ، وأجراه المذيع عبد الله باكدادة على حافة مسبح الفندق .

وعقب العشاء حضر الدكتور طه حسين الحضرمي ومعه نسخة من جريدة الثورة اليمنية التي نشرت تفاصيل الجلسة الختامية لندوة باكثير ، وقضيت معه وقتا طيبا تناول ذكرياته في القاهرة وبعض ما يتعلق بي وبكتبي، ولحق بنا الدكتور يحيى الشعيبي الذي أهداني كتابه عن السياب ، وهو رسالته للدكتوراه التي قدمها إلى

جامعة الموصل بالعراق ، وجاء الدكتور مسعود عمشوش ليودعنا ومعه هدية صغيرة من " العسل " ولكنها كبيرة الدلالة ، وقد شكرته ، وبعدها انصرف الضيوف ، ونمت .

لا بد من صنعا

كانت العودة بعد وداع سيئون إلى صنعاء ، وهناك استقبلني الشاب أبو بكر عباد ذلك الشاب الطموح المهذب ، الذي أشرت إليه من قبل وكان قد سبق إليها . قام أبو بكر بحل مشكلات الحجز التي تسبب فيها بعض الموظفين ، وأوصلني إلى فندق المطار الذي قضيت فيه ليلة حتى الصباح . كان أبو بكر قد عاد إلي في المساء ليحملني إلى قلب صنعاء ، وأرى بعض معالمها من خلال السيارة ، ومررنا بأكبر شوارعها ، وهو شارع جمال عبد الناصر ، ورأينا المباني الأثرية وخاصة منذ العهد العثماني ، وبحثت هناك عن نوع معين من الدواء لم أجده في مصر، واشتريت بعض الأغراض التي استطاعت قدراتي الجسمية احتمال السعي إليها ..

ثم ذهبنا إلى أحد المطاعم الشعبية الشهيرة ، وتناولنا العشاء الحريف ، الكبد المقلية مع الفلفل والبهارات ، والخبز الساخن المميز الذي نسيت اسمه ، وبعده تناولنا الشاي ، وعدنا إلى الفندق .

وأقلعت الطائرة

في الصباح الباكر كنا نتأهب للإقلاع من صنعاء إلى تعز ومنها إلى القاهرة ، ولكن صنعاء دائما تسبب لي قلقا . بعد أن ذهبنا إلى باب الطائرة ، كان هناك اشتباك لفظي كاد يتطور إلى اشتباك بالأيدي بين بعض الركاب والموظفين ، والسبب كما عرفت فيما بعد ، أن الطائرة لن تقلع بسبب سوء الأحوال الجوية فوق منطقة تعز !

عدنا إلى صالة الخروج ثانية ،لا أحد يشفي غلة الناس ببيان عما ينتظرهم ! بعد ساعتين قال أحدهم من المتوقع أن تقلع الطائرة بعد ساعتين أخريين حالما يتحسن الجو . تناثر الناس على الكراسي نوما أو ثرثرة ، وبعضهم اتخذ من مصلى صغير مكانا للنوم ، وعند الثانية عشرة بعد الساعتين الأخريين ، بدأ الركاب يتجمعون أمام باب الصعود ، ودون إعلان في مكبر صوت أو غيره راح الركاب ينبه بعضهم بعضا ، ويوقظون النيام ليلحقوا بالطائرة ، لأن مكبر الصوت يبدو في عطل دائم !

وأقلعت الطائرة ، وهبطت في تعز ، ومنها أقلعت ثانية نحو القاهرة ، التي كانت حبلى بأحداث وتطورات ، عبرت عن نفسها في ثورة يناير العظيمة التي أسقطت الخوف والرعب والقهر !

لقد كنت على موعد صنعاء ، مع ما في هذا الموعد من متاعب وصعوبات في الذهاب وفي الإياب ، ولكن لابد من صنعا ..

غزة هاشم

قلوب دافئة وكسر الحصار ومواجهة الغزاة !

قبل نحو ثلاث سنوات أتيحت لي فرصة زيارة مدينة العريش بشمال سيناء ، لحضور مؤتمر أدبي هناك . كان الحديث عن رفح آنئذ عقب العدوان النازي اليهودي على غزة صاخبا ، وكانت آثار الحرب المدمرة التي شنها اليهود الغزاة القتلة لما تزل ساخنة على أرض الواقع ، وعلى الأقلام وصفحات الصحف وشاشات التلفزة ، وكان الطابور الخامس في مصر يتحدث عن كسر رجل الفلسطينيين والزعم أنهم يريدون احتلال سيناء..!! فكرت مع بعض الزملاء في زيارة رفح ورؤية المكان الذي تردد اسمه كثيرا في نشرات الأخبار تحت هدير القصف النازي اليهودي في أواخر ديسمبر ٢٠٠٨ وأوائل يناير ٢٠٠٩ م .

كان في ذهني أن أرى بوابة صلاح الدين التي أصبحت تفصل ما بين رفح الفلسطينية ورفح المصرية . وبالفعل ذهبنا مجموعة إلى رفح ومضينا في شوارع المدينة المتعبة ، ورأينا صور الوضع الأمني المتوتر حيث يقوم على رأس كل حارة من الحارات الموازية لجدار الفصل بين الرفحين وتتوسطه بوابة صلاح الدين ، موقع عسكري لمواجهة هجوم شعبي فلسطيني محتمل . عندما وصلنا إلى البوابة رأينا حائطا حجريا مرتفعا ، والبوابة قد سدت وفوقها يقف جنديان مسلحان اتجه أحدهما إلينا قائلا : ممنوع يا أفندي !

كانت البيوت من حول البوابة على الجانب المصري مقفرة وخربة وتبدو عليها علامات الهدم والبلى وكأنها لم تسكن من قبل . وكان هناك بعض المحلات المتفرقة تبيع بضائع محدودة منها محل يبيع بعض الأعشاب والتوابل ، دخلنا المحل لنشتري بعض البضاعة ، وعدنا إلى الشارع الرئيسي ، وجلسنا على المقهى نتناول بعض الماء والشاي حتى تأتي سيارة تحملنا إلى العريش مرة أخرى .

قبيل دخولنا إلى قلب المدينة اعترضتنا سيارة جيب نزل منها شخص يرتدي ملابس مدنية ومعه ثلاثة أشخاص آخرون ، وحملونا إلى مبنى جهاز أمني .. وكان انتظار وكان تحقيق ، وكان تهديد بالمحاكمة ألعسكرية ، ثم انصرفنا !

بوابة صلاح الدين

بعدها كتبت عن صلاح الدين الأيوبي صانع الفتح الكبير ، وتحرير فلسطين والقدس العتيقة ، وكاسر شوكة الصليبيين . وقلت إن البوابة التي تفصل ما بين رفح الفلسطينية ورفح المصرية تمثل دلالة تاريخية وهيبة إسلامية وسجل تاريخي ينبغي ألا يغلق بهذه الطريقة الفجة القبيحة ، وإن الجيوش التي خرجت لتحرير القدس وانتصرت لا تعني مصر والمصريين وحدهم ولا الإسلام والمسلمين وحدهم ، بل تعني العالم أجمع لأن انتصار صلاح الدين قيمة إنسانية عامة ضد الهمجية والوحشية والعدوان . إغلاق البوابة خطيئة تاريخية ويجب أن تفتح مرة أخرى ، وأن يحميها الشعب في مصر وفلسطين ، لأنها حالة تاريخية ، نتمنى أن تتكرر بإذنه تعالى عندما يأذن الله وتتحرر القدس العتيقة من جديد ، ويسود الإسلام في أرض الإسراء !

حين جاءت الدعوة لزيارة غزة ، وحضور المؤتمر الدولي الأول لعمداء البحث العلمي والدراسات العليا في جامعة الأقصى ، لم أفكر في المتاعب التي يمكن أن تحدث لي صحيا نتيجة السفر الطويل الشاق أو التصرفات الشاذة على المعبر في جانبه المصري . فقد طالعت كثيرا من الأخبار التي تتحدث عما يعانيه العابرون إلى الناحيتين من طول انتظار وسوء معاملة ونظرة مريبة .. وكانت الصورة التاريخية لإسماعيل هنية رئيس الوزراء المنتخب ؛ وهو يجلس على رصيف المعبر ذات يوم وينتظر أن يسمح له الأشاوس والنشامى من المسئولين في المعبر بالدخول إلى القطاع ! كانت الصورة مؤثرة ، والرجل بحكم تربيته الإسلامية يجلس صابرا محتسبا ، يتقبل الأمر كما هو دون أن يجزع أو يتململ ، بينما لو كان الأمر يتعلق بصهيوني معتد ، لاختلف الأمر كثيرا ، كان الأشاوس والنشامي يجرون سراعا وخفافا لإنهاء إجراءات عبوره وتوصيله بكل حفاوة وإجلال حتى باب المعبر .
كان من عناصر استجابتي أو اهتمامي بالزيارة دعوة نجلي " محمود " لتغطية المؤتمر صحفيا . بقلب الأب الذي يحدب على ابنه كنت مدفوعا لمصاحبته ومتابعته وخوفي عليه في تجربته الأولى خارج البلاد .

الاستعداد للسفر

قبل السفر بيوم كان محمود يحثني على تجهيز الأوراق والحقيبة والاستعداد للسفر ليلا إلى القاهرة التي تبعد عن القرية التي نسكنها بثلاث ساعات على الأقل ، واحتساب أعطال الطريق المحتملة ، من زحام السيارات والمطبات وإمكانية قطع الطريق بسبب حوادث المرور أو أزمة البوتاجاز أو الخبز . مساء الأحد ٢٢ من يناير ٢٠١٢ نمت قليلا ، وأيقظوني في الثانية عشرة والنصف ، تجهزت بارتداء ملابسي ، وفي الثانية إلا ربعا تحركنا بالسيارة إلى القاهرة . كان الطريق خاليا وانطلقنا وصلنا مشارف القاهرة في الرابعة والربع ، دخلنا إلى طريق الأميرية من أجل الوصول إلى ميدان روكسي ثم شارع الخليفة المأمون . ساعدنا سائق تاكسي في الوصول إلى ميدان روكسي وشرح لنا كيفية دخول الخليفة المأمون ، وسهّل لنا مهمة الخوض في شوارع القاهرة المتشابهة وجسورها العلوية المتداخلة . كم أشفق على سكان القاهرة في زحامها الأسطوري ، وضجيجها الذي لا يتوقف حتى في جوف الليل ؟

دخلت إلى استراحة الفندق ، وتركني محمود وزميله الذي سيقود السيارة ويعود بها إلى القرية ، لشراء بعض الأغراض ، كان الفجر قد اقترب ، قمت إلى الوضوء ، وذهبت إلى مسجد قريب في أسفل إحدى العمارات ، أديت الصلاة وتلوت الورد اليومي في مصحف من مصاحف المسجد – نسيت مصحفي في البيت ! – ثم عدت إلى الفندق . كانت الساعة قد اقتربت من السادسة . جاء محمود بإفطار . لم تكن لدي الرغبة في تناول شيء ، ولكنه أصر أن أتناول بعضه .. بدأت طلائع الوفد تظهر . جاء أحدهم وجلس في مكان قريب ، ثم حضر الدكتور إبراهيم عوض وأخذنا نثرثر. كانت السابعة موعد التحرك قد أزفت . ولكن معظم الوفد لم يكتمل . المسئول عن الرحلة ويدعى " مهند " راح يستدعي الأعضاء الذين باتوا في الفندق ، وطلب من الأتوبيس أن يستعد لصعود الوفد . وفي فترة امتدت نحو نصف ساعة اكتمل

الأعضاء في الأتوبيس الكبير ، وكان هناك آخرون في أوتوبيس صغير يتقدمون به الركب ، من شدة الإرهاق وقلة النوم أغمضت عيني ووضعت العباءة من فوق رأسي وحاولت أن أمثل دور النائم ، وتوقف الركب عند الإسماعيلية في نحو التاسعة والنصف . تزود الأتوبيس بالوقود ؛ كما تزود الركاب ببعض الحاجيات الضرورية . واصلنا السير صعودا على جسر السلام فوق قناة السويس ، ومنه إلى طريق العريش ، وكانت المفاجأة التي لم نتوقعها هي قطع الطريق في منطقة بير العبد !

قطع الطريق

مجموعة من أهل المنطقة مسلحون بعصي طويلة ، ويهرولون هنا وهناك بعد أن سدوا الطريق بكتل من الحجارة وجاءوا بسيارات ميكروباص وتكاتك ووضعوها بالعرض في الاتجاهين . كانت السيارات قد تكدست في الاتجاه الذاهب إلى العريش ، والاتجاه العائد إلى القنطرة والإسماعيلية .

بقينا نحو ساعة واقفين في مكاننا ، ونزل بعض الأعضاء لمحاولة التفاهم مع قطاع الطريق ، ومعرفة السبب . باءت المحاولات بالفشل الذريع . الحالة مخزية بامتياز ، فالركاب أساتذة جامعات (بعضهم عمداء كليات ورؤساء جامعات وأساتذةً أَعْلام) ، ومنظر قطع الطريق يمثل صورة متوحشة للسلوك والعلاقات البشرية ، وستنقل هذه الصورة بلا ريب إلى خارج مصر بما لا يشرفها !

استطاع السائق أن يفيد من أحد المواطنين الذين يقيمون في المنطقة ، فركب معنا واتجه بنا إلى عمق الصحراء في طريق مهجور يدور بعيدا ويقطع مسافة دائرية طويلة ليعبر إلى منطقة ما بعد قطع الطريق حيث عدنا إلى طريق العريش مرة أخرى وواصلنا السير . توقفنا في العريش لبعض الوقت وانطلقنا إلى معبر رفح ؛ حيث كنا على بابه في الواحدة والنصف تقريبا .. وبدأت مرحلة أخرى من قطع الأنفاس وحرب الأعصاب وإهانة العلماء!

دولة مستقلة

المعبر دولة قائمة بذاتها ، مستقلة ذاتيا عن مصر ، ويقولون إنها بهذا الوضع الغريب والمخزي قد تغيرت كثيرا عن ذي قبل !

يا رب العالمين .. تغيرت الآن ، إذا كيف كانت ؟

قالوا : إن المعبر كانت تحكمه العصابات النازية اليهودية الغاصبة وتتحكم في العابرين وتحتجزهم على أعتابه أياما وليالي بلا عدد ولا حساب ولا طعام ولا ماء .. وكان العابر يخضع لتحقيقات واستجوابات لا تتوقف ولا تنتهي !

وعندما تولى الجانب المصري الأمر كان يفرز العابرين فيسمح لبعضهم ويرفض غيرهم دون أسباب . وكان المعبر يغلق أكثر مما يفتح ، بالإضافة للاستجواب والانتظار أياما . وكان إسماعيل هنية – رئيس الوزراء الفلسطيني – أحد الذين جلسوا على رصيف المعبر – كما سبقت الإشارة - ينتظر السماح له بالدخول إلى القطاع ، وصورته وكالات الأنباء وعلقت على الصور مجموعات من المحللين والكتاب في العالم العربي وخارجه ، وكلها تستنكر الموقف المصري الخاضع للعدو النازي اليهودي الغاصب ، واستمر الوضع الشاذ الشائن حتى تفجرت ثورة الشعب المصري فخفّت حدة الإذلال للعابرين ، وراح المعبر يعمل معظم أيام الأسبوع ، وإن

كان ما زال يمارس هوايته في الرذالة والاستهانة وحجز الناس لساعات طويلة .. وهو ما جرى لوفد المؤتمر العلمي العالمي الأول لعمداء البحث العلمي والدراسات العليا بجامعة الأقصى في غزة !

اللهو الخفي

كان الأتوبيس الذي يحمل الوفد نصفه الأمامي داخل المعبر والنصف الآخر مازال خارجه ، ونزل مهند وآخرون للاتصال بالمعنيين كي يدخل الوفد ، وبعد نصف ساعة تقريبا كان الوفد في الصالة الرئيسية للمعبر، وبدأ انتظار طويل. كانت الجوازات قد ذهبت إلى الجهات المعنية لتختم بخاتم الدخول ولكنها تأخرت كثيرا . تفاعل البرد الشديد مع الجوع مع الانتظار غير المفهوم مع الماء المالح العطن في الحنفيات ، مع الحمامات القذرة التي يعافها الحيوان (صورها نجلي محمود لينشرها في جريدته ولم تنشر لأنها مقزّزة !) مع جنود بائسين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وليس لهم من سبيل إلا السمع والطاعة لمن يسمى اللهو الخفي ، مع أنين مكتوم تلمحه على وجه العابرين من الفلسطينيين والفلسطينيات وغيرهم ، مع قصص وحكايات عن عذابات وقوائم الممنوعين والمشتبه بهم وخاصة من المنتمين إلى حماس والجهاد ، مع النداءات المتعجرفة التي تصدر بين الفينة والفينة من ضابط الجوازات على شخص هنا وآخر هناك .. هذا التفاعل أنتج حالة من البؤس بامتياز !

تراب المعبر اللعين!

كنت من شدة البرد قد غطيت رأسي بطاقية صوفية ، ولففت جسمي كله في عباءتي ، وانزويت على الكرسي بجوار الزملاء الذين يشبهونني في الشيخوخة وضعف الاحتمال، وإن كان بعضهم يستطيع التحرك للذهاب نحو نوافذ الجوازات ليسأل متى يأتي الفرج ، ونغادر المعبر ، والإجابة لا أحد يعرف ، لأن الجوازات في حيازة الأمن الذي يراجع . وحين يسأل الزملاء عن الأمن المقصود ، فيقال لهم المخابرات ، وآخرون يقولون الأمن الوطني (أمن الدولة !) ، وغيرهم يقولون : أمن المعبر !

كان الوفد قبل أن يتحرك قد حصل على موافقة رسمية من جهة الأمن الأعلى المعنية بالسفر إلى قطاع غزة ، وأرسلت هذه الموافقة إلى وزارة الخارجية ، ومنها إلى الوزير السابق معتز خورشيد – المشرف العام على المجلس العربي للبحث العلمي والدراسات العليا ، موقعة باسم الوزير المفوض بهاء دسوقي نائب وزير الخارجية المصرية لشئون فلسطين تحت رقم ٥١ بتاريخ ٢٠١٢/١/١١ ، ولكن اللهو الخفي في المعبر أبى إلا أن يمرغ جبين صفوة الأمة من العلماء والمفكرين والباحثين الذين يزيدون عن خمسين عالما ؛ معظمهم طاعن في السن ويعاني أمراض الشيخوخة في تراب المعبر اللعين ، والانتظار الممض !

سؤال مباغت

سأل أحد الأساتذة شخصا من المعنيين في المعبر متى يتم الإفراج عنا ؟ فأجابه هذا بسؤال مباغت : انتم رايحين غزة تعملوا إيه ؟

ولم يملك الأستاذ إلا الرد ساخرا : رايحين نتجوزوا !!!

كان العصر قد مضى بنحو ساعة وخشيت أن تضيع مني الصلاة . كنت آمل أن أصلى في الفندق حيث المكان الملائم ، ولكني شعرت بأن المسألة لن تنتهي في وقت

معقول . تحاملت على نفسي وتوكأت على عصاي ، واكتشفت أن مسجد المعبر به حنفيات للوضوء وليس به حمامات ، توضأت وصليت الظهر والعصر قصرا وجمعا ، وعدت لأنتظر مع بقية الوفد الساخط على الامتهان . قال أحدهم لو أن الوفد كان من لاعبي كرة القدم أو الفنانات والفنانين .. هل كانوا يفعلون بهم ما يفعلونه بنا ؟ هل كان قائد المعبر أو رئيس مجلس إدارته يقبع في مكتبه أو كرسيه ولا يهرع لاستقبال الفنانين واللاعبين ؟ كان يفترض من المسئول الأول عن المعبر مثلا أن يستقبل الوفد ويتعامل معه برقي حضاري وخلقي بدلا من تركهم نهبا للتراب والانتظار والجوع والعطش ومعاناة الأمراض ، وبعضهم كان يحتاج إلى تناول الدواء الذي تضمه الحقائب التي نقلت إلى الجانب الآخر ولا يمكن الوصول إليها ، ولكن أحدا في المعبر لم يلتفت إلى الوفد ومن فيه .

كشف العذرية

كان هناك كلام عن اتصالات من جانب الأمن في المعبر بالأمن في القاهرة للتأكد من الموافقة عن بعض الأعضاء ، وكان هناك اتصالات أخرى من بعض أعضاء الوفد بالقاهرة للتدخل من أجل الإفراج عنا والوصول إلى الجانب الفلسطيني ، وقيل إن رئيس الوزراء الفلسطيني بنفسه يتابع الموقف ويتصل بالقاهرة من أجل دخولنا ، فأهل القطاع يعدون مجيء وفد علمي لهذا المستوى من دول عربية وأجنبية كسرا للحصار الثقافي والعلمي على غزة وجامعاتها وطلابها وأساتذتها .

كان هناك رأي عام يحبذ العودة ، وقطع الرحلة احتجاجا على ما فعله المسئولون عن المعبر ، ثم عقد مؤتمر صحفي في القاهرة لإبلاغ المسئولين ومن يعنيهم الأمر بحقيقة ما جرى من تعنت وممارسات غير كريمة . ولكن الرأي الآخر كان يرى أن الهدف هو كسر الحصار ، وهو هدف أغلى من المعاناة التي عاشها الوفد .. واستعاد بعضهم ما فعله المعبر في عهد النظام البائد مع جورج جالوي وقوافل كسر الحصار العربية والعالمية .

اتصل بعض الأساتذة بقناة الجزيرة لتغطية الموضوع ، وتم تحويلهم إلى المراسل المقيم في العريش ، ولكن المراسل تملّص من الأمر بحجج واهية ، وأعيد الاتصال بالمكتب الرئيس للجزيرة في القاهرة ، فردت إحدى السيدات بأن المراسل أبلغها أن الأعضاء يكذبون فقال لها الأعضاء : إن مراسلها هو الكاذب وأن القناة كاذبة ، وقال لها بعضهم : لو كان الموجود في المعبر واحدا من الناصريين أو اليساريين لأقامت الجزيرة الدنيا ولم تقعدها ، ومعروف أن مكتب الجزيرة في القاهرة أسسه الناصريون في عهد مديره السابق ، ومازالت أغلبيته من الناصريين والشيوعيين الموالين لمنظمة فتح التي يقودها يساريون !

وقال بعضهم : إن قناة الجزيرة تحتاج إلى كشف العذرية !

كوفية فلسطينية

ذهب آخر ضوء من النهار ، وجاء من يبشرنا بأن الفرج قد اقترب ، وبعد نصف ساعة طلب منا أن نتجه إلى الخروج نحو الأتوبيس في الناحية الأخرى لنتجه إلى المعبر الفلسطيني .

بقينا في الأتوبيس أكثر من ساعتين ، ومهند ومن معه يذهبون ويأتون ، لماذا ؟ لا أحد يعرف !
أخيرا .. تحرك الأتوبيس بدون مهند نحو المعبر في جانبه الفلسطيني ، وعرفنا أن الدكتور البشير رئيس جامعة الإمام المهدي بالسودان لم يدرج اسمه في كشف الوفد نسيانا أو سهوا ، وأنه أعيد إلى العريش مع مهند حتى يتم التفاهم بشأنه مع القاهرة وأنه سيأتي في الصباح !
دقيقتان أو ثلاث دقائق كنا نقف أمام استقبال بسيط ولكنه حافل بالمشاعر الفياضة والدموع !
كان مندوب رئيس الحكومة ووزير التعليم العالي ورئيس جامعة الأقصى وعمداء الكليات والأساتذة الفلسطينيون ، يصطفون أمامنا ليسلموا علينا ويقدموا لنا الماء والعصير وباقة ورد وكوفية فلسطينية ،ويعتذرون ويكررون الاعتذار ، ويطلبون أن نسامحهم لأنهم كما يعتقدون حمّلونا متاعب فوق الطاقة ! مع أنهم كانوا منذ الظهيرة ينتظروننا على الجانب الآخر ، ويتابعون ما يجري مثلنا تماما ، ولكنهم مثلنا لا يملكون من الأمر شيئا ، فاللهو الخفي يتولى إلهاب المشاعر ، ولا يعبأ بصورة مصر وشعبها ، وكأن الثورة لم تصل إليه ولم يعلم بها ، وقد قيل إن المشرفين على المعبر قبل الثورة الذين كانوا يمارسون قهر العابرين وإذلالهم ، هم أنفسهم ما زالوا على كرسي المسئولية ، ينفذون الإرادة اليهودية الغاصبة ، ويخدمون الاحتلال النازي اليهودي بكل إخلاص وتفان ، وأنهم ينفذون رغبات السلطة في رام الله الموالية للعدو .. إنهم يتحركون فقط عندما يكون أمامهم جواز سفر أميركي . يهرولون على الفور ، ويقدمون أقصى ما لديهم من سرعة لإنهاء إجراءات الدخول والخروج لصاحب الجواز الأميركي ولو كان مصريا يحمل الجنسية الأميركية ! وهو ما رأيناه رأي العين في طريق العودة !

الشهيد لا يكفن

كنت في أعماقي أعتذر عن تقصيرنا وتقصير المسلمين في حق فلسطين ، وتركها نهبا لأولاد الأفاعي الذين لا عهد لهم ولا ذمة ، ولا يملكون خلقا ولا مشاعر إنسانية !
وهو الاعتذار الذي أكده وأعلنه الدكتور محمد عباس في مسجد النصر عندما دعينا لإلقاء بعض الكلمات عقب صلاة العشاء في أحد أيام المؤتمر !
رحب الفلسطينيون بنا في معبرهم الفلسطيني والدموع تتساقط من عيونهم وكلماتهم ، ورد عليهم بعضنا بكلمات مماثلة . كانت إحدى الزميلات قد حملت كفنها معها استعدادا للشهادة ، وقيل لها إن الشهيد لا يكفن ، ولكن الأستاذة الجامعية أرادت أن تعبر عن تضامنها العملي مع الشعب المظلوم .
لقد استقبلتنا الفانتوم اليهودية بقصف بعض مناطق القطاع ، ولكن الوفد لم يجزع ، وكان الفلسطينيون يعدون الأمر عاديا ، ويتحركون بثبات ووعي وذكاء ومقاومة !
كانت المسافة بين المعبر وغزة تقرب من خمسة وثلاثين كيلو مترا ، استغرقت مثلها دقائق في السيارة . هطل المطر فتفاءلوا بنا وسعدوا ، وقالوا إن نسبة المطر في العام الماضي وصلت في نهايته إلى ٢٨% ولكنها هذا العام وصلت وقبل أن ينتهي موسم المطر إلى ٦٢% ومع أيام المؤتمر سخت السماء بكثير من الماء الذي ينتظره

الفلسطينيون بعد أن حرمهم العدو من مصادر المياه المملوكة لهم ، وسحب مياههم الجوفية بوسائله الخسيسة!

فرح صاخب

في غزة كان الصداع قد بلغ مداه ، وكانت أحشائي تتقلص ، وكنا على مائدة العشاء حيث قدموا لنا أفضل ما عندهم ، ولكني كنت في عالم آخر من الألم والتعب ، وأسعفني أنهم يقدمون مع العشاء عصير الليمون والبرتقال ، شربت شيئا منه وأحسست بشيء من الهدوء في أحشائي وإن كان رأسي لما يزل ملتهبا . تناولت قرصا من الأسبرين وطلبت شايا ، والدنيا من حولي صاخبة بالفرح والسرور لأن وفدا علميا عربيا كسر الحصار ودخل إلى غزة .. إنها فرحة الأب بعودة أبنائه أو فرحة الأبناء بعودة الوالدين ، سمها ما شئت . وجدت بجواري شابين يقولان إنهما من تلفزيون فلسطين ، ويريدان أن أعلق على المؤتمر تعليقا قصيرا ، علقت تعليقا عاما . كانت الكلمات تخرج من فمي ثقيلة مرهقة ، ومنظري الذي صوره المصور التلفزيوني كان يعبر عن حال من أهين بغير سبب ، وتمرغ مع زملائه في تراب المعبر المصري !

جرّ الشّكل

المفارقة أن الفتي التلفزيوني أصرّ أن يحدثني عن حماس وقادتها ، وراح يكيل لهم التهم المختلفة ، عرفت أنه موال للسلطة في رام الله ، وانه يحاول تشويه حماس . قلت له : يا بني لقد اختارت حماس طريق الشهادة ، ومن يسلك هذا الطريق لا يبحث عن الدنيا .ولم أسترسل ؛ لأن الفتي وأمثاله مع أنهم يعيشون آمنين في ظل حكم حماس مصرّون على " جرّ الشكل " ويتصورون أن ضيوف غزة يجهلون الفارق بين الولاء لله والوطن وبين الارتماء في أحضان العدو رغبا أو رهبا ...كان محمود ابني في تصريحه لهم يتكلم عن المخلوع والعهد البائد في مصر ،ولم يعجبهم كلامه فسمعهم يذكرون كلمة " المونتاج" أي إن كلامه سيخضع لعملية الفلترة بحيث لا يذيعون إلا الكلام الذي يروقهم ، وقد فعل نظراء لهم الشيء نفسه تقريبا مع الدكتور محمد عباس حين أخبروه أن الكرسي الذي سيجلس عليه في الأتوبيس محجوز للإعلام ، وهو أسلوب يختلف عن أسلوب أهل حماس في ترحيبهم بالضيوف وحفاوتهم بالزوار . ولم يكتف هؤلاء بذلك بل راحوا يذمون أمامه حماس .. ولكنه أفحمهم !

مطر كثير

انتقلنا إلى فندق كوميدور ، كنت مثقلا بالرهق والآلام تعصر رأسي ، والساعة تقترب من منتصف الليل ، وتم توزيع شارات المؤتمر وأوراقه ، وسمعنا من ينادى على مجموعة كنت من بينها لننتقل إلى فندق بيتش، وتم توزيعنا على الغرف ، أويت إلى الفراش على الفور ، واستيقظت على أذان الفجر .وتوضأت ونزلت لأسأل عن المسجد خارج الفندق .صحبني أحد أفراد الأمن إلى أول الطريق . لم يكن المسجد بعيدا وحين وصلت كانت الصلاة قد أقيمت ، عدت بعدها إلى الفندق كان البحر هادئا وكان رذاذ المطر يغسل الأرض التي ارتوت منذ وصولنا بمطر كثير.

سألت في الاستقبال عن مصحف لأقرأ الورد اليومي . أخرج لي الموظف مصحفين أحدهما صغير والآخر بالحجم العادي . أخذت الأخير وصعدت إلى غرفتي وتلوت ما تيسر لي . حاولت مشاهدة التلفزيون ولكن المحطات مهتزة وغير واضحة . قيل لي إن الزنّانة (طائرة الاستطلاع اليهودية المعادية) لا تتوقف عن الطيران فتفسد الإرسال التلفزيوني وأشياء أخرى . أويت إلى النوم ، ولم أستغرق كثيرا حتى أيقظني هاتف الفندق لتناول الإفطار .

الفول المدمس

واضح أن أهل غزة يقتربون من أهل مصر في العادات والتقاليد . وجدت الفول المدمس والفلافل ضمن الإفطار مع الجبن والبيض المسلوق والمقلي والسلطات ، والخبز وهو جيد جدا ، وهناك عصير وشاي أيضا ..

وكان اليوم الأول لزيارة المُحرّرات التي كانت تسمى مُغتصبات ويسميها العدو مستعمرات أو مستوطنات وكانت تتركز في دير البلح وخان يونس . هذه المحررات كانت هدفا حيويا لعمليات المجاهدين ، وشعر السفاح آرئيل شارون بفداحة الخسائر التي يدفعها أفراد العدو الغزاة ، فقرر إخلاء المغتصبات والانسحاب من القطاع كلية . أطلق الفلسطينيون على المحررات أسماء معارك تحرير فلسطين التاريخية وغزوات الانتصار الإسلامية في عهد النبوة ، فكانت هناك محررة حطين ، ومحررة عين جالوت ومحررة حمراء الأسد ...

تغبّر جبينه

في أثناء الزيارة حضر الدكتور البشير رئيس جامعة الإمام المهدي في السودان الذي منعه المعبر من الدخول معنا ، وكان اللقاء به حارا ودامعا ، وقد صوره بعضهم حين وصل إلى أرض القطاع وهو يسجد لله شكرا على الأرض حتى تغبّر جبينه بالتراب في مشهد مؤثر ذي دلالة عميقة لا تخفى على كل من يملك ذرة من إيمان وأخلاق .

ومن ساعتها صار الدكتور البشير نجم المؤتمر ، يضاحكه الأعضاء ويمازحونه عند ركوب السيارات وفي الجلسات وفي اللقاءات المختلفة وهو يرد على من يتحدثون إليه بعفوية أهل السودان الشقيق وطيبتهم ، بالإضافة إلى تواضعه وهو تواضع العلماء الذين لا يستهويهم بريق الدنيا . كان البشير حريصا على صلاة الفجر ، وكان وجوده بيننا مثل النسيم ، وقد صاحبناه في طريق العودة حتى أوصلناه مطار القاهرة ليلحق بطائرة الخرطوم .. وانسابت الدموع حزنا لفراقه !

مزارع وصوبات

أفادت الحكومة المنتخبة من المحررات إفادة واضحة ، حيث حولتها إلى مزارع وصوبات (يسمونها هناك البيوت الزجاجية) ومصانع لتجهيز السماد العضوي بعد أن منع الحصار على القطاع كل أنواع الأسمدة الكيماوية والآزوتية .

وقد وُزّعت أراضى المحررات على الفلاحين بإيجارات معقولة ، وشجعتهم الحكومة بتوفير السماد العضوي ومساعدة وزارة الزراعة ، وتمثل الزراعات المحمية (الصوبات) دعما كبيرا في توفير الأساسيات الغذائية لأهل غزة ، فضلا عن توفير الشتلات اللازمة للزيتون والحمضيات . ويعد زيتون القطاع خاصة وفلسطين عامة من أفضل أنواع الزيتون في العالم إن لم يكن أفضلها جميعا . وقد توقف الوفد العلمي

في إحدى صوبات الزيتون ، وشرح لنا الدكتور نعمات وهو متخصص في الزراعة أهمية الزيتون التي لا تتوقف عند ثماره أو زيته بل تتعداهما إلى أوراقه المغلية التي يعالج شرابها الضغط والسكر . أما مخلفات الغلي فتستخدم في صناعة الصابون .

جامعة الأقصى

كان لجامعة الأقصى نصيب في أرض المحررات حيث تم إنشاء مبانيها الجديدة على جزء منها . وهي مبان كبيرة وواسعة ومجهزة تجهيزات لا بأس بها ، بالإضافة إلى مساحات خضراء كبيرة تحيط بمباني الجامعة التي تضم حوالي ١٦ ألف طالب وطالبة . وتسهم جهات عديدة في تمويل الجامعة . وقد استقبلنا رئيسها وعمداؤها وأساتذتها استقبالا حافلا ، وصلينا الظهر والعصر جمعا وقصرا في مسجدها .

انتقلنا إلى جامعة فلسطين ، وهي من أحدث جامعات القطاع ، وأقرب إلى الجامعة الأهلية مثل معظم الجامعات هناك ، وعدد طلابها يقرب من ألفين ، وتركز على العلوم التطبيقية وتفيد من التقنيات الحديثة ، وقد جمع الوفد لقاء جيد مع المسئولين في الجامعة ، تم فيه التعريف بالجامعة ودورها ، وأهمية المؤتمر الدولي الأول لعمداء البحث العلمي والدراسات العليا في كسر الحصار الثقافي والعلمي على القطاع .

بعد زيارة جامعة فلسطين عدنا إلى الفندق وتناولنا الغداء استعدادا للقاء رئيس الوزراء إسماعيل هنية في مبنى البلدية ..

شرف الزمان وشرف المكان وشرف الحضور

تنبع أهمية لقاء هنية من أنه يوضح للوفد وللحاضرين من أساتذة الجامعات الفلسطينيين والمسئولين في الحكومة المنتخبة ، وأعضاء المجلس التشريعي ، وعلماء الدين الإسلامي في القطاع بعض معالم الواقع الراهن وتأثيره على القضية الفلسطينية بصفة عامة ، وحصار غزة بصفة خاصة .

كانت قاعة البلدية مكتظة . ألقيت كلمات متعددة من رئيس جامعة الأقصى ، ورئيس اتحاد الجامعات العربية ومندوب الندوة العالمية للشباب الإسلامي ووزير التربية والتعليم العالي وعميد البحث العلمي رئيس المؤتمر ، ثم ألقى إسماعيل هنية ؛ رئيس الحكومة المنتخبة كلمة ضافية ، فصيحة اللغة ، بيانية الأداء ، راقية الأسلوب ، متدفقة التعبير ، بعيدة عن التكرار والترهل والتعقيد ، واضحة المعاني في أدق القضايا .

بدأ إسماعيل هنية خطبته بآيات من أول سورة الرحمن ، ثم حيا المؤتمر وأعضاء الوفد العربي لأنه كسر الحصار العلمي على غزة وفلسطين . وتناول أبعاد الحصار وألوانه وأشكاله .. ودور الشعب الفلسطيني في كسر الحصار ، بحفر مئات الأنفاق وعدم الاستسلام ، وضرورة كسر الحصار فوق الأرض وتحت الأرض . وأشار إلى أن الحصار السياسي بدأ يترنح أمام وعي الأمة وتحولاتها ، وأشار إلى أن استقباله في رحلته إلى دول عربية وإسلامية كسر الحصار السياسي ، ورأى أن وصول خمسين من علماء الأمة لحضور مؤتمر البحث العلمي والدراسات العليا في مشاركة علمية واسعة ؛ يستكمل حلقات كسر الحصار العلمي عن قطاع غزة . وقال إن أهمية هذا المؤتمر تنبع من شرف الزمان وشرف المكان وشرف الحضور ، وأوضح ذلك قائلا :

شرف الزمان يتمثل في أن المؤتمر ينعقد في اليوم الأول من شهر ربيع الأول ١٤٣٣هـ ، وهو شهر مولد الرسول – صلي الله عليه وسلم – كأننا نقف أمام ميلاد أمة وميلاد كرامة وعزة وشهامة . وما يجري حولنا ليس ثورة تخص القطر الثائر ، ولكنه دورة حضارية تعلن عن انتصار أمة رفعت أعلام فلسطين في ساحات الأمة العريقة . الأمة لا تتكلم عربيا فقط بل قلوب الأمة تتكلم عربيا .

أكناف بيت المقدس

وشرف المكان يتمثل في انعقاد المؤتمر في غزة وهي من أكناف بيت المقدس . غزة التي تحررت بالمقاومة والصمود عام ٢٠٠٥ ، وتواجه حربا نعيش ذكراها الثالثة ، واستمرت ٢٢ يوما ، وخسائرها كانت كبيرة ، ولم تحقق الحرب أهداف العدو ، وخاصة كيّ الوعي كي لا تعود الأمة لقراءة التاريخ !

لم تسقط الحكومة ، ولم تسكت المقاومة ، ولم يرجع شاليط إلا بعد تحرير ألف أسير !

وما ذلك إلا لأن غزة من أكناف بيت المقدس .. وغزة إن شاء الله بوابة الأمة لتحرير القدس واسترجاع الأقصى .

أما شرف الحضور فيتمثل في هذا العدد والنوع من الحاضرين ومن هنا يكتب التاريخ في دورته الجديدة . إن مصر تقود التحولات الكبرى ، وبالأمس كان أول ثمار الثورة المصرية ، ونهنئ باسم شعبنا مصر الشقيقة الكبرى على عرسها الديمقراطي ، وإلغاء حالة الطوارئ بدءا من ٢٠١٢/١/٢٥ ذكرى الثورة الأولى .

تحية للسودان والأردن مع رفض المؤامرات الصهيونية عليه والوطن البديل .

استعادة دورة الحياة للعلاقات الدبلوماسية والسياسية مع كافة القوى الإسلامية .

تحية للعراق الذي عاش ظروفا تشبه ظروف فلسطين ، وفرض على العدو الانسحاب . وقف العراق سدا منيعا أجبر الاحتلال على الرحيل .

تحية لشعب لبنان عاصمة المقاومة والصمود التي فرضت على الاحتلال الخروج من جنوب لبنان .

تحية للاتحاد العام للجامعات العربية .

شرف الزمان وشرف المكان وشرف الحضور ، وشرف المستضيف جامعة الأقصى .

القدس أمانة

أشار هنية إلى القرصنة الصهيونية باعتقال رئيس المجلس التشريعي وبعض أعضائه ، وقيام الصهاينة بتهويد القدس المستمر .

خاطب هنية الوفد العلمي قائلا :

أيها القادمون إلى قلوبنا إن القدس أمانة في أعناقكم . وسنبقى ندافع عن القدس والأقصى بدمائنا .. لنا عليكم أيها الأشقاء النصرة والعون والسند .

في نهاية الخطاب أعلن مقدم الحفل الموافقة على مقترح الدكتور د . شاكر تقي الدين بإنشاء رابطة علماء من أجل غزة فلسطين ومقرها المؤقت غزة ، والدائم في القدس ، كما أعلن الموافقة على مقترح التوأمة بين جامعات غزة والجامعات العربية مع الدعوة لعقد مؤتمرات علمية في كل مكان بأرض فلسطين بوصف ذلك إسنادا سياسيا وإنسانيا وربط علماء الأمة بفلسطين .

ولأن تحرير فلسطين لن يتم إلا بالعلم والإيمان ؛ فهناك دعوة للجامعات العربية بمد الجامعات الفلسطينية بالكوادر العلمية في التخصصات غير المتاحة .

قلوب دافئة

خاطب مقدم الحفل علماء الأمة قائلا عن أهل فلسطين : " ستجدون قلوبا دافئة فيها تسكنون " .

في نهاية الحفل سلم إسماعيل هنية على أعضاء الوفد جميعا ، وتحدث مع كثير من الأعضاء الذين يعرفهم أو سمع عنهم في بساطة إنسانية تؤهله لأن يكون أقرب إلى الناس في القطاع الذين ينادونه أبا العبد ، وهي كنية قريبة إلى قلبه ، لأنها تخص ابنه عبد السلام .

في هذه الليلة تعرفت على الدكتور على مدكور وهو من علماء التربية المرموقين في مصر والعالم العربي ، وجرى بيننا حديث مطول عن فساد التعليم في مصر ، ودور بعض الفاسدين في هز المسيرة التعليمية وتعويقها .

لقد كانت ليلة حافلة بالآمال والرؤى والأحلام ، ولها ما بعدها!

نظام الجودة

استيقظت على صلاة الفجر التي لم أدركها جماعة . حزنت وأسفت . ذهبت إلى المسجد بعد انتهاء الجماعة ، انتظرني العامل حتى صليت وخرجت ، وعدت إلى الفندق وقرأت الورد القرآني ، ونمت قليلا وصحوت استعدادا لجلسات البحث العلمي والدراسات العليا .

انعقدت الجلسات على محورين بالتوازي . محور البحث العلمي في قاعة مجهزة للسيمنار بالدور الأول بجامعة الأقصى . ومحور الدراسات العليا بالدور الثالث في المبنى ذاته .وقد شاركت في المحور الثاني ، وحضرت جلساته الأربع المتتالية التي انتهت قبيل الخامسة مساء . كان القوم على مدى الجلسات يقدمون أمام القاعة أغذية خفيفة مع الشاي والنسكافيه والقهوة حسب رغبة من يتناولها . لوحظ الاهتمام الواضح بما يطلبه الأعضاء من بعض الخدمات . وكانت الحمامات مجهزة ونظيفة ، ومزودة بأوراق النظافة بصورة مستمرة .

لاحظت أن قاعة البحث مجهزة بجهاز عرض سينمائي من خلال الحاسوب (الكمبيوتر) ، ويستطيع الباحث أن يعرض بحثه على الشاشة ويقدم الخرائط والإحصائيات والجداول بصورة جيدة على شاشات العرض ما يسهل أو يرسخ ما يقوله ويتيح للحاضرين فرصة المتابعة الجيدة. وكانت المشاركات والتعقيبات على الأوراق البحثية موضوعية وفعالة وتثري الفكرة وتبعث الحيوية في الجلسات .

شاركت في إحدى الجلسات بالتعقيب على ورقة خاصة بما يسمى نظام الجودة وتطبيقه على التعليم العالي في جامعة الإمارات ، وقد أثار حديثي اهتمام الحاضرين ، وعلقوا عليه تأييدا ، خاصة حين بينت أن هذا النظام في تعليمنا العربي يتجاهل أن الطلاب لا يحضرون إلى المدرسة أو الكلية أصلا معظم أيام الدراسة ، لأنهم في الدروس الخصوصية أو مشغولون بأمور أخرى ، وتحدثت عن ضيق الأماكن بالنسبة للطلاب وعدم وجود المدرس أو الأستاذ المؤهل ..

قلت : إن الجودة نظام فاشل ويبدد الأموال في كلام على الورق ، والأولى أن نعالج المشكلات الأساسية في التعليم ، مثل توفير الأماكن للطلاب ، وإعداد المعلم الجامعي الحقيقي وليس المعلم رجل الأعمال ، وتأسيس المعامل الجيدة والمكتبات المزودة بالمراجع الحديثة اللازمة، وقبل ذلك معالجة قضايا التعليم الأساسي وخاصة في المرحلة الثانوية حيث لا يحضر الطالب في الفرقة الثانية والفرقة الثالثة إلى المدرسة إلا يوم الامتحان مكتفيا بالدروس الخصوصية .
كان التأييد لما أقول واضحا ، وانزعج الباحث ، ولكنه بعد الجلسة حضر إلى ليوضح سوء الفهم ، وأعلن تأييده لما قلت .

المرابطون

بعد الجلسات المتتابعة انتقلنا إلى المطعم للغداء، ثم قضينا استراحة قصيرة في الفندق ، ولم أستطع الخروج مع الوفد في زيارة للمرابطين على خط التماس مع العدو في شمال غزة . كانت الآلام أقوى من رغبتي في الذهاب لرؤية المجاهدين الذين لا يعلنون عن أنفسهم ولا يعرفهم أحد ، ويبيعون أنفسهم شهادة لله وقربانا ، ويخشاهم العدو أكثر مما يخشى الجيوش الجرارة مع أنهم لا يملكون إلا الإيمان ثم أسلحة خفيفة تحرمه من لذة التقدم إلى أرض القطاع في سهولة ويسر .
على كل ، فقد أحسست بضياع شيء ثمين مني بسبب بقائي القسري في الفندق من أجل الراحة ، وحرماني من زيارة قوم لا يعرفون الراحة ! وأعادني إلى ذكريات تمتد أكثر من أربعين عاما في الجيش المصري عقب هزيمة ١٩٦٧م .، حيث كنت مجندا في القوات المسلحة لمدة ست سنوات انتهت عام ١٩٧٤ بعد العبور في رمضان ١٣٩٣هـ = أكتوبر ١٩٧٣م .
في الصباح زرنا جامعة الأزهر بقطاع غزة ، وهي مستقلة عن الأزهر في القاهرة . تأسست على وجود المعهد الديني الأزهري الذي كانت تشرف عليه مصر حتى الهزيمة في ١٩٦٧ ، وقد أسس الفلسطينيون على جامعة الأزهر التي تبدو أكبر جامعات القطاع (٢٠ ألف طالب ، و٣٧٠ عضو هيئة تدريس) وتعرضت للقصف الشديد في معركة الفرقان (الرصاص المصبوب) وتم تدمير معاملها التجريبية المتقدمة تدميرا كاملا ، ويمنع العدو دخول العناصر الكيماوية اللازمة للتجارب المعملية (حمض الكبريتيك مثلا لا يسمح بدخوله إلا بنسبة تركيز لا تتجاوز ٣%) .

لمبات الغاز

كان لقاؤنا برئيس جامعة الأزهر والعمداء في حضور د . سلطان العرابي – أمين عام الجامعات العربية الذي تناول الوضع في غزة وارتباطه بالبحث العلمي والمؤتمرات المزمع عقدها على أرضها . وفي أثناء اللقاء تم عرض شريط مصور لأحوال المشهد الطلابي والتعليمي في غزة سينمائيا ، مع التركيز تفصيلا على الفترة التي تلت الحرب العدوانية التي شنها العدو في عام ٢٠٠٨م . وهي أوضاع صعبة بصفة عامة . فالطلاب يستذكرون دروسهم على لمبات الغاز بعد انقطاع الكهرباء لفترات طويلة بسبب الحصار القاسي الذي يتعرض له القطاع وأهله في كل مجالات الحياة بدءا من الاحتياجات الأساسية حتى السفر عبر المعابر !

قمنا بجولة في أرجاء الجامعة وتعرفنا على أقسامها ومعاملها ومكاتبها وطلابها المجتهدين وطالباتها المحجبات ، وأساتذتها النشيطين .
زرنا أيضا الجامعة الإسلامية ، وهي أقدم جامعات القطاع ، وقد اسْتقبلنا استقبالا رائعا ، وتم تكريمنا في مدرج الجامعة الكبير بحضور رئيسها ورئيس جامعة الأقصى ورئيس هيئة الأمناء . سلمونا هدية رمزية من إنتاج الجامعة عبارة عن زجاجة زيت زيتون صغيرة مع درع الجامعة . وفي قاعة ضخمة تناولنا الغداء .

وحدة المقاتلين

عدنا إلى الفندق لاستراحة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أرباع الساعة .ومع أن الجهد قد بلغ مني مبلغه ، فقد دُعيت مع بعض الزملاء لإلقاء بعض الكلمات في مسجد النصر بعد صلاة العشاء . لم أكن قادرا على الكلام ، فقد كان الإجهاد باديا على وجهي وملامحي ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من مخاطبة جمهور المصلين الذين جاءوا خصيصا لسماع كلمات مصرية إسلامية . تكلمت في إيجاز . وتحدثت عن بناء الإنسان المسلم لمواجهة العدو وبناء المستقبل ، وقلت إن الإيمان أساس المواجهة والبناء ، وتحدثت عن وحدة المقاتلين طالما أن الهدف الأول هو الشهادة . أما أهل السياسة فلهم أن يختلفوا شرط أن يكون اختلافهم للتكامل وتوزيع الأدوار وليس للتناحر والتفرق وشماتة الأعداء .
في الوقت الذي كنا فيه في مسجد النصر الذي بناه صلاح الدين الأيوبي ، كانت أغلبية الوفد في لقاء مع محمود الزهار القيادي في حماس بمنزله ، وتجمعنا بعد اللقاء في فندق موفنبيك حيث تناولنا العشاء ، وقامت جامعة الأزهر بتكريمنا بشهادات تقدير وذلك بحضور أول رئيس لجامعة الأزهر مع رئيسها الحالي . عدنا إلى فندقنا للنوم وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ، ولكن الفندق كان مأهولا بحفل زواج ، وتصطخب أصوات الغناء والموسيقى ، فلم أستطع النوم إلا بعد انتهاء الحفل في منتصف الليل .

عارض صحي

في الفجر حدث لي عارض صحي ، حاولت إخفاء الأمر عن نجلي والمحيطين بي ، وأخذني المرافقون في سيارة إلى المستشفي الرئيسي في غزة (دار الشفاء) ، بعد الفحص طمأنني الأطباء ، وأشاروا بتركيب محلول مع بعض الأدوية لتحسين وضع الهيموجليبين ، وهو ما يستغرق وقتا ، اعتذرت وفضلت العودة إلى الفندق حتى لا أثير قلقا ، وتسلمت صورة من التحليل لاستخدامه بعد العودة ، وعدت إلى الفندق والقوم يتناولون الإفطار ، عرف بعضهم بالأمر وبدا عليه الانزعاج ولكني طمأنتهم وأعدت التنبيه برغبتي ألا يعلم نجلي بالأمر ، وهو ما تمّ بالفعل . تناولت إفطاري ، وصعدت إلى غرفتي لأستريح حتى يحين موعد صلاة الجمعة .
ذهبنا إلى الصلاة في مسجد العباس الذي أسسه الشهيد بإذن الله أحمد ياسين مؤسس حركة حماس الإسلامية في فلسطين . ألقى إسماعيل هنية - رئيس الوزراء المنتخب - خطبة الجمعة ، وربط فيها بين ذكرى ٢٥ يناير التي حلت في اليوم ذاته وغيرت المعادلة السياسية في المنطقة وفتحت آفاقا واسعة أمام المحاصرين ، و٢٥ يناير من

ست سنوات حيث انتصر التيار الإسلامي بقيادة حماس في الانتخابات التشريعية والبلدية بالضفة والقطاع .. وكانت بداية الحصار .

غداء في بيت الرئيس

بعد الصلاة ألقى بعض الزملاء كلمات قصيرة تعبيرا عن مشاعرهم تجاه غزة وفلسطين ، وأعلن الدكتور إبراهيم عوض تبرعه بمبلغ للمقاومة ، وأعلن بعض الزملاء عن مخاطبة القاهرة من أجل حل مشكلة المعبر في رفح ، وقد طلبت الكلمة ورأيت أن يضاف إلى مشكلة المعبر مشكلة بوابة صلاح الدين ، وضرورة فتحها ، واستعادة دورها الإنساني ودلالتها الحضارية . كما عبرت عن مشاعري تجاه المقاومة وغزة وفك الحصار .. ثم أهديت بعض كتبي لرئيس الوزراء ، وطلبت منه أن يدعو لمعرض دولي للكتاب يشارك فيه العرب جميعا على المستويين العام والخاص يقام على أرض غزة ، وذلك لربط القطاع بالأمة وتزويده بأحدث الإصدارات والفكر الإنساني .

اصطحبنا رئيس الوزراء لتناول الغداء في بيته المتواضع بمخيم الشاطئ . على باب المسجد استوقفته امرأة عجوز فقيرة وفي يدها ورقة كتبت فيها شكواها . وقف الرجل يستمع إليها بصبر جميل ثم طلب منها أن توافي شخصا معينا ليحل لها مشكلتها بعد أن تناول منها شكواها المكتوبة .

منزل متواضع

بيت هنية في مخيم الشاطئ في غزة متواضع للغاية وصفه الدكتور محمد عباس بأن اقل عمدة في أصغر قرية في مصر لا يرضى بسكناه ، ولكن هنية يسكنه هو وأبناؤه وأحفاده ، فالمخيم كان تجمعا للنازحين من داخل فلسطين ٤٨ ، وكان سكانه يعيشون في خيام انتظارا لعودتهم إلى بيوتهم وقراهم ، ولما طال الانتظار تحولت الخيام إلى ما يشبه الأكشاك ثم تحولت إلى بيوت متواضعة من الحجر تشير إلى أنها مؤقتة ، ولكنها صارت شبه دائمة حتى يأذن الله بالعودة .

أصر رئيس الوزراء على تكريمنا بإهداء الكوفية الفلسطينية موقعا عليها باسمه ، مع درع رئاسة الوزراء ، ثم تكلم عن ابن عمه جابر الذي يبدو أكبر منه سنا وله فضل التقديم وفقا للعادات والتقاليد ، ثم أشار إلى ولديه عبد السلام وهمام ، وكانت هناك طفلتان صغيرتان في نحو الخامسة والرابعة هما رؤى وروان ابنتا همام وحفيدتا إسماعيل هنية .

كانت قاعة الطعام عبارة عن رحبة مربعة واسعة مغطاة بمشمع من البلاستيك الذي يمنع المطر ، والموائد عبارة عن مناضد متواضعة فرشت بمفارش بلاستيكية أيضا ، وجاء الطعام مكونا من الأرز وقطع اللحم ، في طبق واحد لكل اثنين ، بجواره بعض السلطات وعلبة بيبسي أو ما يشبهها .

كان رئيس الوزراء في وداعنا على باب البيت وفقا للتقاليد وتعبيرا عن الحفاوة . ولم نشعر أبدا بما يشي أنه تجاوز مرتبة الإنسانية ، بل كان متواضعا ومحبوبا في آن واحد !

الشيكل اليهودي

في المساء كانت هناك جولة في أسواق غزة ، لم أشأ أن أشارك فيها بسبب متاعبي الصحية ، وعدم رغبتي في استخدام الشيكل اليهودي الذي صار العملة المعتمدة عمليا في التعاملات اليومية ، والشيكل يساوي مائة وستين قرشا يوم كنا هناك . الجنيه المصري لا وجود له إلا على بوابة المعبر مع بعض الشباب المصري الذين يتاجرون في تغيير العملة ، ويعود ذلك لتراجع الدور المصري بالنسبة للقطاع وترك المجال واسعا أمام العدو ليسرح ويمرح ! هناك تعاملات بالدينار الأردني والدولار ، وتستخدم عند بيع أو شراء العقارات أو الأراضي أو الاستيراد من الأردن والكيان الصهيوني . وعموما الأسعار في غزة مرتفعة ومعظم البضائع مصرية تم تهريبها عبر الأنفاق .

زهد المانحين

الوضع في غزة بصفة عامة سيئ ومتردد . نسبة البطالة تصل أحيانا إلى ٧٠% بين شباب القطاع ، ولكن القوم يحاولون التغلب على الصعوبات الاقتصادية ، والإفادة من كل ما تحت أيديهم ، وتمثل المعونات والمساعدات الخارجية من المؤسسات والجمعيات الخيرية العربية والدولية ؛ مصدرا مهما من مصادر التمويل ، وتنفيذ بعض المشروعات التعليمية والزراعية .. بالإضافة إلى ما تقدمة منظمة الأونروا التابعة للأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين ، التي ارتبطت بنكبة ٤٨ .. ويقف معبر رفح عقبة في طريق دخول المعونات الأجنبية والتبرعات الخيرية ، مما يزهد المانحين والمتبرعين في تكرار المحاولة .

يستورد القطاع من العدو بعض البضائع عبر معبر كرم أبو سالم ، ويستخدم هذه البضائع وسيلة ضغط على الفلسطينيين ، من حيث التوقيت وعملة التداول وغير ذلك .. فضلا عن أنه لا يسمح بدخول الحديد والإسمنت وبضائع أخرى يضعها في قائمة الممنوعات .

بالطبع فإن القطاع يعاني مشكلة طاقة خانقة وخاصة في المازوت والغاز ، ولذا فإن شبكة الكهرباء تعمل جزئيا بسبب التشغيل الجزئي للمولدات . يتقاسم السكان ساعات الإضاءة المتاحة بطريقة دورية ، وفي الأوقات الأخرى يتم الاستعانة بلمبات الجاز في البيوت ، وبالضرورة فالقطاع غارق في ظلام دامس معظم الليل والشوارع معتمة غالبا . ومع هذا الوضع المأساوي ، فإن غزة تحظى بحالة جيدة من الأمن والاستقرار ، ولكن الخوف يأتي من العدو الذي يقصف بطائراته وزوارقه الحربية أرض القطاع وشواطئه بصورة شبه دائمة ، وقد جعل المياه الإقليمية لا تتجاوز مائتي متر ، فلا تستطيع قوارب الصيادين المتواضعة أن تتجاوز هذا المدى ومن يتجاوز يتم إغراقه على الفور بالصواريخ أو القذائف اليهودية .

رابطة علمية

في ختام المؤتمر صدر بيان مطول يتضمن وقائعه وتوصياته التي جرت في الفترة من ٢٣إلى ٢٦ يناير ٢٠١٢م ، فقد نوقشت في المؤتمر قرابة أربعين بحثا علميا مهما على مدى إحدى عشرة جلسة ، شهدت حوارات ومناقشات علمية ثرية ، تناولت موضوعات شتى ، بدءا من ثقافة البحث العلمي وأخلاقياته ، والبحث العلمي لدي العدو وعلاقته بمراكز صنع القرار ، مرورا بالرؤية المستقبلية للنهوض بجودة

البحث العلمي وأداء مؤسسات التعليم العالي وعلاج الأورام وقضايا الفضاء ... حتى التجارب العربية والأجنبية في مجالات التطبيق العلمي وأثر العولمة وتأصيل الهوية ودور البحوث العلمية في التنمية العربية في شتى المجالات ..

وقد توصل المؤتمر من خلال توصياته التي بلغت إحدى وأربعين توصية إلى إنشاء أول رابطة علمية على مستوى العالم العربي تحت مسمى " رابطة علماء من أجل فلسطين " ، وشكل المشاركون في المؤتمر الجمعية التأسيسية للرابطة ، وقد افتتحت الرابطة حسابا مصرفيا باسمها لإيداع اشتراكات الأعضاء الذين ينضمون إلى الرابطة ، والتبرعات التي يقدمها علماء العالم العربي للدعم والمساعدة على ممارسة النشاط (موقع جامعة الأقصى على شبكة المعلومات فيه تفصيلات كثيرة) . وقد حددت اللجنة المؤقتة للإشراف على الرابطة قيمة الاشتراك بعشرين دولارا أميركيا أو ما يعادلها ، ودفع أعضاء المؤتمر اشتراكاتهم على الفور ، وباب العضوية مفتوح للعلماء كافة في الجامعات العربية . ، وقد أعلنت الجامعة الإسلامية وجامعة الأزهر وجامعة فلسطين بغزة عن الإسهام في الصندوق التأسيسي للرابطة ودعمه. وتم اختيار الدكتور شاكر تقي الدين الأستاذ بجامعة قناة السويس رئيسا مؤقتا للرابطة .

وقد اتفقت الرابطة على إقامة المؤتمر الدولي القادم عام ٢٠١٣م ، لعلماء البحث العلمي والدراسات في جامعة قناة السويس بجمهورية مصر العربية .

وسيتابع الاتحاد العربي للجامعات تنفيذ توصيات المؤتمر والعمل من أجل النهوض بالبحث العلمي والدراسات العليا فى فلسطين.

التفكير الاستراتيجي

ومن التوصيات المهمة للمؤتمر تأسيس هيئة مدنية للتفكير الاستراتيجي تشمل الدول العربية والإسلامية دون استثناء لأية جهة علمية، وذلك لتوسعة قاعدة المعارف والعلوم والخبرات والإمكانيات الدافعة للتقدم العلمي وتوثيق العلاقات العلمية بين المؤسسات البحثية في مجال البحث العلمي العربي.

كما أوصي المؤتمر بضرورة العمل على فتح برامج الماجستير والدكتوراه في الجامعات الفلسطينية، ودعمها بالكوادر العلمية العربية المطلوبة في التخصصات المختلفة وإنشاء مركز جامعة الأقصى للدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية بالاشتراك مع جامعة المنوفية بمصر وتقديم الحوافز المعنوية والمادية لأساتذة الجامعات وخاصة الحكومية، وذلك لدعمهم وتحفيزهم على البحث العلمي.

وطالب المؤتمر بضرورة تعزيز التعاون بين مراكز البحث العلمي العربية والأجنبية من خلال تبادل البحوث والإصدارات العلمية، وإعداد الدراسات المشتركة.

كما أوصى بإعداد خطة شاملة للبحث العلمي في كل جامعة من جامعات الدول العربية تسعى إلى تحقيق الرؤية المستقبلية للجامعة في مجال البحث العلمي والتطور التكنولوجي ، وتدعم البحوث متعددة التخصصات والعلوم المستقبلية في تحقيق التكامل للخطط والتوجهات الكلية على مستوى كليات الجامعة ، كما تتوجه الخطة البحثية بالجامعة بخطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والقضايا ذات الطابع القومي

.

التراب مرة أخرى

كان يوم العودة يوم وداع حافل بألم الفراق والدموع . كانت الدموع تطفر من العيون من المودعين والراحلين في وقت واحد . أصر رئيس الجامعة والعمداء والأساتذة على توديعنا حتى المعبر . وكان الدكتور موسى أبو دقة عميد البحث العلمي بجامعة الأقصى ورئيس المؤتمر معنا لحظة بلحظة بعد أن سلمنا عليهم عند بوابة الخروج من المعبر في ناحيته الفلسطينية . كان هاتفه لا يتوقف . يعتذر عن أي تقصير حدث سهوا . والشيء ذاته يفعله المسئولون وزملاؤه في الجامعة : الرئيس والعمداء والأساتذة ، وظل الاتصال حتى غادرنا العريش وأشرفنا على الإسماعيلية .

كنا في المعبر نظن أننا لن نستغرق وقتا فنحن عائدون إلى الوطن ، وأن حجة الأمن ليست مطروحة بالصورة التي كانت عليها ونحن داخلون إلى القطاع . ولكن المسألة لم تختلف كثيرا ، فقد بقينا أربع ساعات تقريبا حتى غطآنا تراب المعبر مرة أخرى ، واستمعنا إلى حكايات وقصص عجيبة عما يجري للعابرين وما يجري في المعبر .

رئيس مجلس إدارة المعبر كما قيل لي لواء سابق ، ويصر على إعادة ما يتوفر من ميزانية المعبر إلى وزارة المالية تحت دعوى نبيلة وهي أن مصر تحتاج إلى استيراد قمح ، والفائض المالي يسهم في هذا المجال ، المفارقة المضحكة المبكية أن سيادة اللواء الذي يحرم الموظفين والعاملين البسطاء من هذا الفائض يستثني نفسه من الأمر ، ويتقاضى حوالي ستين ألفا سنويا ! وهكذا تكون الوطنية وإلا فلا !

إتاوة المعبر

المعبر حريص على فرض إتاوة على الداخلين والخارجين . تدفع وأنت داخل إلي المعبر ١٠٥ مائة وخمسة جنيهات مصرية نظير الخدمات التي تقدم . واثنين وخمسين جنيها وأنت خارج منه أي في طريق العودة . ما هي هذه الخدمات التي تقدم بالضبط ؟ لا كوب ماء ولا علبة عصير ولا وجبة طعام !

عليك أن تدفع وإلا لن تسافر ذهابا أو إيابا ! ورئيس مجلس الإدارة يستمتع وحده بنصيب الأسد من الامتيازات وفائض الميزانية .

هناك كلام كثير عن وساطات في عملية العبور يقوم بها هذا أو ذاك مقابل علاقات أو خدمات أو إكراميات .. بيد أن جواز السفر الأميركي له مفعول السحر . فهو يتحرك بأسرع من الصاروخ في المعبر . كان معنا زميل في وكالة ناسا الأميركية عبر قبلنا بيوم واحد مع ابنته في وقت قياسي ! أما الزملاء المصريون والعرب فقد قضوا وقتا تجاوز ست ساعات !

تساءلت في سري : هل فكر المسئول عن الأمن بالمعبر في الإفادة من البحوث العلمية المهمة التي قدمها المؤتمر الدولي الأول لعمداء البحث العلمي والدراسات العليا ؟

لا أظنه فكر في ذلك لحظة ، وأعتقد انه لن يفكر في ذلك أبدا ، لأنه لا يفقه أن مفهوم الأمن قد تطور كثيرا ، وأن المفهوم القاصر على التحكم في خلق الله وإذلالهم هو الأمن المثالي بالنسبة إليه .. ونسي أن الأنفاق حطمت هذا المفهوم منذ زمان !

في طريق العودة اصطدمنا بأكثر من طريق مقطوع ، وعند دخول القاهرة كان المرور واقفا ، ووصلنا مطار القاهرة في التاسعة مساء ليلحق بعض الزملاء العرب

بطائراتهم وفي مقدمتهم الدكتور البشير الذي كان صابرا راضيا مبتسما .. فودعناه بالدموع والرجاء !
وعدنا إلى شوارع القاهرة المكتظة نواجه الزحام والضجيج وصراع الحياة الصعبة !
***

الأردن ونهره العريق
الغابات الصنوبرية والأجساد الطاهرة والرائحة الزكية

لا أدري لماذا تذكرت عندما بدأت رحلتي الأولى إلى الأردن في أواخر الشتاء وأوائل الربيع الحالي إلى ، قصيدة القدس التي تغنيها فيروز :

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي
لأجلك يا بهية المساكن يا زهرة المدائن
يا قدس يا قدس يا قدس يا مدينة الصلاة أصلي
عيوننا إليك ترحل كل يوم ترحل كل يوم

....

حين هوت مدينة القدس
تراجع الحب وفي قلوب الدنيا استوطنت الحرب

....

الغضب الساطع آتٍ الغضب الساطع آتٍ الغضب الساطع آتٍ وأنا كلي ايمان

....

سأدق على الأبواب وسأفتحها الأبواب
و ستغسل يا نهر الأردن وجهي بمياه قدسية
و ستمحو يا نهر الأردن آثار القدم الهمجية

....

حكايات التاريخ

الأردن ترتبط بالقدس وفلسطين ودمشق والجولان وجبل الشيخ والأغوار واليرموك وحطين وعين جالوت والتاريخ البعيد والقريب ، وموطن الجهاد والفتوح وتحرير الشام والقدس من الصليبيين والتتار والفرنسيين والإنجليز وشذاذ الآفاق ..

لم أكن أتصور أنني سأدخل الأردن أو أزورها . لماذا؟ لا أعرف . شعور داخلي بلا أسباب ولا بواعث . لا يخضع لمنطق ولا يقبل المناقشة . هل نستطيع أن نتحكم في المشاعر والعواطف ؟ الإجابة بالنفي : كلا !

ومع ذلك ، فقد حانت اللحظة التي أحزم فيها حقيبتي وأتوجه إلى المطار لحضور مؤتمر الأدبيات الإسلاميات الثاني بالجامعة الإسلامية في عمان وجامعة اليرموك في إربد ، كانت رأسي محملة بحكايات التاريخ ودروسه ، وصراعات القوى التي تحاورت على أرض الأردن قتالا وفكرا وصراعا لما ينته بعد .

بعد منتصف الليل خرجنا بالسيارة من قريتي التي تبعد عن القاهرة نحو مائتي كيلومتر . كانت أخبار قطع الطرق ، وهجمات الفوضويين ، وتكدس المرور بالسيارات على طريق الاسكندرية الزراعي الذي تحول إلى ما يشبه شارعا من شوارع القاهرة المكتظة بالناس ، والخوف من تعطل السيارة ، مثلما حدث في مناسبة سابقة حيث وصلنا المطار والطائرة تقلع ، مما أدى إلى العودة وإلغاء السفر .. كل

هذا جعلنا نتحرك مبكرين لتكون هناك أربع ساعات وقتا احتياطيا يسبق موعد الوصول إلى المطار تحسبا للطوارئ .
كان البرد له لسعات واضحة ، ويبدو أنني لم أحترز منه جيدا ، وهو ما ظهر بعد الوصول إلى عمان وتمثل في نزلة شعبية حادة استغرق علاجها أسابيع ، جعلتني أقبع في البيت مهدودا مكدودا ، لا أستطيع القراءة أو الكتابة .

وقت السحر

كان الطريق في وقت السحر مفتوحا بحمد الله ، والسيارة تنطلق دون معوقات . ما كان يخيفنا هو شح الوقود .فقد أوشك بنزين السيارة على النفاد . معظم محطات التموين بالوقود مغلقة أو ليس فيها وقود . وبعد الوصول إلى الطريق الدائري والاقتراب من الكلية الحربية على مشارف مطار القاهرة الدولي ، اكتشفنا محطة مفتوحة وبها بنزين ٩٢ - المطلوب ، ملأنا الخزان وقضينا بعض الحاجات وكنا في صالة المطار قبيل الفجر . صليت على كرسي ، وبقيت خارج مكان الوزن حتى اقتربت الساعة السادسة . تركت نجلي (محمود) وصديقه (عماد) موصيا ألا يبرحا المطار حتى يتأكدا من دخولي مكان الصعود إلى الطائرة .
حاولت في صالة السفر أن أقرأ كتابا معي ، وأتناول بعض الطعام حتى ينادى على المسافرين ، ولكن الزحام الملفت للنظر ، ومجيء أصدقائي وزملاء الرحلة جعلني لا أتابع القراءة ، وأنشغل بموضوعات شتى تتعلق بالرحلة والتعارف مع بعض المشاركين في المؤتمر .
أخذت طلائع الأديبات المشاركات في التوافد على الصالة . الشاعرة نوال مهني والدكتورة مديحة السائح ، وانضم إلينا بعض الزملاء ، وكان الدكتور سعد أبو الرضا قد التقي بي عند التسجيل والوزن ، وتركني لبعض شأنه ثم عاد .

رذاذ خفيف

كان جو القاهرة يميل إلى الدفء بحكم الشمس الساطعة ، وهو ما أحسسته عند الصعود إلى الطائرة . لم أتنبه إلى طرازها جيد ، ولكنها كانت صغيرة وضيقة وخانقة ، وسهّل الأمر أن المسافة بين القاهرة وعمان قصيرة نسبيا . تستغرق نحو ساعة إلا قليلا ، وفي مطار عمان الذي هبطت فيه الطائرة كان الجو غائما ، واستقبلنا رذاذ خفيف عندما خرجنا إلى خلاء المطار الفسيح مع برودة طفيفة ولكنها محتملة وخاصة أن المسافرين يرتدون ملابس ثقيلة فرضها جو القاهرة الشتوي .

بدون تأشيرة

مطار عمان مليء بالطائرات من كل حدب وصوب ، عربية وأجنبية . هل لنظام الدخول في الأردن علاقة بهذا التدفق الخارجي ؟ تسمح السلطات بالدخول بدون تأشيرة وهذا يفسر تدفق الجنسيات الآسيوية القادمة من الشرق وخاصة من الصين . طوابير الجنس الأصفر أمام الجوازات طويلة وينشط الموظفون في إنهاء إجراءات الدخول ، ومن يشكون فيه يناقشونه وفي أجهزة الكمبيوتر التي يسجلون عليها كاميرات تصور الأشخاص وتنقلها على الأجهزة !
يبدو أن الذكاء الأردني في إلغاء التأشيرة خدم السياحة الأردنية خدمة كبيرة . المسافر قد يلغي السفر عندما تتعسف القنصليات في منح التأشيرة . هناك قنصليات

عربية تجعل الحصول على تأشيرة أصعب من دخول الجنة ، بينما تدخل الأردن وتحصل على إذن الدخول وأنت في طابور تسجيل الجوازات فيما لا يزيد عن عشر دقائق ؛ فإن سفارات عربية وإسلامية تجعلك ترى نجوم الظهر حيث تنتقل من مقر إقامتك بعيدا عن القاهرة لتصل في الصباح الباكر جدا وتحجز مكانا متقدما لتقديم الأوراق ، وعندما تصل إلى الشباك قد يقبل منك الطلب أو يرد تحت ذريعة واهية ، ويا ويل المصاب بفيروس سي ، فهذا لا يسمح له أبدا بالدخول !

عمّان تستقبل الناس ، ومعهم الفلوس ليقيموا وينفقوا ويتفرجوا على الطبيعة الأردنية والآثار الرومانية والقلاع الإسلامية ومدافن الصحابة ومواقع المعارك والغزوات وغور الأردن ، ويشاهدوا العدو على الجانب الآخر يسيطر على الجولان وجبل الشيخ وفلسطين ومساجدها ومزارعها !

أهلا بالضيوف

على باب المطار كان مندوب المؤتمر ينتظرنا بلافتة مكتوب عليها أهلا بضيوف ملتقى الأديبات المسلمات الثاني . وضعوا الحقائب في أتوبيس صغير لكنه جديد ، انطلقنا نحو الفندق . المسافة بين المطار والفندق حوالي أربعين كيلو مترا قطعناها في نحو ساعة . عبر الطريق تبدو المدينة واسعة رحبة ، ممتدة وهادئة . تقوم على التلال الخضراء التي أحيتها الأمطار الشتوية ، ويفصل بين التلال وديان تضم بيوتا ومزارع ، وشجرة الزيتون هي الشجرة الأم التي تثبت حضورها في كل مكان . على سفوح التلال تنمو أشجار خضراء وبعضها يصنع غابات طبيعية ، وفي أرجاء الأردن غابات عديدة تحمل أسماء مشاهير منها غابة ملك البحرين وغابة وصفي التل ...

الطرقات واسعة للغاية ونظيفة . العلامات المرورية والإرشادية بارزة . يبدو أنهم مهتمون بالتعريف بكل الأماكن والمعالم عندهم ، حتى المناطق التي يتم فيها إصلاح الطريق ، يقيمون علامات ضوئية بجانب العلامات الملونة واللوحات المكتوبة والمرسومة . المطبات مصنوعة بعناية ومهارة بحيث لا تؤذي السيارات ولا الركاب وواضح أن هيئة المرور من وراء إعدادها . تبدو المطبات عريضة للغاية ربما يمتد الواحد منها لمسافة مترين أو أكثر ، وهي بصفة عامة متدرجة العلو والانخفاض في نعومة واضحة . والطريف أن بها مساحة من البلاط الصغير الملون الذي يتفاعل مع أضواء السيارة بالليل ويلاحظه السائق في النهار من مكان بعيد .

لا مجال للمقارنة مع المطبات عندنا التي تبدو نوعا من تعذيب الركاب وتدمير السيارات ، وتعبيرا عن عدم الاكتراث بالطبيعة والبيئة والإنسان جميعا ، ناهيك عن الحفر والنتوءات التي لا تقتصر على الطرق الداخلية أو الفرعية ، ولكنها امتدت إلى ما كان يسمي الطرق السريعة .

اهتمام بالتعليم

لاحظت أنهم يفيدون من الطرق السريعة في مجال الإعلان ، فترتفع لوحات إعلانية ضخمة وفقا لأحدث ووسائل الدعاية الضوئية أو النيون أو غيرها ، وكثير منها ينبئ عن اهتمام المجتمع بالتعليم الأساسي والتعليم العالي ، فهناك جامعات رسمية وأخرى

أهلية ، مثل البترا وآل البيت والعلوم الإسلامية واليرموك وغيرها . عرفت فيما بعد أن هناك عشر جامعات رسمية مثلها جامعات خاصة .
شوارع عمان فسيحة وهادئة خاصة في الأحياء الجديدة المنشأة حديثا . المباني غير مرتفعة بصفة عامة ، وتكاد تكون منتظمة على هيئة فيلات ، وأغلبها مبني بالطوب الأبيض الذي يشكل لمسة جمالية في المبنى الذي تحيطه شبه حديقة صغيرة عادة . الطوب الأبيض عندنا صار رمزا للقبح واغتيال الأرض الزراعية والاعتداء على الأملاك العامة والبناء على شواطئ النهر الخالد وحواف الترع والطرقات العامة .

وصفي التل

وصلنا الفندق الذي يقع في شارع متفرع من شارع رئيس يحمل اسم رئيس وزراء الأردن الأسبق وصفي التل . وهو رجل شغل السياسة العربية في الستينيات ، شكل الحكومة الأردنية في ٢٨ يناير ١٩٦٢ واستقال بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٦٢، ثم شكل الحكومة مرة أخرى في ١٩٦٥ ومرة ثالثة من ٢٨ أكتوبر ١٩٧٠ حتى ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ ، وهو العام الذي تم فيه اغتياله بالقاهرة على أيدي أعضاء من منظمة أيلول الأسود - كما قيل يومها - أمام مقر جامعة الدول العربية ، بسبب سياسته المعارضة للمقاومة الفلسطينية التي كانت قد أخذت شكلا ملموسا على الأرض ، ولكني فيما أذكر لم أسمع عن القبض على قاتليه أو محاكمتهم . والرجل ينتمي إلى عائلة كبيرة في الأردن ومنهم شخصيات شهيرة من بينها والد وصفي التل نفسه وهو الشاعر الكبير مصطفى وهبي التل والمجاهد الكبير عبد الله التل الذي ذاعت كتبه عن فلسطين وما جرى لها من خيانات عربية وغدر صهيوني .

أكثر حيوية

في الفندق تعرفنا على غرف الإقامة وكان يشاركني غرفتي الدكتور سعد أبو الرضا ، وكلانا في سن متقاربة ونشكو من متاعب صحية عديدة ، ولكنه أكثر نشاطا وحيوية مني ، ويحرص على التزام بالمواعيد قبل حلولها بوقت كاف ، ويستثمر وقته في القراءة أو الكتابة وتسجيل ما يخطر بباله ، مع ملاحظة أنه لا يحب التلفزيون أو متابعة نشرات الأخبار .
تناولنا الغداء في الفندق الذي يبدو أنه من فنادق النجوم الثلاث أو الأربع – لا أعرف الفرق ، ولكنه في كل الأحوال ليس فخما أو مترفا ؛ وإن كانت الأسعار فيه مرتفعة ، بالنسبة للجنية المصري على الأقل . الدينار الأردني أو الليرة كما تسمى في بعض المناطق يعادل عشرة جنيهات مصرية ، وأبسط الأشياء بدينارين أو ثلاثة . صندوق من الفول الأخضر (الحراتي) يزن اثنين كيلو بدينارين أي عشرين جنيها ، أي إن ثمن الكيلو من الفول الأخضر عشرة جنيهات تساوي خمسة أضعاف ثمنها في مصر . شرب الزملاء ستة أكواب من الشاي وقدحين من النسكافيه فدفعوا ما يقرب من مائة وثمانين جنيها ، وتعجبوا!
للأسف الجنيه المصري غير معترف به في الأردن وفي معظم دول العالم وفي مقدمته العواصم العربية . لا يتعاملون به في البنوك وشركات الصرافة ، ولا يقبلون بتغييره إلا إذا ذهبت إلى بنك رسمي رئيسي يستثني الحالة التي أمامه ، بينما كان في

الزمن القديم يمثل مقياسا لبقية العملات لدرجة أن أطلقوا على النقود في العالم العربي اسم المصاري – نسبة إلى مصر.

روح متفائلة

في المساء التقينا بالزملاء المشاركين الذين قدموا بعدنا من الاسكندرية والقاهرة ، وتقابلنا مع الزميلات والزملاء العرب القادمين من السعودية واليمن والإمارات وسورية ولبنان والجزائر والمغرب . جلسنا في بهو الفندق مع بعضهم وتبادلنا الحديث حول أمور شتى . جاء الدكتور عبد الله الطنطاوي صاحب موقع رابطة أدباء الشام ، وشقيق الأديب والعالم الراحل الشيخ على الطنطاوي – رحمه الله . الرجل من المجاهدين الذين تعرضوا لعسف النظام السوري الطائفي ، وأرغم على ترك الشام منذ سنوات بعيده مع أهله وذويه ، ولكنه يتمتع بصبر شديد وروح متفائلة وإرادة قوية ، وقد ضاع منه ابنه ولم يعثر عليه حتى الآن ، ولكنه يقاوم . كان لقاؤنا حميما وطيبا .

واتفقنا على لقاء آخر مطول ولكنه لم يتحقق ، فقد شغله في اليوم التالي عزاء لبعض أقاربه الذين حان أجلهم المحتوم .

فتاة نشطة قوية

في اليوم الثاني كانت جلسة افتتاح المؤتمر في الجامعة الإسلامية العالمية بالعاصمة . تضم الجامعة بعض الكليات على غرار الأزهر ، وقد انعقدت الجلسة في قاعة كلية أصول الدين . حضر عدد كبير من الضيوف وأساتذة الجامعة والطلاب ، وافتتحت الجلسة بالقرآن الكريم الذي تلاه طالب من غانا عذب الصوت فصيح اللسان محب للإسلام ، وبدا ذلك من خلال اندماجه في تلاوة الآيات . قدمت الجلسة الأدبية الإعلامية المبدعة نردين أبو نبعة وهي فتاة نشطة قوية الأسلوب جميلة الصياغة ذكية الأداء ومهدت في تقديمها بالتعريف بالأدب الإسلامي وقيمته العليا وارتكازه على القيم الإيجابية ، موضحة صورة الأدب الإسلامي وأثره الإيجابي وعمقه الحضاري، مع بيان حاجة المجتمعات للأدب الناصع الذي يقدم للمرأة الأم والزوجة والأخت والابنة دون أن يمس الحياء أو يخدش المشاعر ..

وقد أرسل الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، رئيس رابطة الأدب الإسلامي – الجهة الأولى التي أعدت للمؤتمر أو ملتقى الأديبات الإسلاميات الثاني – يعتذر عن عدم حضوره بسبب مرضه ، وقال : إنني إذ لم أتمكن من حضور الملتقى؛ أسأل الله سبحانه لكم التوفيق والنجاح في تنفيذ فعاليات الملتقى، وأشكر كل من شارك في إعداده، والكتابة في محاوره من الأخوات والإخوة الأدباء والنقاد، والجهات الحكومية والأكاديمية التي سهلت وتعاونت لعقده، آملا أن تتاح الفرصة بالكتابة والحضور والمشاركة في ملتقيات قادمة بإذن الله سبحانه؛ لمن فاتهم ذلك في هذا الملتقى.

نون النسوة

وألقى الدكتور عودة أبو عودة ، أستاذ الدراسات اللغوية في الجامعة، قصيدة متميزة حيا فيها الأديبات واستخدم قافية نونية تتفق مع نون النسوة لقيت ترحيبا من جموع الحاضرين ، منها قوله :

فكل الذي قد تمنّى تَسَنّى وجمعُ الرجال يحيّونكن
بَيانٌ سواءٌ فلا تَعْجَبُنّ وفي كل شأن لنا أو لكنّ
ونرضى وندعو وكنتم وكنا رجالاً نساءً بلا أيِّ مِنّه ...

وألقت نبيلة الخطيب رئيس مكتب رابطة الأدب الإسلامي بالأردن كلمة ترحيبية ضمنتها بعض شعرها من قصيدة " نساء " التي تعبر عن الاحتفاء بالنساء كون الملتقى للأديبات، وقصيدة" صهوة الضاد" وهي القصيدة التي تحتفي بالشعر العربي واللغة العربية والتي فازت بالجائزة الأولى في مسابقة مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين ومن القصيدة الأولى :

هـــل الـفجــــرُ أدركَ كُنـــــــــــهَ الـنـســـــاء؟!
فــــأيقــــظَ فـــي الكـــــــون ســـــــرّ البهـــاء!
هــــي الشمـــــسُ أنثــــى تُجَــــلّي الـعيــونَ
وتـــأبـــى علـيــــها بـــخِـــدر الــــضـيـــــــــاء
تجـــرجـــــرُ أذيـــالَـــهــا فـــي البطـــاح
وجَـبــهـتُـهـــا قُــبلـــــــــــةٌ فــــي السمــــــــاء!

ومن القصيدة الثانية :

قوامُهُ الضادُ والأضدادُ تَغْبطُهُ
هيْهاتَ تَرْقاهُ، جَزْلاً مُعْجِبًا فَصْحا
تَشْتدُّ في إثْرِهِ الأقلامُ راعِفةً
وهْجاً فيورى بِألبابِ الورَىْ قَدْحا
كأنهُ البحرُ يَخشى المرءُ غَضْبَتهُ
وإنْ أنابَ يَجُبْ أنواءَ هُ سَبْحا
كأنه الريْحُ إنْ هاجَتْ مُحَمْحِمةً
مَنْ ذا يُطيقُ إذا ما اسْتُنفِرتْ كَبْحا؟!
هذا هو الشِّعرُ صهواتٌ مُطَهَّمَةٌ
مَرْحَى لخيَّالِها إنْ أَقْبلتْ مَرْحى
لا يَضْمَحِلُّ وقد فاضَتْ منابِعُهُ
نضّاخَةَ الحُسْنِ لا تنضو ولا تَضْحى
اللهُ أكبرُ حتى حِينَ أَعْجَزَنا
ربّ ُ البيانِ فكان الوحيُ بالفُصْحى.

وقد مثّل وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات والإسلامية عبد السلام العبادي رئيس الوزراء الأردني عبد الله النسور .. وشارك الدكتور ناصر الخوالدة نائبا عن رئيس الجامعة الاسلامية الذي كان خارج البلاد ، والدكتور عدنان العتوم نائب رئيس الجامعة .

مفاجأة حسنة

وجاء عقد الملتقى الدولي الثاني للأديبات الإسلاميات متقارباً مع موعد احتفاء العالم باليوم الدولي للمرأة، فكان مناسبة للتعبير عن انتصار المرأة وتقديرها ومكانتها اللائقة في المجتمع الاسلامي .
عقب الجلسة الافتتاحية خرجنا في استراحة قصيرة لتناول الشاي في قاعة فسيحة ، وكانت فرصة للتعارف وتبادل الآراء ، لاحظت وجود فتاتين تحملان إعلانا كبيرا ونسخا من مجلة فخمة ، كانت مفاجأة حسنة أن تكون البنتان كريمتي أخي وصديقي الشاعر المغربي الكبير حسن الأمراني ؛ شفاه الله وعافاه ، كانتا تحملان العدد الأول من مجلة " المشكاة " الأدبية التي تحمّل الأمراني إصدراها مرة أخرى بعد أن توقفت لأسباب مادية عقب سنوات عديدة من الصدور والتأثير في الحياة الأدبية . هذه المرة يشرف على إصدار المشكاة ابنة الأمراني الكبرى الدكتورة اعتماد ، وهي حاصلة على الدكتوراه في الإعلام من لندن ، وتساعدها أختها الصغرى هدي . فرحت بالمجلة كثيرا ، وكان غلافها الأخير يحمل إعلانا كبيرا عن أحدث كتبي الذي صدر في أربعة أجزاء ويتناول قصص الحديث النبوي الشريف . تعرفت على الفتاتين وسعدت بهما وبنشاطاتهما الثقافية ، وهاتفت والدهما في وجودهما ، وتمنيت له التوفيق والنجاح والشفاء في العملية الجراحية الكبرى التي سيجريها لزرع كلية سيتبرع بها ابنه الأكبر يوسف ، وقد تناولت المجلة ومضمونها في موضع آخر .
من خلال الاستراحة تعرفت على أدباء وأديبات ، كنا نتبادل الرسائل ولم ير بعضنا الآخر ، وتلقيت العديد من كتب الهدايا .والتقطنا صورا تذكارية عديدة .

الأدب التغريبي

وبدأت الجلسات العلمية بجلستين في اليوم الأول :
الجلسة الأولى عقدت تحت عنوان (البعد الإنساني والذاتي في الرواية النسائية) ، نوقشت فيها قضايا (الأدب التغريبي في الفن الروائي النسائي) و (الإنسان والقضية في رواية "مخيم يا وطن" للأديبة دعد الناصر و (قراءة في رواية "توبة وسليى") للأميرة مها الفيصل من منظور إسلامي.. و(الصراع الحضاري في "ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور ، و(قراءة تحليلية في رواية "رحيل" للروائية جهاد الرجبي ، و(قراءة في بعض الأعمال الروائية للأديبة جهاد الرجبي) .
وفي الجلسة الثانية التي كان محورها (ظواهر أسلوبية في الشعر الإسلامي النسائي) ، نوقشت قضايا : (صورة المرأة في الشعر الحداثي.. رؤية نقدية من منظور إسلامي ، و(جدلية الطين والروح عند أمينة المريني. قراءة في ديوان سآتيك فرداً) ، و(النموذج الإنساني في ديوان "إلى شهيد" لأمينة قطب ، و(نظرة في ديوان عقد الروح للشاعرة نبيلة الخطيب) ، و(الدعاء في شعر علية الجعار) ، و(نفحات من شعر علية الجعار ، و(الشعر الديني عند جميلة العلايلي) ، و(عائشة الباعونية ونماذج من التناص في أدبها) .

المروج والخضرة

عقب الجلسة اتجهت بنا السيارات إلى جرش ، وهي مدينة تاريخية بها آثار رومانية وغيرها ، وتقيم بها الحكومة مهرجانا سياحيا سنويا تحشد له العديد من الفرق الفنية

في الرقص والمسرح والغناء ، ويبدو أن بعض ممارسات المهرجان تتجاوز العادات والتقاليد المحلية مما يغضب السكان ، ويدفع بعضهم إلى المطالبة بإلغائه .
الطريق إلى جرش مليء بالمروج والخضرة والأشجار السامقة على الجانبين ، وتطل من قريب أو بعيد مدن وقرى ومخيمات سط الزراعات المتنوعة وشجرة الزيتون المباركة . وقد وصلنا أخيرا إلى مطعم شرقي على تلة مرتفعة في جرش . المطعم يستدعي طرازا معماريا قديما ، وتتصدره بعض الأدوات والآلات القديمة على هيئة نماذج مصغرة ، خشبية أو معدنية او برونزية ..
ويحاول المطعم أن يكون ما يقدمه صورة للطعام الشعبي إلى حد ما ، ويبدأ بتقديم خبز ساخن اقرب إلى الخبز الباكستاني " التميس " وبجواره نوع آخر من الخبز يشبه الرقاق الريفي الذي كان يصنعه الفلاحون المصريون إلى وقت قريب ، وكلا النوعين من الخبز لا يعتمد على الخميرة ولكنه يعجن ويخبز في الحال ويقدم ساخنا ليتم تناوله مع المتبلات والطحينة والمخللات ، وبعدها يأتي دور المشويات ، وكل ذلك مع المشروبات الغازية .
ويلاحظ أن هنالك إقبالا كبيرا على مثل هذه المطاعم من المجموعات السياحية والعائلات والأفراد ، لذا تجدها مزدحمة للغاية ، وبها عمالة كبيرة معظمها من شباب المصريين الذين يحملون مؤهلات عليا ومتوسطة ، وبعضهم قضى في الأردن سنوات طويلة ، ويجدون هناك فرصة أفضل للعمل والحياة مع انخفاض الأجور نسبيا وغلاء الأسعار ، فهم هنا بعيدين عن الكفيل والقيود الي تفرضها دول الخليج على العمالة المصرية .
تأخرنا في المطعم ، فكانت العودة إلى الفندق في حوالي السابعة والربع ، وكنت قد استنفدت طاقتي وجهدي ، وأخذت آلام البطن تشتد ، وبوادر السعال تنشط على غير العادة ، وحاول بعض الزملاء أن أنضم إليهم للسهر في الفندق ، أو النزول إلى قلب العاصمة ، ولكني لم استطع ، فبقيت في الغرفة بعد أن أديت صلاتي المغرب والعشاء جمعا وقصرا بمسجد الفندق ، وعلى السرير كانت تطاردني نشرات الأخبار في الوطن بصور مؤلمة وحديث عن ممارسات إجرامية يسميها الإعلام الظالم احتجاجات، مع أنها تصب في إحراق المؤسسات والضرب بالمولوتوف والخرطوش ، وهناك الملثمون الذين يمارسون العنف بأبشع صوره ضد الآمنين والسيارات والفنادق وقوات الأمن .

شاعر نشيط

في اليوم الثاني انتقل الملتقى إلى مدينة إربد التي تبعد نحو تسعين كيلو مترا عن عمان في اتجاه الشمال ، حيث عقد جلساته في مدرج جامعة اليرموك ، وكان لا بد من التحرك مبكرا حتى تبدا الجلسات في وقت مناسب .
الطريق إلى إربد طويل وممتد ، وكان بعض الزملاء من أهلها يرحبون بنا عبر مكبر الصوت في السيارة ، ويشرحون لنا بعض الأمور المتعلقة بجامعة اليرموك والتعليم الجامعي بصفة عامة ، فضلا عن وصف بعض الأماكن التي نمر بها ، مع إشارات تاريخية تكشف عن تكوينها أو بعض الحوادث المرتبطة بها ، وكان معنا شاعر بلغ من العمر سنا متقدمة ولكنه يتمتع بحيوية ملحوظة ، ومع أنه كان يقيم في

بيته بعيدا عن الفندق الذي نقيم فيه ويأتي به بعض أقاربه في الصباح ليشارك في الأنشطة ، فقد كان يشنف آذاننا بقصائده الوطنية والقومية والإسلامية ، كلها تدور حول الوحدة والتضامن وهجاء الفرقة والخيانة وعدم التمسك بحبل الله المتين ، ثم إنه لا يمل من التحريض على الجهاد لتحرير القدس والمسجد الأقصى وفلسطين .. وفي ظل هذه النشاطات داخل السيارة ، كان الوقت يمر سريعا ، يساعد على ذلك اللون الأخضر الذي ينساب على جانبي الطريق وإيحائه السار الجميل ، وتأثيره على النفس بالسكينة والهدوء .

اعتذار حار

وصلنا إربد ، ودخلنا جامعة اليرموك قبيل العاشرة ، ورأينا العديد من الكليات التي أقيمت على التلال المتجاورة وتربطها الطرق المرصوفة والحدائق الجميلة ، وكانت الجامعة عند وصولنا في حالة من الطوارئ من أجل انتخابات اتحاد الطلاب ، وامتلأت الجدران بالإعلانات ودعوات المرشحين ، وبدا التنافس حادا وشديدا لدرجة شغلت رئيس الجامعة ونوابه عن استقبالنا كما كان مقررا ، ولكنه أرسل عميد كلية الآداب ليعتذر اعتذارا حارا بسبب الانتخابات التي تمثل صورة من صور الصراع القبلي ، وليس السياسي ، وهو ما يجعل للانتخابات حساسية خاصة لا تقل عن حساسية الانتخابات النيابية ، وقد علمت في المساء أن الطلاب الإسلاميين خسروا الانتخابات أمام التجمعات القبلية ، ورأيتهم في مسجد الجامعة الكبير عند صلاة العشاء وقد تجمعوا في دائرة واسعة يرفرف عليهم السكون وهم يراجعون موقفهم ، ويتناولون أسباب الخسارة التي انتهت بهم إلى الحصول على بضعة مقاعد من أكثر من ستين مقعدا !

شاعرية القص

بدأت الجلسة الأولى بتناول (الفن القصصي النسائي.. دراسات نقدية) ، ونوقشت فيها أوراق تحت عنوان (تشكلات السرد في القصة النسائية المعاصرة) و (شاعرية القص في مجموعة" ظلال وارفة) و(إشراق الرؤية وتعالقها مع البنية السردية في مجموعة " قلبك يا صديقي") ، و(السرد القصصي في مسيرة الدكتورة بنت الشاطئ الإبداعية) ، و(دراسة تحليلية لنماذج من القصة القصيرة لأديبات في مجلة الأدب الإسلامي)، و(مغامرتي الإبداعية في الكتابة الروائية من خلال روايتي " على المحك " و "هواجس عانس ") ، و(الرسالة الإنسانية والاجتماعية في المجموعة القصصية "الصومعة" لنوال مهني) ، ودراسة المجموعة القصصية "ربما غداً" لشيمة الشمري.

وفي الجلسة الثانية تناولت الدراسات (قراءات نقدية في أعمال شاعرات إسلاميات) ، وناقشت (الجذور التاريخية للأدب العربي الإسلامي) و(دراسة تحليلية لديوان "الأجنحة البيضاء لجليلة رضا "). و(قراءة في ديوان "على أعتاب الرضا" لعلية الجعار) و(قراءة في ديوان (يا الله) للشاعرة الهندية التي دخلت الإسلام كملا ثريا) ، و(دراسة تحليلية في ديوان "ورود من زناتة" لأمينة المريني ، و(ديوان بنت الشاطئ.. جمع وتحقيق ودراسة نقدية) ، و(جماليات الصورة الفنية في شعر نبيلة الخطيب.. الثلاثيات أنموذجا) .

وكما هو واضح من القضايا التي طرحت في جلسات اليومين المتتابعين ،فقد كانت الدراسات غنية وممتلئة ، وقدمت كثيرا من الأعمال الجيدة التي كتبتها الأديبات المسلمات في مختلف بقاع العالم الإسلامي ، وقد زادتها غنى وثراء المناقشات التي كانت تعقب الجلسات ، حيث أضاءت مناطق فنية كثيرة ، وفتحت كثيرا من الآفاق أمام أدب المرأة المسلمة المعاصرة .

الغربة والمنفى

وقد تأثرت كثيرا حين جاءت أرملة الأديب السوري الراحل محمد الحسناوي(١٩٣٨- ٢٠٠٧م) لتهدي إلى بعض أعماله الأدبية ، فقد كان الراحل من المجاهدين الذين قاوموا نظام البعث السوري الفاشي ، وتعرض لكثير من المتاعب ، ما اضطره إلى ترك بلاده ، والعيش في الغربة والمنفى ، وقد عبر عن تجربته من خلال الشعر والنثر ، وله مؤلفات عديدة ، من بينها روايته الطويلة " خطوات في الليل " التي كتبت عنها دراسة نقدية مسهبة .

في الجلسة الختامية تم تكريم المشاركين مع التقاط الصور التذكارية.

توصيات

وبانتهاء جلسات الملتقى ومناقشاته العلمية ارتأى المشاركون اعتماد التّوصيات الآتية عن الملتقى الذي انعقد بالأردن في يومي الأربعاء - الخميس: ٢٤ – ٢٥/ ربيع الثاني/ ١٤٣٤هـ الموافق: ٦ – ٧/ ٣/ ٢٠١٣م :

أولا: نشر أعمال الملتقى على موقع الموقع الإلكتروني لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

ثانيا: مواصلة الجهود في الكشف عن إبداعات الأديبة الإسلامية في الفنون الأدبية.

ثالثا: إعداد موسوعة تجمع أدبيات المرأة الإسلامية ووضعها بين أيدي الباحثين بهدف دراستها والتعليق عليها بما يناسب، وتعميمها على المواقع الإلكترونية.

رابعا: العناية بترجمة إبداعات الأديبات الإسلاميات إلى لغات شعوب العالم الإسلامي لتحقيق التواصل والتفاعل الثقافي.

خامسا: طباعة البحوث المشاركِة في هيئة كتاب بعد تعديلها .

سادسا: توجيه طلبة الدراسات العليا نحو دراسة جوانب مغمورة من أدب المرأة.

سابعا: ترتيب مسابقات إبداعية تهدف إلى تشجيع المرأة المسلمة، وإثراء الأدب الإسلامي. والعمل على تكريم الأعمال الفائزة في الملتقى التالي.

ثامنا: استحداث صفحة إلكترونية خاصة بالأديبات الإسلاميات بهدف توسيع دائرة البحث في والإبداع.

تاسعا: إقامة الملتقى العلمي المقبل حول الأديبة الإسلامية والشهود الحضاري.

عاشرا: تعميم التوصيات على المؤسسات الإعلامية، والمراكز العلمية من أجل التعريف بها.

حادي عشر: مخاطبة الجهات المسؤولة عن المناهج الدراسية في البلاد العربية والإسلامية من أجل توظيف أعمال وتوصيات الملتقى.

ثاني عشر: الاستمرار بعقد الملتقيات العلمية المشتركة بين رابطة الأدب الإسلامي وجامعات العالمين العربي والإسلامي بصورة دورية.

ثالث عشر: عقد الملتقى الدولي للأدبيات كل عامين أو ثلاثة على الأكثر.
رابع عشر: إقامة الملتقى الدولي الثالث للأدبيات الإسلاميات في دولة المغرب.

موقعة اليرموك

انتقل المشاركون والضيوف إلى شمال غرب الأراضي الأردنية حيث يشرف الموقع على أراضي الشمال الشرقي لفلسطين المحتلة ، والجنوب الشرقي للجولان السوري المحتل ، كما شاهدوا جبال جنوب لبنان عن بعد.

كان أبرز الأماكن في المنطقة موقع معركة اليرموك التي انتصر فيها المسلمون على الروم في معركة غير متكافئة ، التقديرات الاسلامية القديمة تشير إلى أن حجم الجيوش الإسلامية كان يتراوح ما بين ٢٤.٠٠٠ إلى ٤٠.٠٠٠ أما حجم القوات البيزنطية فيتراوح ما بين ١٠٠.٠٠٠ و ٢٠٠.٠٠٠. وتقدر حسابات حديثة أن حجم الجيش البيزنطي تراوح غالباً ما بين ٨٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠، ويدور حجم جيش المسلمين حول ٣٦ ألف مجاهد . وقد خسر الرومان قرابة ثمانين ألفا من مقاتليهم ، وفي المقابل فقد المسلمون أربعة آلاف شهيد . وهو ما يجعل التقديرات القديمة للجيشين أقرب إلى الصواب وفقا لهذه الخسائر . وقد استعان الرومان في هذه المعركة كعادتهم بأعداد كبيرة من المرتزقة والشعوب التي كانت تحت سيطرة إمبراطوريتهم . ، وترتب على النصر العظيم للمسلمين في اليرموك أن استقر المسلمون في بلاد الشام ، واستكملوا فتح مدنه جميعا، ثم واصلوا مسيرة الفتح إلى الشمال الإفريقي وأرض الروم .

كانت الغابات الصنوبرية تشق الفضاء وتثبت عراقتها وارتباطها بالمكان ، وكانت هناك معسكرات كشفية للشباب ، بالإضافة لبعض مواقع المراقبة والحراسة .

سيف الله المسلول

موقع اليرموك من أهم المواقع التي تنقل التاريخ إلى الحاضر والمستقبل ، وتقدم دروسا وعبرا كثيرة لمن يريد أن يتعلم أو يعتبر . فقد قاد معركة اليرموك خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي (توفي سنة ٢١هـ/٦٤٢م) ، وهو صحابي جليل وقائد عظيم ، لقّبه الرسول – صلى الله عليه وسلم - بسيف الله المسلول. اشتهر بحسن تخطيطه العسكري وبراعته في قيادة جيوش المسلمين في حروب الردة وفتح العراق والشام ، على عهد أبي بكر وعمر ، وهو القائد الذي لم يهزم في معركة قط ، والمعارك التي خاضها تتجاوز أكثر من مائة معركة ، كان العدو فيها يتفوق عدديًا دائما سواء كان العدو الإمبراطورية الرومية البيزنطية ، أو الإمبراطورية الساسانية الفارسية وحلفاءها ، أو القبائل العربية .

في غزوة مؤتة عام ٨ هـ ، وجد المسلمون أنفسهم أمام جيش من مائتي ألف مقاتل نصفهم من الروم والنصف الآخر من الغساسنة الذين استفزوا المسلمين . كان الموقف عصيبًا، وقتل قادة جيش المسلمين الثلاثة على التوالي، فاختار المسلمون خالدًا ليقودهم في المعركة. واستطاع بخبرته وحنكته أن يرغم الروم على الانسحاب ، ونجح خالد في أن يحفظ الجيش من إبادة شاملة . واستطاع خالد بعدئذ أن يحقق انتصاراته في أجنادين واليرموك بعد متاعب عديدة تعرض لها المسلمون في القتال ، ويذكر التاريخ بعضا من عبقرية خالد في معارك الشام حين استخدم بطون الإبل

لتخزين الماء لشرب الجياد، و نجاحه في اجتياز بادية الشام قادما بقواته من فارس والعراق في أقصر وقت عبر طريق وعر .

استدراج وعزل

قبل معركة اليرموك علم خالد أن الروم قد حشدوا جيشًا يقرب من ٢٤٠ ألف جندي ، فتوجهت جيوش المسلمين إليهم. وأظهر خالد أحد تكتيكاته الجديدة، فقسم جيشه فرقًا كل منها ألف رجل، وجعل على ميمنته عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وعلى القلب أبا عبيدة، وجعل على رأس كل فرقة بطلاً من أبطال المسلمين أمثال القعقاع وعكرمة وصفوان بن أمية. ثم رسم خالد خطة لاستدراج الروم بعيدًا عن مواقعهم التي حفروا أمامها الخنادق ، وخطط للهجوم الذي استمر ستة أيام وانتهى بانتصار مؤزر للمسلمين على الروم الغزاة ، وكان انتصار اليرموك بداية نهاية سيطرة الروم على الشام.

وقد عزل الخليفة عمر- رضي الله عنه - خالدا بعد المعركة ليس عن سخطة ولا خيانة ، ولكنه خاف أن يفتتن به الناس ، وأن يوكلوا إليه ويُبتلوا به. وأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة ، ومع ذلك ظل خالد جنديا مطيعا في الجيش الإسلامي إرضاء لله .حتى توفي في عام ٢١ هـ ودفن في حمص ، ويسجل التاريخ مقولته التي تدل على عظمته وشموخه وحبه لله ورسوله : " لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر، إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء ".

ليتني ما ذهبت

لماذا أبكاني خالد بن الوليد في اليرموك مثلما بكى وهو على فراش الموت ؟ لقد رأيت الغزاة الصهاينة يحتلون من أمامي أراضي ثلاث دول عربية : فلسطين وسورية ولبنان ، وأهلها يملكون السلاح والرجال ، ويعرفون فنون الحرب والقتال ، ولكنهم للأسف لا يقاتلون العدو أبدا مع أنه يبدأ بقتلهم والإغارة عليهم ، إنهم يقتلون أنفسهم ، ويقصفون مدنهم بطائراتهم ، ويدمرونها بصواريخهم ودباباتهم ومدافع الميدان !! أما العدو الغاصب فهو في مأمن واحتلاله آمن ويتصرف في الفريسة التي هي بلاد العرب كيف شاء !

منطقة اليرموك وما حولها وثيقة الصلة بسورية ، ومنها يهرب مئات السوريين يوميا إلى الأردن فرارا من الموت الذي لا يتوقف في سورية الجريحة . فالمنطقة بعيدة نسبيا عن سيطرة نظام دمشق الدموي المستبد ، فضلا عن أن كثيرا من أهالي المنطقة الأردنيين لهم ميول بعثية موالية للنظام ، وكان بعضهم عضوا فاعلا في حزب البعث !

بعد العودة قلت لنفسي : ليتني ما ذهبت إلى موقع اليرموك ، فقد زادت أحزاني على الأمة وما يجري لها وفيها ، واشتدت آلامي النفسية والجسمية ، وبعد العودة إلى الفندق لم استطع النوم بسبب الحزن والسعال الشديد !

خط التماس الثلاثي

صباح اليوم الرابع كنا في السيارات باتجاه الأغوار وقلعة عجلون التاريخية . عدنا إلى إربد القريبة من المكان ، كان أحد المشرفين على المؤتمر ينتظرنا هناك ، مع آخر من أبناء فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ، اسمه أبو يحيي ويعيش لاجئا في الأردن منذ طفولته . ويعمل خطيبا بأحد المساجد ، ويعرف المنطقة معرفة دقيقة ، وله علاقات اجتماعية واسعة وخاصة بمن يتولون أمور الإدارة ، وقد أحضر تصريحا للوفد الزائر بزيارة خط التماس الثلاثي بين الأردن وسورية (الجولان المحتلة) وفلسطين المحتلة .

الأغوار هي المنطقة الأكثر انخفاضا في الأردن ، وربما في العالم ، ويقدر انخفاضها عن مستوى البحر بمائة وخمسين مترا ، ويجري بها نهر الأردن ، وهناك قناة نهر الأردن التي أقامها الأردنيون لتنقل بعض مائه للري ، ويسحب إليها الماء عن طريق مضخات قوية .

التلال والسفوح والأغوار مليئة بالخضرة والنباتات العشبية والأشجار ، وفي فصل الربيع تزدهر ويقصدها الناس للفسحة والتريض وخاصة في الإجازة الأسبوعية وعند وصول وفود سياحية أو زوار اجانب ، ويشهد يوم الجمعة من كل أسبوع زحاما شديدا هناك .

نخيل قصير الساق

في مثلث الحدود يسيطر الغزاة اليهود على الجولان ، ويقيمون هناك مزارع ومطارات زراعية ، ورأيت مسجدا على السفوح قيل إنه تحول إلى مرقص للجنود والمجندات ، وكانت تنبعث من مكبرات الصوت على مئذنته الأغاني الصهيونية الماجنة ، ولكنه تحول فيما بعد إلى متحف !

وقد لاحظت على الجانب الآخر من خط التماس نوعا من النخيل قصير الساق ، عرفت فيما بعد أنه يسمى النخيل القزمي ، ويخضع عادة لعملية تهجين زراعي يقوم بها الغزاة الصهاينة بقصد سرعة الحصول على إنتاج مضاعف في زمن قصير ، ولا أدري هل لذلك علاقة بالفسائل المريضة التي صدّروها إلينا وأصابت نخيلنا المصري بأضرار فادحة أم لا ؟

بيد أن أقسى مالا حظته كان السور الشائك المكهرب الذي يمثل خط التماس الأول ، يليه طريق ترابي بحذاء السور الشائك المكهرب ، وطريق آخر مسفلت ، وفي النهاية مركز الرصد والإنذار المتصل بالقيادة العسكرية للاحتلال ، الذي يتلقى إشارات التسلل أو الاختراق بمجرد اللمس الذي يؤدي إلى صعق اللامس أو المخترق .

عصير القمح

في أثناء التجوال في المنطقة شرح لنا الدكتور سمير الحلو ، وهو طبيب متخصص ، قيمة النباتات العشبية والأشجار الموجودة في الأغوار وأهميتها في معالجة بعض الأمراض، ومنها الخريفيش الذي يشبه الخس ، ولكنه مليء بالأشواك ،ويعالج أمراض الكبد الشائعة وأمراض البطن الأخرى . ثم حدثنا الدكتور سمير عن أعشاب ونباتات أخرى أهمها عصير القمح إذا بلغ طوله عشرين سنتيمترا ويعالج مجموعة من الأمراض ويزيد حيوية الجسم ونشاطه .

في التلال المحيطة بالأغوار تنمو أشجار البلوط والصنوبر وأشجار الفلفل والسرو وغيرها وتشكل غابات طبيعية رائعة المنظر ذات بهجة .
من الأغوار انتقلنا إلى منطقة عجلون التاريخية ، وتعد أعلى منطقة في الأردن – على عكس الأغوار – وترتفع عن سطح البحر الفا وخمسمائة متر ، وعلى قمتها قلعة صلاح الدين ، ويسمونها شعبيا هناك قلعة عجلون ، ويطلقون عليها أحيانا قلعة الربض ، نسبة إلى قبيلة عربية مسيحية ، ما زال أهلها يتمسكون بالقيم العربية ، ونساؤهم يضعن غطاء على رءوسهن حرصا على التقاليد .

اسم راهب

وتقع عجلون تقع في شمال غرب العاصمة عمان على بعد ٧٦ كم وهي عبارة عن سلسلة من الجبال المرتفعة (وتعرف بسلسلة جبال عوف) وعرفت عند القدماء بالاســـم الأموي (جلعاد) وتعني الصلابة أو الخشونة، وعرفت عجلون بهذا الاســـم نسبة إلى اسم راهب سكن جبل عوف في منطقة القلعة، وبها كثير من العائلات الأردنية الشهيرة ، وتعد عجلون حلقة وصل بين بلاد الشام وساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد أدرك هذه الأهمية القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي حيث أمر عز الدين أسامة أحد قادة جيشه ببناء القلعة على قمة جبل عوف في عام (٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م).
وقد سمح الحراس على البوابة التي تبعد عن القلعة نحو نصف كيلو متر أو أكثر بدخول السيارات نظرا لأننا نحن الزوار من كبار السن الذين لا يستطيعون السير طويلا ، فضلا عن وجود سيدات لا يحتملن مشقة الحركة والمشي .
كانت القلعة محاطة بالماء من جميع الجهات ، وذلك لمنع الأعداء من الوصول إليها . ويدل بناء القلعة على عبقرية عسكرية فريدة لصلاح الدين الأيوبي وقادة جيشه والمماليك من بعده الذين أضافوا إليها . فهي مبنية بالحجارة القوية ، ومحصنة من جميع الجهات ، وبها مخازن كبيرة للتموينات تكفي فترات طويلة فضلا عن أماكن السلاح والعتاد ، بالإضافة إلى فتحات تستخدم لتسديد الضربات القاتلة للعدو بالسهام والنبال ونحوها .

استثمار سياحي

وتستثمر الحكومة الأردنية قلعة صلاح الدين سياحيا ويرتادها أعداد غفيرة من المواطنين والأجانب ، والصعود إليها هواية كثير من الزوار وخاصة الشباب ، فمثلي من الشيوخ المرضى يصعب عليه الصعود . وتمتاز منطقة عجلون بالمناخ الفريد من نوعه حيث يكون معتدلا صيفا باردا شتاءً ويبلغ متوسط درجة الحرارة في الصيف ٢٥م وتصل درجات البرودة في الشتاء تحت الصفر.
ويتبع عجلون أكثر من ٢٧ قرية وبلدة، ومن أهمها: ،الوهادنة. عرجان، عين جنا، اشتفينا، سامتا، محنا، رأس منيف، أم الينابيع، كفرنجة، عنجرة، صخرة، عبين، عبلين، الهاشمية، حلاوة ، أوصرة، الطيارة-المرجم .. وتضم عددا من المواقع الأثرية المهمة والمساجد .
وقد خرجنا من عجلون إلى مناطق أثرية أخرى منها أم قيس ذات الجبال العالية التي تشرف على بحيرة طبريا الفاصلة ما بين الأردن وفلسطين ، وكانت مركزا لحكم

الوالي العثماني أو الباشا الذي يجمع المكوس ، وقيل إن اسمها تحور عن المكوس إلى أم قيس ، وفي المنطقة بقايا مدن رومانية قديمة .

الأجساد الطاهرة

اقتربت صلاة الجمعة وفهمنا من الدليل (أبي يحيى) أننا سنصلي في مسجد معاذ بن جبل - رضي الله عنه . ويقع في غور الأردن، الذي وصفه الله تعالى بأنه أدنى الأرض، ويحتضن الأجساد الطاهرة لثلاثة عشر ألفا من الصحابة الكرام . ذهبنا أولا إلى مقر جمعية تحفيظ القرآن الكريم ، لنتوضأ استعدادا للصلاة ، ثم خرجنا إلى مسجد معاذ ، فوجدناه مكتظا بالمصلين الذين ملأوا الساحات من حوله وسياراتهم بلا حصر ، لم نجد مكانا متاحا لنا ، فانصرفنا إلى مسجد قريب ، وبعد الصلاة وانصراف المصلين ، عدنا إلى مسجد معاذ لزيارة الضريح الذي دفن فيه الصحابي الجليل الذي توفي شهيدا مع ولديه وزوجتيه في طاعون عمواس الذي حل بالمنطقة وذهب بعشرات من الصحابة وأسرهم وغيرهم من الأهالي .

لقد شهدت المنطقة جهادا عظيما في صدر الإسلام واستشهد بها عدد كبير من الصحابة دفنوا بها منهم أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، وعامر بن أبي وقاص...

رائحة ذكية

ضريح معاذ تنبعث منه رائحة ذكية تشبه المسك ، وهي مستمرة في كل الأوقات ، وقد سأل أحدنا ما إذا كان هناك من يطلق بخورا أو يضع نوعا من العطور على الضريح ، فأقسم من أجابه بأنه يشم تلك الرائحة المتميزة في الضريح منذ طفولته ولم ير أحدا يضع شيئا من بخور أو عطر أو غيره ، وقد تناقلت الأجيال حديثها عن هذه الرائحة مؤكدين أنها تلقائية وليست من صنع البشر .

ولاشك أن هذه الكرامة تكريم إلهي لمعاذ الخزرجي الأنصاري الذي وصف كلامه كأن فيه نورا ولؤلؤا ، وقال عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم : «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل» ، وحين بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه . معاذ راكب ورسول الله يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذ خاشعًا لفراق رسول الله، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة ، وقال عنه النبي – صلى الله عليه وسلم : استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل .

عن مالك الداري أن عمر بن الخطاب أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تَلَهَّ ساعةً (أي انتظره) في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب الغلام قال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: الله ! يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه، قال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ، يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي

إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأته فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فدحا (فدفع) بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

أسهم بينهما

عن يحيى بن سعيد قال: كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يشرب في بيت الأخرى الماء. وعن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان فإذا كان يوم إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى ثم توفيتا في السقم (الطاعون) الذي بالشام والناس في شغل فدفنتا في حفرة فأسهم بينهما أيتهما تقدم في القبر.

عن عبد الله بن رافع قال لما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف على الناس معاذ بن جبل واشتد الوجع فقال الناس لمعاذ ادع الله أن يرفع عنا هذا الرجز فقال إنه ليس برجز ولكنه دعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم وشهادة يختص الله بها من يشاء من عباده منكم، أيها الناس أربع خلال من استطاع منكم أن لا يدركه شيء منها فلا يدركه شيء منها، قالوا : وما هن؟ قال يأتي زمان يظهر فيه الباطل ويصبح الرجل على دين ويمسي على آخر، ويقول الرجل والله لا أدري علام أنا ؟ لا يعيش على بصيرة ولا يموت على بصيرة، ويعطى الرجل من المال مال الله على أن يتكلم بكلام الزور الذي يسخط الله، اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفى من هذه الرحمة، فطعن ابناه (أي أصيبا بالطاعون) فقال: كيف تجدانكما؟ قالا: يا أبانا " الحق من ربك فلا تكونن من الممترين" ، قال: وأنا ستجداني إن شاء الله من الصابرين، وتوفي معاذً في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة من الهجرة ، وعمره ثمان وثلاثون سنة، على الأرجح – رضي الله عنه ورحمه .

الوادي الأخضر

في طريق العودة تناولنا الطعام في مطعم الوادي الأخضر بجرش ، وهو مطعم كبير ضخم ويشبه المطعم الذي تغدينا فيه في يوم سابق ، ولكن حجم الرواد والعاملين كبير للغاية ويفوق الآخر ، ويلاحظ أن الشباب المصري هو الذي يقوم بالخدمة في أرجاء المطعم بمنتهى النشاط والحيوية والانتظام . وتحدثت مع بعضهم لأستطلع أحوالهم ، فوجدتهم ينتمون إلى محافظات مصرية مختلفة ، ولكنهم راضون بصفة عامة ، وهناك بعض النكت التي يطلقها الأردنيون على كثافة العمالة المصرية والزوار الأجانب وقلة الأردنيين ، وهي تعبير ضاحك يسجل لحظات من الواقع الذي تمر به البلاد في لحظة ما .

في طريق العودة ، تحدثت لأول مرة في ميكروفون السيارة بعد إلحاح . في المرات السابقة اعتذرت ولزمت الصمت . في هذه المرة تناولت المؤتمر وأهميته في تنمية العلاقات الأدبية والفكرية وتوحيد الأمة ، وأشرت إلى قيمة الأبحاث وثرائها . ولفت نظري شاب في السادسة عشرة هو يوسف ابن الطبيب سمير الحلو الذي أتحفنا طوال أيام الرحلة بكثير من المعلومات والفوائد الطبية سواء ما يتعلق بالأعشاب والنباتات أو بعض العادات والأمراض الشائعة . يوسف يقظ وواع وملتزم دينيا وخلقيا وذو مروءة ، وشقيقه حسان في الثانية والثلاثين ؛ وكلاهما ابن لأسرة طيبة مباركة ، ولا

عجب فأمهما خولة العناني الأديبة والمربية الفاضلة التي تحظي بتقدير بنات جنسها ، واحترام الأدباء .

شاعر هاو

اكتشفت في السيارة شاعرا هاويا هو الناشر عبد الهادي يسف ، صاحب مكتبة سلمى بتطوان في المغرب وزوج الأديبة الدكتورة سعاد الناصر ، قرأ قصيدة تعبر عن حبه لأسرته ، وصاغها في لغة بسيطة ولكنها عميقة ، ويشير إلى اسماء أبنائه وزوجه التي تبدأ بحرف السين . يقول فيها :

هو أنا
هو أنا
وفي الختام أكون أنا
وحولي سلوى وسنا
وسلمى وساجد وسارة وسليم وأنا
لكن ما يجمعنا
اسم لا كالأسماء سما
اسم له مملكة السين وأنا
اسم إلى أفق الملكوت دنا
اسم يبتدئ بالسين وما
كل الأسماء لها سين إلا أنا

كان معنا شاعر جزائري جهير الصوت – نسيت اسمه - وكان يلقي علينا قصائده الحماسية التي تفيض إخلاصا وصدقا ، وكانت تلح عليه قضية القدس والمسجد الأقصى . وكنت أستثيره لينظم وينشد ، ولكنه غادرنا قبل نهاية الملتقى بيوم فافتقدناه يوم الرحلة إلى الأغوار وعجلون .

نهاية الرحلة

عدنا في الثامنة مساء . كان زميلي في الغرفة الدكتور سعد قد غادرنا قبلها بيوم لارتباطه بالتزامات في القاهرة . لزمت الغرفة بسبب متاعب صدري التي حرمتني النوم ، وعرفت بعد العودة أنها نزلة شعبية حادة اقتضت علاجا مكثفا ، هدّ قواي ، ولكن الله سلم ، ومنحني الشفاء بعد أسابيع من تعاطي الأدوية والمضادات الحيوية . استيقظت مع الفجر لأصلي وأقرأ الورد اليومي - وهل نمت اصلا ؟ - فقد كان اليوم موعدنا للعودة . انطلقت بنا السيارة بعد الإفطار . المطار مليء بالمسافرين ، وطابور الجوازات طويل ، جاء مسئول أمني يرتدي ملابس مدنية ، وحاول التخفيف عن الناس ، وجعل أكثر من موظف يقوم بعملية المراجعة وختم الخروج ، وكان حظي أن اقف أمام شاب مكتوب على شباكه " الدبلوماسيون "، قدمت إليه جوازي فدفعه بيده بطريقة مستفزة ، تحليت بالصبر وسكت ، وبعد قليل سحب الجواز وسألني بطريقة سخيفة : ماذا تعمل ؟ قلت له باقتضاب : الوظيفة في الجواز ، ولكنه أصر على تكرار السؤال ، فقلت له : إنك تعرف القراءة والكتابة والوظيفة مكتوبة في الجواز . فوجدته يلقي إلى الجواز ويقول لي : اذهب إلى شباك آخر . هنا شباك الدبلوماسيين . وهنا تخليت عن الصبر ، وناديت المسئول الأمني بصوت عال ،

ويبدو أن الرجل كان يتابع ما يجري فوجدته يأتي مسرعا ، ويعتذر إلى ، ويأمر الموظف أن ينهي الإجراءات ، فأنهاها على مضض ، وكان في غاية الغضب ، وكدت أقول للمسئول : قل لمن يعنيهم الأمر أن يغيروا عتبة البيت !

رقية تنتظرني

في مطار القاهرة كان موظفو الجوازات يتعاملون بأدب ورقة مع الأجانب ، ربما فاقت معاملتهم لأشقائهم المصريين وهو أمر طيب على كل حال .

كانت رقية تنتظرني في السيارة ، فرحت بها . لم أرها منذ فترة ، كانت مع والديها ، حين تحدثت معها وجدتها أضافت إلى معجمها بعض الكلمات القليلة عما رأته في حديقة الحيوانات : الزرافة والفيل والأسد . احتضنتها طوال الرحلة حتى وصلنا إلى القرية ، استعادت لعبها ودبدوبها والعجلة التي تركبها والكرة التي تلعب بها .

وكانت تطن في أذني قصيدة القدس :

و ستغسل يا نـهر الأردن وجهي بمياه قدسية
و ستمحو يا نـهر الأردن آثار القدم الهمجية

***

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته ، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م .
٢- تيسير علم المعاني ، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م .
٣- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق ، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م .
٤- محمد- صلى الله عليه وسلم –في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) ،١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٩م..الطبعة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة (مصر) ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م .
٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية ، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م .
٦- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)،١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م .
٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث ، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م .
٨- مدرسة البيان في النثر الحديث ، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٦ م.
٩- تطور الشعر العربي في العصر الحديث ، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م .
١٠ – المدخل إلى البلاغة النبوية، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م .
١١- الأدب المقارن : المفهوم والتطبيق ، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥م .

ثانيا : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :

١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل، ٢٠٠٩م .
٢ - وجوه عربية وإسلامية، ٢٠٠٨م .
٣ - الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) ، ٢٠٠٩م .الطبعة الأولى ، دار الأرقم ، الزقازيق (مصر) ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣ م .
٤ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) ، ٢٠٠٨م .الطبعة الأولى ، دار البشير ، عمّان (الأردن) ، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م .
٥ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) ، ٢٠١٠م . الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٦ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، ٢٠٠٩م ، الطبعة الأولى ، نادي جازان الأدبي (السعودية) ، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م .
٧ – روائع القصص النبوي : في رياض النبوة (٤ أجزاء) . الطبعة الثانية ، دار الصحابة ، طنطا (مصر) ، ٢٠١٢م .
٨ - شعراء وقضايا : قراءة في الشعر العربي الحديث ، ٢٠٠٨م .

ثالثا : كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد – القاهرة :

١- التمرد الطائفي في مصر : أبعاده وتجلياته ، ٢٠١١م .
٢ – العمامة والثقافة : دفاع الإسلام وهجوم العلمانية ، ٢٠١١م .
٣ – عباد الرحمن وعباد السلطان، ٢٠١١م .

٤ـ الأقلية السعيدة : يوميات التمرد والتسامح ، ٢٠١١م .
٥- ثورة الورد والياسمين : من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل ، ٢٠١١م .
٦ - اخلع إسلامك .. تعش آمنا ؟! ، ٢٠١١م .
٧ – تدبير المنزل – ما بعد الثورة ،٢٠١١م .
٨ – الضيافة والشهادة ، ٢٠١١م
٩ – عواصف الربيع العربي ، القاهرة ، ٢٠١١م .

رابعا : إسلاميات :

١ - مسلمون لا نخجل (٤ طبعات)، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .
٢ - حراس العقيدة (٣ طبعات).الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
٣ - الحرب الصليبية العاشرة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٤ - العودة إلى الينابيع : فصول عن الفكرة والحركة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د. ت .
٥ - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٦ - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٧ - هتلر الشرق .... ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٨ - جاهلية صدام وزلزال الخليج ، دار المعراج الدولية للنشر ، الرياض ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .
٧ - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) . طبعة السعودية ، مؤسسة آسام للنشر ، الرياض ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .
٨ - النظام العسكري في الجزائر ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م .
٩ - حفنة سطور .. شهادة إسلامية على قضايا الأمة ، دار المعراج الدولية للنشر ، الرياض ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م .
١٠ - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة ، مركز الإعلام العربي ، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م .
١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .
١٢ - تحرير الإسلام ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .
١٣ - دفاعا عن الإسلام والحرية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
١٤ - التنوير .. رؤية إسلامية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م .
١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري ، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م .
١٦ - العصا الغليظة ، كتاب المختار ، القاهرة ، د . ت .

١٧ - واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية ، طنطا (مصر) ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م .
١٨ - ثقافة التبعية : المنهج . الخصائص . التطبيقات ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧ م .
١٩- انتصار الدم على السيف ، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م .
٢٠ - المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات ، مكتبة سلمى الثقافية ، تطوان (المغرب) ، ٢٠١٢م .
٢١- أهل الفن وتجارة الغرائز ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .

خامسا : كتب أدبية ونقدية :

١- الغروب المستحيل (سيرة كاتب) ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، د . ت .
٢- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) ، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية ،الفاهرة ، ١٩٧٤م .
٣- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٦م
٤- موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة) ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٨٧م .
٥- حوار مع الرواية في مصر وسورية ، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٩م ..
٦- الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٢٧هـ =٢٠٠٧م .
٧- إنسانية الأدب الإسلامي ،مكتبة بستان المعرفة ، كفر الدوار (مصر) ، ٢٠٠٨م .
٨- حصيرة الريف الواسعة ، مكتبة بستان المعرفة ، كفر الدوار (مصر) ، ٢٠٠٨م .
١٠- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة ، وزارة الأواف والشئون الإسلامية ، سلسلة روافد ، الكويت ، ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م .
١١– الحكاية كلها معاصرة(دراسات في الرواية) ، دار حضر موت ، المكلا (اليمن) ، ٢٠١١ م .
١٢- الحداثة العربية : المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م .
١٣ – بالاشتراك مع آخرين ، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل ، تحرير وإشراف أسامة الألفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢ م .
١٤ – بالاشتراك مع آخرين ، أمل دنقل عابرا للأجيال ، تحرير وإشراف : أسامة الألفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٣ م .

١٥ – مطولة على أحمد با كثير ،مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية) ، د. ت .
١٦ – الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) ، دار الهلال ، ١٩٧٦م .
١٧ – لويس عوض : الأسطورة والحقيقة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م
١٨ – نحو رواية إسلامية ، ملحق المجلة العربية (٢٩) ، الرياض ، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .
١٩ – زمن البراءة : النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية) ، الوادي للثقافة والإعلام ، القاهرة ، ١٤٣٦ هـ =٢٠١٥ م .
٢٠ – زمن الهزيمة : النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية) ، الوادي للثقافة والإعلام ، القاهرة ، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥ م .

سادسا : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية ، ط٢ ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ = ١٩٩٢م.

سابعاً: كتب للأطفال :

١- واحد من سبعة ،هيئة قصور الثقافة ، سلسلة كتاب قطر الندى – العدد ١٦٤، القاهرة ، د . ت .

ثامنا : كتب محققة :

١- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠١٠م.
٢- طائفة من المؤلفين ، أحسن ما كتبت ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠١٠م.
٣ – المتنبي ، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة ، القاهرة .
٤ – تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع) ، دار الفضيلة ، القاهرة .

تاسعا – كتب معدة للنشر:

- الإبادة والمقاومة : الشعب الفلسطيني لا يموت .
– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة) .
- الحلم والدهشة (قراءة أدبية) .
– اللحم الإسلامي المستباح .
- حضرت التبعية .. وغابت الهوية .
- صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا) .
- نداء الفطرة .
- ثقافة تزغيط البط !
- محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !
- القيم الإسلامية في رسائل النور
- كهنة آمون !

- الصرب في مصر .
- الوطن على كتفي !
- القبضة الفولاذية .
- على باب الحرية .

الفهـــــــــــــــــــــرس